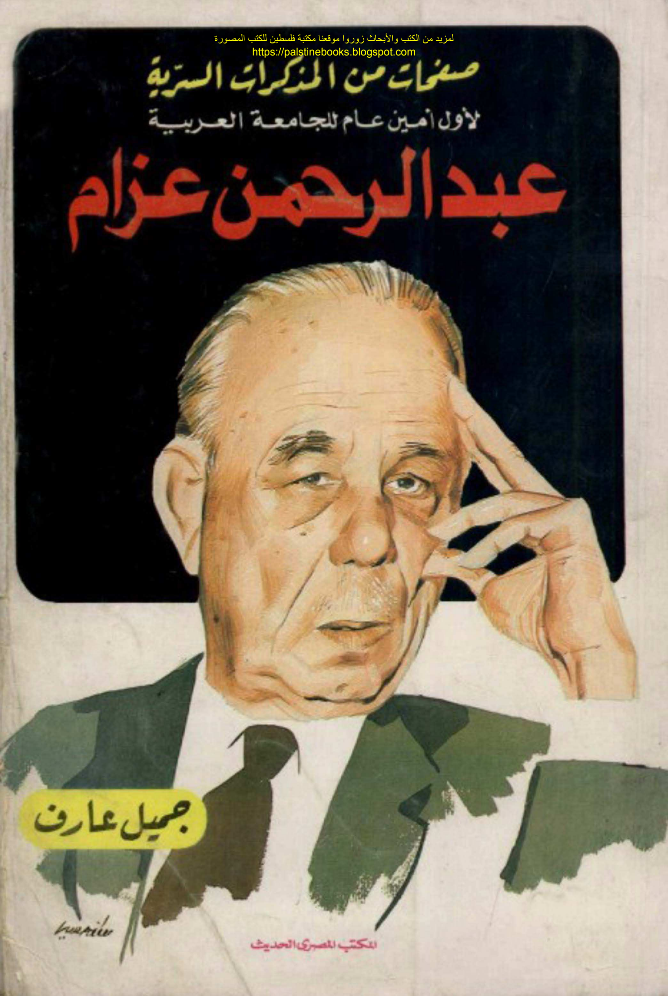

صفحات من المذكرات السرية
لأول أمين عام للجامعة العربية
عبد الرحمن عزام
جميل عارف
المكتب المصري الحديث

جميل عارف

صفحات من المذكرات السرية
لأول أمين عام للجامعة العربية



الجزء الأول

المكتب المصري الحديث

الناشر: المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
٢ ش شريف ت: ٥٣١٢٧ القاهرة
٧ ش نوبار ت: ٢٦٦٠٢ الاسكندرية

مذکرات عزام

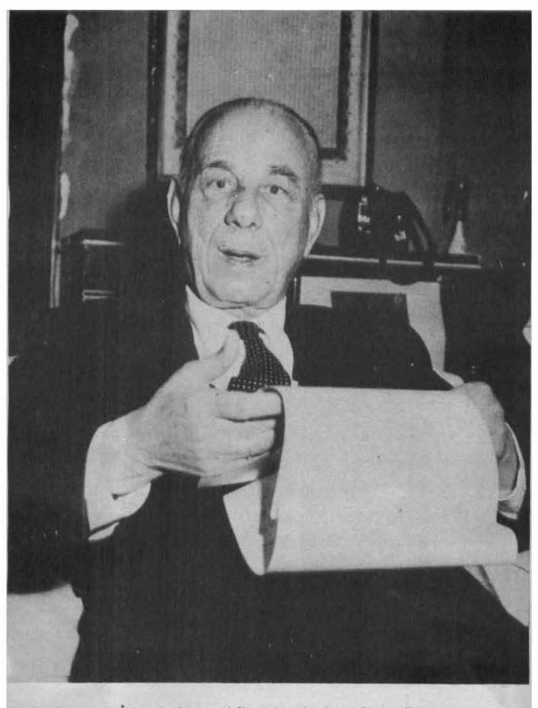
المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
٢ ش شريف ت : ٥٣١٢٧ القاهرة
٧ ش نوبار ت : ٢٦٦٠٢ الاسكندرية

اهداء

الى أرواح المجاهدين والشـهداء الذين سـقطوا فى معـارك الشرف والحـرية دفاعا عن أرض الوطن العربى الكبير..

الى الابطال والمقاتلين الذين رفعوا راية الجهـاد، وحـاربوا قوى الاسـتعمار الذى كان يجثم فوق أرض بلادنا العربية..

الى أبناء الوطـن العـربى الكبير من الخليج الى المحيط أهدى هذه الصـفحات من مذكرات المجاهد العربى.. عبد الرحمن عزام..



■ المرحوم عبد الرحمن عزام يراجع صفحات مذكراته بنفسه قبل وفاته بعدة أشهر.

حديث كله ذكريات

بقلم : عبد المنعم الصاوى
وزير الثقافة والاعلام

كان عبد الرحمن عزام شعلة على طريق القومية العربية ، منذ أن عرف الطريق الى الكفاح . .

فى ليبيا حارب مع الثوار ، ليطرد الاحتلال من أرض عربية ، وحكم عليه بالاعدام مرتين ، ومع ذلك ، فقد ظل عزام ينتقل بين البدو والثوار ، فى جنح الظلام ، كالضمير السارى فى غسق الليل البهيم ، ينادى النيام ليستيقظوا ، ويهز الكبرياء العربى لينهض وليدفع عن أرضه العار . .

ومنذ عاد عزام الى أرضه ، وهو ينادى بالقومية العربية ، يوم كان اطلاق هذا النداء ، نوعا من الارهاص بالغيب . .

ودخل عزام مع حزبه ، ومع سعد زغلول فى صراع طويل ليقر فكرة القومية العربية فى الوجدان السياسى ، وكان يؤكد على الدوام أن العرب المتفرقين ، ضعاف ومتخاذلون ، لكنهم ان اتحدوا صاروا قوة ترهب أعداءهم ، وتفرض عليهم ارادة الحرية والاستقلال . .

والذين يقرأون تاريخ الفترة الماضية ، وموقف الحياد الذى وقفته مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، لا يعرفون أن فضل هذا الموقف يرجع الى اثنين من وزراء حكومة على ماهر : عبد الرحمن عزام وصالح حرب . .

فقد كان مجلس وزراء على ماهر كله ، يؤيد دخول الحرب الى جانب بريطانيا العظمى ، تنفيذا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، لكن عبد الرحمن عزام انبرى يفند المعاهدة بروحها لينقذ مصر من التورط فى حرب لا مصلحة لها فيها ، لأنها ليست موجهة ضدها . .

واقتنع مجلس الوزراء ، بعد أن كاد يوافق على دخول الحرب ، وتغير الموقف كلية ، بفضل عزام وزميله فى الوزارة صالح حرب . .

ومواقف كثيرة أخرى سجلها عبد الرحمن عزام فى مجلس الوزراء ثم فى جامعة الدول العربية . .

وقد يعرف الناس عن عبد الرحمن عزام، مواقفه من القومية العربية لكنى أذكر أن عبد الرحمن كان أول سياسى مصرى، دعا الى ما يمكن أن نسميه مذهب الوسط بين مختلف الايديولوجيات..

وكان كلما التقينا ـ وكثيرا ما كنا نلتقى ـ يحدثنى عن أننا أمة وسط بين الامم، وكنت أسأله: ماذا تقصد بهذه الامة؟.. وكان يقول: هى الأمة التى أخذت بحضارة الاسلام فى المنطقة العربية، وعلى امتداد العالم الاسلامى.. وكانت وجهة نظره أن هذه الأمة اتسمت بالهدوء وبالتعايش السلمى بين الطبقات وبحل مشكلات التناقض بغير صيغ التصفية أو فرض سلطة الطبقة أو احتكار النفوذ لطائفة.. ومن هنا كان يرى أن الضرورة تحتم نشأة فلسفة سياسية جديدة لا تستورد شعارات من هنا أو من هناك ولا تقيد نفسها بقيد معين وتتعامل مع الجميع على حد سواء..

ان الرجل قد ذهب الى رحاب الله، ومن حقه علينا أن نذكر له هذا الاتجاه الفكرى الذى ملأ عليه حياته وحتى آخر سنوات عمره..

* * *

شىء آخر من الذكريات معه.. فقد كان أول من تبنى فكرة الاعداد العسكرى للحرب الشاملة أو المقاومة الشعبية عندما تدعو الضرورة الى ذلك..

وقد جسد عزام فكرته فى انشاء ما سمى فى آخر الثلاثينات بالجيش المرابط.. وكانت فكرة هذا الجيش انه يتعدى الحدود الموضوعة للجيش النظامى فقد كانت معاهدة ١٩٣٦ تنص على ألا يتجاوز الجيش ١٨ ألف جندى ولكى يكسر هذا القيد دون خروج على المعاهدة استصدر قانونا بانشاء الجيش المرابط لينتشر فى أوسع دائرة داخل البلاد وليتدرب على الأداء العسكرى المحدود وعلى المساهمة فى الخدمات الاجتماعية الأساسية..

وقد ظل هذا الجيش قائما طيلة وجود عزام فى السلطة فلما ترك السلطة ذبل هذا الجيش حتى انتهى.. وكما قال الأستاذ عبد الرحمن عزام مرة:

ـ لقد كنت أتوقع دائما صداما مع الاحتلال البريطانى لتحقيق الجلاء وكنت أعد هذا الجيش ليتولى مهمة الحرب الشعبية لتحقيق الجلاء..

وأدرك رجال الاحتلال ما وراء هذا الجيش فعملوا على تصفيته عندما تقلص نفوذ عزام..

ان كثيرا من الذكريات عن عزام تتوارد على الخاطر، وعلى رغم ذلك فقد اختلف كثيرون فى تقييم سياسيته..

وأيا كان الخلاف حول الرجل فقد كان ظاهرة سياسية مشرقة أجمل ما فيها روح ديمقراطى يؤمن بحرية الانسان..

عبد المنعم الصاوى

قصة هذه المذكرات

كنت أقلب فى بعض أوراق عندما عثرت على ملف كامل يحتوى على مجموعة من الأوراق القديمة للسيد عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية..

ان تاريخها يرجع الى سنة ١٩٥٠ عندما نشب الخلاف بينه وبين الملك السابق ادريس السنوسى قبل اعلان استقلال ليبيا..

كان ادريس السنوسى قد اتهم عزام بأنه يسعى للتربع على عرش ليبيا..

ورد عزام على هذا الاتهام بأنه لم يفكر فى يوم من الأيام فى أن يصبح ملكا..

وقال.. انه لو كان يسعى وراء عرش ليبيا كما قال ادريس السنوسى لما وقفت عقبة فى سبيله..

وفى تلك الأيام كان الشعب الليبى كله يلتف حول عبد الرحمن عزام.. كانت القبائل تعرفه منذ خرج فى شبابه ليحارب مع المجاهدين الليبين ضد الاستعماريين الانجليزى والايطالى..

وكان هو صاحب فكرة اعلان أول جمهورية عربية قامت على الأرض الليبية أثناء المعارك ضد الايطاليين وهى الجمهورية الطرابلسية..

وأصبح المجاهد القديم بعد قيام الجامعة العربية فى سنة ١٩٤٥ المحامى عن قضية الشعب الليبى فى المحافل الدولية والسياسية..

واستطاع الرجل من موقعه كأول أمين عام للجامعة العربية بعد انشائها أن يوحد كلمة الملوك والرؤساء العرب لمساندة شعب ليبيا فى معركته من أجل تحقيق وحدة بلاده واستقلالها..

وصحيح أن خلافات كثيرة قد نشبت فى تلك الأيام بين عبد الرحمن عزام وادريس السنوسى حول أسلوب النضال من أجل تحقيق أهداف الشعب الليبى، الا أن هذا الخلاف لم يكن ليمنع المجاهد القديم من أن يواصل جهاده فى معركة استقلال ووحدة ليبيا..

وكان ان فتح بيته فى ضاحية (أبو قير) فى الاسكندرية وبيتيه فى العجوزة وحلوان لتصبح الملتقى لكل الليبيين بما فيهم ادريس السنوسى نفسه .

واستطاع عزام بأسلوبه الواضح ان يوحد كلمة المجاهدين الليبيين ليكونوا يدا واحدة فى مواجهة مؤامرات الدول الكبرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكانت تهدف الى تقسيم ليبيا واعادة سيطرة الدول الاستعمارية عليها . .

وكانت مؤامرات الدول الكبرى على جانب كبير من الخطورة ، مما اضطر معه المجاهد الكبير عبد الرحمن عزام إلى أن يتكلم . . وكانت هذه الأوراق القديمة التى تروى جانبا من قصة جهاد شعب ليبيا فى اخطر مرحلة من تاريخ حياته .

وتحتوى هذه المذكرات السياسية على صفحات أخرى تروى بعض تفاصيل الصراع الرهيب الذى عاشته أمتنا العربية ، وهى تجاهد من أجل أن تتحرر من نير الاستعمار الذى كان يجثم فوق أراضينا .

انه لم يكتبها بخط يده ، ولكنه رواها لى بنفسه فى عشرات الجلسات عندما كنت أذهب اليه فى بيته الذى يطل على النيل بالعجوزة أيام كان أمينا عاما للجامعة العربية ، وبعد أن أجبروه على الاستقالة . .

وأنا نفسى شاهدت الكثير من الأحداث التى رواها لى عبد الرحمن عزام فى هذه الصفحات من مذكراته السياسية ، فقد عملت فى بداية حياتى الصحفية ـ وكان ذلك فى نفس الوقت الذى انشئت فيه الجامعة العربية ـ محررا للشئون العربية . . .

وتوثقت العلاقات بينى وبينه ، وكان رحمه الله يثق بى ، ويعتبرنى أخا لولديه عمر وعصام . .

انه استاذى الذى تعلمت منه الكثير ، وكنت معجبا بطريقة « شيخ العرب » . . التى كان يحل بها المشاكل والمنازعات العربية . .

وعندما عاد عبد الرحمن عزام الى القاهرة فى زيارة خاطفة بعد ثورة التصحيح ، وبعد غيبة دامت أكثر من ١٥ سنة ، ذهبت اليه فى البيت الذى كان يقيم فيه فى حلوان . .

وتكررت زياراتى له ، وقد انتهزت الفرصة لأراجع معه بعض وقائع الاحداث الكبيرة التى شهدتها أمتنا العربية عندما كان أمينا عاما للجامعة العربية . .

ولم تكن مفاجأة عندما وجدته رحمه الله ، وقد تجاوز الثمانين من عمره ، يذكر الأحداث بتفاصيلها الدقيقة ، وكان يبدو وهو يراجعها معى متحمسا للعمل الكبير الذى كنت أقوم به . . وكانت سعادته لأننى استطعت على مدى سنوات العمل بالقرب منه أن أسجل بدقة هذه الصفحات من مذكراته السياسية . .

المهم . . جلست الساعات الطويلة أستمع الى المجاهد العربى الكبير ، وهو يراجع معى التفاصيل التى كانت تحتويها أوراقه القديمة ، وما كنت قد سجلته من أحاديث وذكريات استمعت اليها بنفسى منه ، عندما كان أمينا عاما للجامعة العربية . . وبعد أن أجبروه على الاستقالة . .

وفى تلك الأيام . . كان اللورد كيلرن الذى كان مندوبا ساميا ثم سفيرا لبريطانيا فى القاهرة قد نشر كتابا عن ذكرياته السياسية أشار فيه الى دور بريطانيا فى انشاء جامعة الدول العربية . .

وتحمس المجاهد العربى الكبير رحمه الله لتصحيح بعض الوقائع التى جاءت فى مذكرات اللورد البريطانى وهو يقول :

ـ صحيح أن فكرة الجامعة العربية خرجت من لندن ، وصحيح أن الانجليز كانوا يريدون الجامعة لتصبح أداة تعمل فى خدمة مصالحهم الاستعمارية . . الا اننى أحمد الله على أننا قد نجحنا برغم كل الدسائس والمؤامرات فى أن تصبح الجامعة العربية أداة تعمل فى خدمة كل أمة العرب .

* * *

كانت رغبة المجاهد العربى الكبير ألا تنشر هذه الحلقات من مذكراته السياسية الا بعد وفاته . .

وكان رأيه دائما . . أن كتابة المذكرات مسئولية تاريخية ، وقد أراد له القدر أن يتحمل مسئولية العمل العربى كأمين عام للجامعة العربية فى أخطر مرحلة اجتازتها أمتنا العربية بما فيها من سلبيات وايجابيات . . وكان كل ما يخشاه كما كان يقول بتفكير السياسى الذى عاش وعمل بأخلاقيات الفلاح ابن القرية ، أن يؤدى ذكر الوقائع التاريخية بتفاصيلها الدقيقة الى تعرية الكثيرين من السياسيين الذين عاشوا هذه المرحلة السياسية من حياة أمتنا العربية . . وأن هذه التعرية يمكن أن تكشف عن أخطاء لبعض هؤلاء السياسيين مما

سيضع بعضهم حتما فى صفوف عملاء الاستعمار والخونة .. وبالتالى فقد أراد أن يعفى نفسه من مسئولية فضح حقيقة هؤلاء الخونة تاركا للتاريخ والمؤرخين عبء هذه المسئولية ..

كان هذا هو رأيه ، ولكن بعض الأخطاء التى تضمنتها مذكرات اللورد كيلرن وخاصة ما جاء فيها عن موقفه رحمه الله من معارضة اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية الى جانب بريطانيا ، واصراره على تجنيبها ويلات الحرب ، وما ذكره اللورد البريطانى عن ظروف انشاء الجامعة العربية ، قد ساعدنى كثيرا على اقناع المجاهد الكبير بالموافقة على نشر هذه الصفحات من مذكراته السياسية ..

قال رحمة الله : هذه الصفحات تكفى فى هذه المرحلة ..

قلت له : وماذا عن بقية ما عندى من ذكرياتك التاريخية ؟

قال رحمة الله :

ـ انها معك للتاريخ والأيام ..

وأدركت ما كان المجاهد العربى الكبير يعنيه .. كان يريد أن يقول لى :

ـ أنت تعرف رأيى .. فاذا كنت قد سمحت بنشر هذه الصفحات فعليك أن تحترم رغبتى بتأجيل نشر بقية ما عندك الى وقت آخر !

* * *

أخذت على نفسى عهدا باحترام رغبة المجاهد العربى الكبير ..

وكان أن بادرت باعداد صفحات المذكرات التى وافق رحمه الله على نشرها لإصدارها كجزء أول من المذكرات ..

وقد تم تسليم هذا الجزء من الصفحات الى الصديق الناشر أحمد يحيى مدير المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر ..

وكان أملى كبيرا فى أن يجرى طبع هذا الجزء من صفحات المذكرات وأصدارها ليقرأها المجاهد العربى الكبير بنفسه فى حياته ..

ولكن قضاء الله كان أسرع ، فلم يتحقق الأمل الذى ظل يراودنى حتى اقدم لأستاذى

ومعلمي ما سجلته من صفحات مذكراته السياسية على مدى ٣٠ سنة من العلاقة الوطيدة التي ظلت تربطني به..

وكان أن صدرت هذه الصفحات التي تضمنها الجزء الأول من مذكرات المجاهد العربي الكبير.. ولكن بعد وفاته..

أما الجزء الثاني من هذه الصفحات، وهو الذي طلب إليّ تأجيل نشره، وكانت رغبته رحمه الله ألا ينشر الا بعد انتقاله الى جوار ربه.. فانني أعمل الآن احتراما للعهد الذي قطعته على نفسي، باعداده وصياغته..

وأهم ما يتضمنه هذا الجزء من المذكرات:

١ - الاتصالات السرية بين مصر ودول المحور أثناء الحرب العالمية الثانية..
٢ - مؤامرة في القاهرة على حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق..
٣ - لماذا فكر عزام في انشاء الجيش المرابط؟..
٤ - مؤامرات نوري السعيد لهدم الجامعة العربية؟..
٥ - قوات المتطوعين تدخل فلسطين باسم الجامعة العربية..
٦ - الجامعة العربية وحرب فلسطين..
٧ - خيانات عربية.. كانت وراء كارثة فلسطين!
٨ - الجامعة العربية واستقلال اندونيسيا..
٩ - حركة تحرير الجزائر بدأت من بيت عزام..!
١٠- الأسباب الحقيقية للخلاف بين عزام وادريس السنوسي..
١١- الجامعة العربية وانقلاب اليمن سنة ١٩٤٧..
١٢- الجامعة العربية وانقلاب حسني الزعيم في سوريا..
١٣- نصيحة لوجه الله ابلغتها للملك السابق فاروق..
١٤- وضعنا الخطة لاختطاف الأمير عبد الكريم الخطابي وهو في طريقه من المنفى الى باريس..
١٥- الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة ضيف على الجامعة العربية..
١٦- الجامعة العربية وحركة تحرير شمال أفريقيا..
١٧- تفاصيل رهيبة في قصة اغتيال الكونت برنادوت..
١٨- الخلاف بين عبد الرحمن عزام والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين..
١٩- عبد الرحمن عزام والمغفور له الملك عبد العزيز آل سعود..

٢٠- عبد الرحمن عزام.. والمغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز..
وأسرار أخرى كثيرة..

كما يتضمن الجزء الثانى من صفحات هذه المذكرات مجموعة من الصور والوثائق التاريخية التى وعدنى عمر وعصام ولدا المجاهد العربى الكبير رحمه الله بتزويدى بها حتى تخرج هذه الصفحات التاريخية سجلا حافلا لأحداث أمتنا العربية فى أخطر مرحلة من تاريخ حياتها السياسية..

* * *

وكما كان أملى كبيرا فى أن يتم طبع واصدار الجزء الأول من هذه المذكرات فى حياة المجاهد العربى الكبير رحمه الله.. كانت له عندما جاء الى القاهرة فى زيارته الخاطفة امنية..

كان يقول: أرجو أن يمد الله فى عمرى حتى تسنح لى الفرصة لزيارة أرض المعارك التى اشتركت فيها مع المتطوعين العرب عندما خرجنا لنجاهد فى سبيل الله ونقاتل الانجليز والايطاليين فى ليبيا..

وأراد الله أن يحقق للمجاهد العربى الكبير أمنيته..

وكان أن وجهت اليه فى شهر ابريل سنة ١٩٧٣ دعوة رسمية لزيارة ليبيا.. وسافر عبد الرحمن عزام، وهو مريض، الى ليبيا ليستقبله الشعب الليبى بحفاوة بالغة..

وانتهز المجاهد الكبير الفرصة لزيارة المناطق التى قاتل فيها وهو فى شبابه مع المجاهدين العرب، قوات الاستعماريين الانجليزى والايطالى..

وخرجت القبائل التى حارب معها ترحب به..

ونحرت له الذبائح فى كل مكان..

وامتلأت عينا عبد الرحمن عزام بالدموع لأول مرة فى حياته عندما التقى ببعض المجاهدين القدماء الذين لا يزالون على قيد الحياة..

وكانت حفاوة شعب ليبيا بالمجاهد العربى الكبير بمثابة حفل تكريم لجهاد الرجل الذى أفنى حياته وهو يجاهد فى سبيل تحقيق وحدة الشعوب العربية واستقلالها.. وكان أول من نادى بالقومية العربية..

جميل عارف

قالوا عن
عبد الرحمن عزام
بعد وفاته

كان يحلم بدولة عربية واحدة ..

بقلم : مصطفى أمين

عرفت عبد الرحمن عزام ، وأنا ولد صغير ببنطلون قصير ، على مائدة سعد زغلول . . كان سعد يستبقيه كثيرا للغداء والعشاء مع أسرته ، وكان عزام يومها شابا ثائرا عريض الاحلام كان أصغر النواب سنا وأكثرهم حماسا . . كان يحكى مغامراته الشائقة فى حرب البلقان ، وفى المعارك والقتال ضد الانجليز والايطاليين دفاعا عن استقلال ليبيا . . وكان يبدو لى كبطل من أساطير ألف ليلة . كأنه طرازان يشتغل بالسياسة ، وكان يعارض فى اجراء مفاوضات مع الانجليز ، ويدعو الى قيام حرب العصابات ويقترح أن يدعو سعد زغلول صراحة الى اعلان الجمهورية . . وكان يحلم بدولة عربية واحدة عاصمتها القاهرة ، وتمتد من المحيط الهندى الى المحيط الاطلسى . . وكان سعد زغلول يرى أن تتحرر البلاد العربية لتتحد وكان عزام يرى أن تتحد البلاد العربية لتتحرر . . وكان سعد زغلول يقول له : ان صفرا و صفرا يساوان صفرا ، ويجب أن نعمل على أن يكون كل واحد منا واحدا صحيحا ليمكن اتحادنا أن يكون شيئا قويا . . واذكر أنه عندما قرر المليونير أحمد عبود إنشاء جريدة يومية باسم (الكشاف) أن اختار سعد زغلول عبدالرحمن عزام مديرا لتحرير الجريدة ليشرف على سياستها، وصدرت الجريدة ونجحت .. وتقاضى عزام مرتبا ضخما لم تعرفه الصحافة قبله . . وبعد أسابيع قليلة اختلفت مع عبود . . عبود يرى أن تكون الجريدة معتدلة وعزام يصر على أن تكون متطرفة . . ورفض عزام أن يغير رأيه وداس على المرتب الضخم ، وترك الجريدة بعد أسابيع قليلة من صدورها ، وبعد ذلك بوقت قليل أفلست (الكشاف) . . ورأيت عبد الرحمن عزام يقاوم اسماعيل صدقى فى جبروته والأزمة المالية تأخذ بخناقه والحكومة تضغط على البنوك التى أقرضت أسرته لتعلن افلاسها ، وعزام يرفض أن يستسلم ، وأذكر أن الملك فؤاد عرض عليه أن يكون وزيرا للحربية لينتزعه من المعارضة ، ورفض المنصب ، وطلبوا منه أن يفكر وأعطوه مهلة اسبوعا ليرد وحددوا له موعدا فى منزل توفيق نسيم باشا رئيس الديوان الملكى يومئذ ليبلغه . . واستيقظ عزام فى اليوم المحدد فى منزله بحلوان ، وليس فى جيبه أجرة الانتقال الى القاهرة ، ولكنه وصل إلى منزل رئيس الديوان فى الحلمية مشيا

على قدميه ليقول « لا » ، ثم بعد ذلك اتجه الى النادى السعدى واقترض من الدكتور أحمد ماهر أجرة القطار الى حلوان . . وعاش فترة على الفول المدمس والطعمية . . ولم يندم على سنوات الفقر والجوع والتشرد . . ثم أصبح سفيرا ووزيرا وأمينا للجامعة العربية مرتبه أكبر من مرتب رئيس الوزراء ورأيته فى جناح فخم فى فندق (بلازا) فى نيويورك وكان يتحدث باعتزاز عن الأيام الحلوة التى كان يمشى فيها على قدميه من حلوان الى القاهرة ويعيش على الفول المدمس والطعمية .

وأظنه مات غير راض لأنه كان يتمنى دائما أن يموت فى معركة !

مصطفى أمين

عزام .. وجيل المسئولية

بقلم : حافظ محمود

الذين كتبوا عن عبد الرحمن عزام نسوا شيئا هاما فى حياته . . هذا الشىء هو انه كان فى يوم ما صحفيا . . ولم تكن الصحافة عنده هواية ولا احترافا ، انما كانت محاولة للتعبير عن وجهة نظر مستقلة بعد أن اضطربت الأفكار وتعددت الآراء عقب وفاة سعد زغلول ، وكان من آثار هذا الاضطراب الفكرى فى السياسة الداخلية فك الارتباط الذى كان قد ربطه سعد زغلول بين حزبه « الوفد » وبين معارضيه « حزب الاحرار الدستوريين » . . وما ترتب على فك هذا الارتباط من تجميد الحياة النيابية لفترة قصد بها طغيان الأغلبية على الأقلية أو العكس ، وإن كان هذا الهدف لم يتحقق فى هذه الأثناء .

وفى عام ١٩٢٨ فكر عبد الرحمن عزام فى صحافة من لون جديد ، لا هى تناصر هذا الفريق على ذاك ولا العكس ، صحافة تعبر عن الروح القومية وحدها ، على أن تدخل فى الروح القومية ارتباطات مصر الطبيعية بالأمة العربية كلها . .

وكانت الصحافة ، كصناعة ، قد بدأت الخروج من دائرة الأعمال « المحدودة » الى دائرة الأعمال التى تحتاج إلى رأس مال . . وفكر عزام فى الممول ، وجاءه الرد من صاحب الملايين أحمد عبود « باشا » بأنه على استعداد لأن يمول مشروع جريدة عزامية بشرط أن يكون لها اهتمامات اقتصادية . .

وظهرت الجريدة العزامية باسم جريدة « الكشاف » اليومية وعلى رأسها اسم عبود « باشا » كصاحب امتياز ، واسم عبد الرحمن عزام كرئيس تحرير . . ومع أن عبود باشا ، استطاع أن يطبع هذه الجريدة بطابعه الاقتصادى ، فإن عزاما استطاع فى نفس الوقت أن يقدم للقراء - لأول مرة - جريدة مصرية تتلخص سياستها فى « القومية العربية » . .

ولولا مصالح أحمد عبود وشركاته مع هذه الجهة أو تلك لعاشت هذه الجريدة طويلا ، فقد أعطاها عبد الرحمن عزام من جهده كل ما استطاع أن يعطيه من سهر الليالى ، لكنه وجد نفسه فجأة فى دوامة من التشابك المتصارع بين النشاط المالى لعبود وبين نشاطه الصحفى السياسى فاستقال من رئاسة تحرير الجريدة ، وأبى عبود باشا أن يجلس على كرسى رئيس التحرير احد غير عزام ، وقرر التنازل عن « امتياز » هذه الجريدة بعد أن

عاشت شهورا طوالا أعطى فيها عزام لحملة الأقلام نموذجا طيبا من التعبير..

تصرفاته كزعيم:

كان عبد الرحمن عزام من أقدر الناس على التعبير عما فى فكره وضميره.. كان هذا هو أول انطباع له فى نفسى عندما التقيت به لأول مرة فى جمعية «الرابطة العربية» التى أنشأها الصحفى الراحل «أسعد داغر» فى السنة الأخيرة للحرب العالمية الثانية استعدادا للمواجهة العربية عقب نهاية هذه الحرب..

فى اجتماع هذه الجمعية وجه عزام الخطاب الى صغار السن، من أمثالى اذ ذاك، وهو يقول لنا:

- هذه الجمعية تمثل سياسة الجيل الجديد فى الغد القريب..

وفى هذا الاجتماع كان هناك إجماع على أن تنعقد رئاسة هذه الجمعية لعبد الرحمن عزام.. فاذا بعزام يقول: لا..

وأصر على موقفه وهو يقول.. أن ما من شىء يفسد علينا حياتنا العامة قدر التنافس على الرئاسات..

ثم أضاف: اننى سأزاول نشاطى فى هذه الجمعية من خلال صديق أسعد داغر سكرتير الجمعية.. ولا داعى مطلقا لأن تكون لنا رئاسات..

وبعد بضعة أشهر انشئت جامعة الدول العربية، واختير عزام امينا عاما لها.. وكان اختياره مستمدا من «بروتوكول» ملحق بميثاق الجامعة وضعه مؤسسو الجامعة خصيصا لعبد الرحمن عزام، ومن هنا أرى أن عزاما الأمين العام الأول لجامعة الدول العربية لم يعين بالاسلوب الذى عين به من جاءوا بعده من الأمناء.. انما هو - وحده - قد عين بملحق خاص من ملاحق ميثاق الجامعة.. وربما كان هذا مصدرا من مصادر قوته.

ان ما لا شك فيه.. أن عبد الرحمن عزام كان أقوى من تولى منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية، فقد كان يتصرف، وهو فى منصب الأمين العام كما يتصرف رؤساء الدول.. وكان يجرى الاتصالات مع رؤساء الدول، كما كان يجرى الاتصالات نيابة عنهم..

لقد رأيته وسمعته بنفسى وهو يخاطب ملك مصر وملك الأردن فى مأدبة أقامها لهما بمناسبة

زيارة الملك الأردنى « عبد الله » لمصر قائلا : هنا يجلس ملك مصر وهنا يجلس ملك الأردن . . دون أن يضيف الى كلامه عبارة « حضرة صاحب الجلالة الملك » . . ودون ان يستخدم عبارات المجاملة كقوله : فليتفضل جلالة الملك .

عزام . . الفدائى

بهذه الروح كان يتصرف عبد الرحمن عزام بوصفه امينا لجامعة الدول العربية . . وكان يتصرف بوصفه « زعيما » مصريا عربيا سواء أكانت مواقفه تنبع من نصوص ميثاق الجامعة أم لا . .

وانى لن أنسى يوم دعانا ، نحن الصحفيين ، فى ابريل سنة ١٩٤٨ ، الى اجتماع استأذن فى أن يعقده فى دار وزارة الخارجية المصرية ليتحرر من قيود نصوص الميثاق . . وحضر معنا هذا الاجتماع الدكتور محمد صلاح الدين ممثلا لوزارة الخارجية المصرية . . وفى هذا الاجتماع تبين لنا أن عزام يقف وراء الحركة الفدائية العربية التى سبقت دخول الجيوش العربية النظامية أرض فلسطين فى منتصف شهر مايو . .

وكان عزام يثق فى وطنية الصحفيين الحاضرين فاذا به يقول لنا :

ـ لقد اتفقت مع قيادة الجيش المصرى سرا على أن تزودنا ـ يقصد الفدائيين الذاهبين الى أرض المعركة ـ بالأسلحة بطريقة غير رسمية . .

ثم سكت عزام قليلا وأردف قائلا :

ـ واذا لم يعطونا القدر الكافى من السلاح ، فأنا سأذهب الى الصحراء الغربية وأحضر من مخلفات الحرب العالمية الثانية من السلاح ما يكفى الى أن تتدخل جيوشنا رسميا . .

هذا الموقف الذى لن انساه يعطى صورة واضحة عن الروح التى كان يتصرف بها عبد الرحمن عزام وهو أمين عام لجامعة الدول العربية . . صورة الرجل الذى يشعر بكل مسئولياته كوطنى قبل أن يكون موظفا . .

رحم الله عزاما فقد انطوت بانطواء صفحة حياته صفحة جيل من « المسئولين » . . لكن التاريخ لا بد أن ينشر هذه الصفحة بعد انطوائها لتكون دليلا لعمل الآخرين . .

حافظ محمود

كان خلاصة جيل وتاريخ ..

بقلم : محمد فهمى عبد اللطيف

مات عبد الرحمن عزام .. فطويت بموته صفحة تاريخ حافلة بالأمجاد ومواقف الجهاد ، وما كان الرجل الا حقيقة نادرة بارزة من حقائق هذا التاريخ لا يمكن أن تموت أو يطويها الجحود فى أطواء النسيان ..

لقد كان عبد الرحمن عزام فى حياته التى امتدت مع الزمن ثمانين عاما أو أكثر خلاصة جيل من الرجال الأفذاذ الذين صنعوا حياة الوطن العربى من جديد .. وبعثوه بعثا تاريخيا أخذ به مكانه تحت الشمس .. وفى سبيل هذه الغاية العظيمة واجهوا بطش الاستعمار فى اصرار وعناد .. وقاوموا سيطرة الاستبداد فى ثقة وعزة ورجولة .. وهناك من تخاذل على امتداد الطريق ، واستعظم بلوغ الغاية العظيمة البعيدة المدى .. أما الرجل فقد ظل على طريقه فى الكفاح والنضال ثابتا كالطود ، لا يلين ولا ينحرف ، ولا تزحزحه الاهوال عن غايته .. فان الكفاح فى الحق لم يكن فى تقديره الا دليل العزة والرجولة .. ولم يكن الثبات على الحق فى ضميره الا معنى من معانى الاخلاق الكريمة .. ولم تكن التضحية للحق فى وجدانه الا نخوة العروبة .. وهكذا عاش الرجل فى حياته .. وهو كل ما خلف من مآثر وتراث فى هذه الحياة ..

وكان عبد الرحمن عزام فى تكوينه طرازا فريدا من الرجال .. فهو لا شك شخصية عربية أصيلة تتمثل فيها كل السجايا العربية الأصلية ، وكان يطالعك حين تلقاه من معالم هذه الشخصية وجه العربى المسنون .. وقده السمهرى المشوق ، ورشاقته الرياضية البارعة .. فاذا خبرت حقيقته وجدته ينطوى على حقيقة روحانية تملأ قلبه ووجدانه وعصبه وروحه .. وهى الروحانية العربية التى تستهين بكل مظاهر الدنيا فى سبيل الشرف والعزة والكرامة ..

بهذه الروح .. أو بهذه الروحانية ترك الشاب عبد الرحمن عزام مقعد الدرس فى كلية الطب بانجلترا وخرج يمتشق السيف ليدفع عدوان الاستعمار الايطالى على ليبيا .. وليحارب فى الميدان جنديا ضد استعمار ظالم غاشم .. وهكذا عاش طول حياته جنديا فى

المعركة . . يناضل فى سبيل العروبة . . ويكافح الاستعمار فى ليبيا . . وفى مصر وفى كل مكان على امتداد الوطنين العربى والاسلامى ، فما كان الا السيف العربى المسلول فى وجه الاستعمار والطغيان . .

وانشئت الجامعة العربية . . وكان انشاؤها فكرة بريطانية أرادت بها بريطانيا ان تجعل من العرب وحدة تعتمد عليها فى تحقيق مصالحها ومآربها بعد أن تنتهى الحرب العالمية الثانية . . وجاء دور التصفية للشئون الدولية على ضوء النتائج التى تسفر عنها الحرب . . واسندت امانة الجامعة الى عبد الرحمن عزام ، وكان وضع الرجل فى هذا المكان كفيلا باعادة خلق الفكرة البريطانية خلقا عربيا له طابعه وشخصيته وحقيقته ، ووقفت الجامعة منظمة عربية للعرب ، واستطاع الرجل العربى الاصيل أن يجعل من الوليد الناشىء حياة قائمة وقوة تدوى انباؤها فى العالم ، وتسجل مواقفها فى التاريخ ، وفى اندفاعة طيش نحى الرجل عن مكانه فى الجامعة . . ثم استمر الطيش فحرم من ان يكون له مكانه فى وطنه . . ولكنه وجد مكانه مع تلك النخوة العربية الاصيلة فى الرياض . . وعاش يواصل الكفاح فى سبيل القضايا العربية ، واخيرا فتح امامه باب العودة الى الوطن . . ورأيته يوم عاد وقد جاوز الثمانين فوجدته كما رأيته وهو فى عنفوان القوة والشباب . . ذلك الفتى العربى الأصيل الذى يتدفق بروح العزة والإباء . .

ليس هذا تاريخ عبد الرحمن عزام ، فان تاريخه العظيم الجليل يملأ الأسفار . . ولا بد أن يروى هذا التاريخ شهادة صدق للابناء والاحفاد . . ولكنها كلمة وفاء واشراقه دمع على ذلك الرجل الذى كان خلاصة جيل من الأحرار الأفذاذ . . وعنوان تاريخ حافل من الأمجاد . .

محمد فهمى عبد اللطيف

أخى عبد الرحمن

بقلم: د. عبد العزيز عزام

كم من معركة فى شبابك خضتها ، وما كان بينك وبين الموت الا قاب قوسين أو أدنى ولكن لكل أجل كتاب (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

ذلك هو شقيق عبد الرحمن عزام . . ذهب يافعا الى دراسة الطب فى لندن ، فلما اشتعلت حرب البلقان بين الأتراك ودول البلقان (قبل الحرب العالمية الأولى) رأى أن يتطوع ليحارب فى صف المسلمين ، فذهب الى تركيا بصفته مكاتبا لاحدى الجرائد الانجليزية واشترك فى الجيش التركى ودخل معه أثناء فتحه أدرنة واستردادها من البلغار . .

ولما وضعت الحرب اوزارها ووقعت الحرب العالمية الأولى عاد الى مصر . . ثم مكث سنتين فى مدرسة الطب بالقاهرة . . لكنه قطع الدراسة مرة أخرى وسافر من مصر الى الحدود الطرابلسية على ظهر جمل ليحارب الانجليز ، ودخل طرابلس وانضم للجيش التركى الذى يحارب ، وظل فى صفه يحارب الانجليز فى الجبهة المصرية الطرابلسية طول مدة الحرب الأولى

ولما سلمت الجيوش التركية بعد ما انتهت الحرب الأولى انضم عبد الرحمن عزام ومن معه الى جيش السيد أحمد الشريف السنوسى الذى كان يحارب ايطاليا واستمر فى الجهاد مع أهل طرابلس ضد ايطاليا حوالى أربع سنوات ، حتى جرد موسولينى جيشا يزيد على مائة ألف بقيادة القائد المشهور (جرزيانى) لمحاربة المقاومة الباقية فى طرابلس . . وانتهت المعركة بانسحاب زعماء المقاومة الطرابلسية الى الحدود المصرية ومعهم عبد الرحمن عزام الذى توسط لهم عند الحكومة المصرية التى كان يرأسها سعد زغلول . . للسماح لهم بالدخول الى مصر والاقامة فيها وقد كان له ذلك . .

وكان أخى عبد الرحمن عزام سياسيا كثير الاطلاع ، حتى أن سياسيا يابانيا قال له مرة بعد ما سمع حديثه عن اليابان : يا حبذا لو وضعت لنا خطة سياسية تمشى حكومتنا عليها . .

كان صائب الرأى . . حتى إن من هو اكبر منه سنا يسأله رأيه فيا يهمه من أمور . . وأذكر أن سعد زغلول سأله مرة وهو متحير فيمن يختار من أعضاء حزبه ليكون رئيسا للوزارة . . فقال له عبد الرحمن : ليس لديك من أفراد حزبك (حزب الوفد) من يصلح لذلك ، ونصحه باختيار عبد الخالق باشا ثروت وهو ليس من حزب الوفد ووافقه سعد زغلول على ذلك الاختيار .

وكان يمحص الرأى تمحيصا شديدا قبل ان يبديه . . فان أبداه لم يرجع عنه ولو كان مخالفا لرأى الكثير من الناس . . لذا كان كل صاحب رأى يلتمس عنده الرأى ، وكان يستشيره أكثر الساسة من العرب والأجانب على السواء . . .

وقد نصره الله فى معارك كثيرة فى طرابلس على الايطاليين ، وكان لا ينسى أن يقوى معنويات أصحابه اذا حدثت لهم هزيمة . . وعندما انتصر الأعداء مرة أثناء النهار فى احدى المعارك أقام فى المساء عرسا فأنسى أصحابه ما كانوا فيه وتأكدوا أنه لولا أن عبد الرحمن واثق من النصر ما أقام هذا العرس وهكذا قويت عزائم أصحابه وفى اليوم التالى خاضوا معركة مع العدو وكان النصر فيها نصرا مبينا . .

فالى رحمة الله أيها البطل . . وسيبقى لك كتاب (بطل الأبطال[1]) ذكرى طيبة . . ففيه وصف لرسول الله صلى الله ﷺ . . الذى اتخذته مثلك الأعلى فى القول والعمل ، والذى يتخذه كذلك كل من أخلص دينه لله .

د. عبد العزيز عزام

---

(١) بطل الأبطال : كتاب عن رسول الله ﷺ ألفه المغفور له عبد الرحمن عزام عندما كان أمينا عاما للجامعة العربية .

حوادث لها تاريخ ربطت بين عزام وكفاح شعب ليبيا

أخذت ايطاليا تمهد لغزو ليبيا فى أواخر القرن التاسع عشر.. وكان أن قامت بفتح عدد من المدارس المجانية فيها، وأنشأت المستشفيات والملاجىء الصحية فى مختلف أرجائها..

كما أخذت فى ايفاد البعثات العلمية الى الأراضى الليبية..

وكان الهدف الأساسى لهذه البعثات هو دراسة المنطقة، ورسم الخرائط العسكرية تمهيدا للغزو الذى كانت تعد له..

وفى سنة ١٩٠٥ قامت ايطاليا بانشاء بنك روما فى ليبيا..

وكانت مهمة هذا البنك كما رسمها له الاستعماريون الايطاليون، هى اغتصاب الأراضى الزراعية من أصحابها..

وكما يقول المؤرخون الايطاليون أنفسهم.. كان هذا البنك يعمل على اقراض المزارعين ثم يقوم بسلب الاراضى منهم لحساب المستعمرين الايطاليين..

وفى نفس الوقت أخذت الصحافة الايطالية تمهد للغزو الايطالى لأراضى ليبيا، وكان أن امتلأت الصحف والمجلات بالمقالات التى تتحدث عن فشل الادارة العثمانية، وعن ضرورة استغلال ثروات ليبيا المعدنية والزراعية..

ومع اعداد الرأى العام الايطالى لعملية الغزو الايطالى، أخذ الايطاليون يتغنون بجمال ليبيا..

وانتشرت فى تلك الأيام أغنية ايطالية اسمها **Tripolitania Bella** أى طرابلس الجميلة..

وعملت ايطاليا مع استعدادها لغزو الاراضى الليبية على التفاهم مع فرنسا لتضمن وقوفها على الحياد.. وكان ان اعترفت فى سنة ١٨٩٦ بالحماية الفرنسية على تونس..

كما عقدت معها أيضا معاهدة لتنظيم الملاحة والتجارة فى البحر المتوسط ..

وفى سنة ١٩٠٠ ازداد التفاهم بين الفرنسيين والايطاليين ، بعقد اتفاقيات تقضى صراحة باطلاق يد ايطاليا فى ليبيا .. وقد جددت هذه الاتفاقات فى سنة ١٩٠٢ .

والثابت أن اعلان الفرنسيين الحماية على تونس ، كان بمثابة ناقوس الخطر الذى أثار انتباه الدولة العثمانية الى أطماع الايطاليين فى ليبيا ..

وكان ان قامت الدولة العثمانية بتعزيز قواتها فى ليبيا ، الا انها اضطرت إلى أن تعود لسحب بعض هذه القوات لاستخدامها فى قمع ثورة اليمن التى نشبت فى تلك الأيام ..

والثابت تاريخيا أن ايطاليا أخذت تتحرش بالدولة العثمانية .. وكان أن أعلنت الحرب عليها فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ احتجاجا على تعزيز قواتها فى ليبيا ..

كانت حجة واهية أرادت بها ايطاليا أن تبرر غزوها العسكرى للأراضى الليبية ..

وفى أول الأمر اضطر الشعب الليبى أن يحمل على عاتقه عبء مقاومة الغزاة الايطاليين فقد كانت الحماية العثمانية فى ليبيا فى تلك الأيام من الضعف والقلة بحيث لم يكن فى وسعها أن تفعل شيئا ..

وفى سنة ١٩١٢ اشتعلت الحرب البلقانية ، مما اضطرت الدولة العثمانية معه الى عقد الصلح المعروف باسم صلح (أوشى) مع الايطاليين ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٢ ..

وفى هذا الصلح اعترفت الدولة العثمانية باستقلال الشعب الليبى استقلالا داخليا وقامت بتعيين نائب للسلطان العثمانى فى الأراضى الليبية ، وكانت معروفة فى تلك الأيام باسم طرابلس الغرب ..

ونصت هذه الاتفاقية على أن يتقاضى نائب السلطان العثمانى راتبه هو ومساعدوه من الموظفين من خزانة ليبيا ، على أن يكون تعيينه لمدة خمس سنوات ..

كما نصت على تعيين قاضى شرعى يتقاضى راتبه من خزانة الدولة العثمانية فى استانبول ..

* * *

انها لم تكن اتفاقية صلح .. ولكنها كانت اتفاقية لتسليم الأراضى الليبية للغزاة

الايطاليين وأرادت الدولة العثمانية ان تؤكد موقفها ، فأوفدت وزير حربيتها وكان اسمه أنور باشا الى ليبيا حيث قام بزيارة السيد أحمد الشريف السنوسى فى مقره بواحة جغبون ، وسلم اليه فرمانا عثمانيا بتعيينه نائبا للسلطان..

وكان هذا الفرمان كما يقول المؤرخون ، لا يعنى الا شيئا واحدا.. هو أن الدولة العثمانية قد نفضت يدها تماما من أمر ليبيا..

وكشف ملك ايطاليا فى تلك الأيام عن نيات الايطاليين الاستعمارية ، وكان أن اصدر فى نفس الوقت الذى عقد فيه اتفاقية الصلح ، منشورا لأهل ليبيا أعلن فيه خضوعهم التام للسيادة الايطالية..

وتضمن هذا المنشور وعدا بالمحافظة على الشعائر الدينية بما فى ذلك السماح للشعب الليبى بذكر اسم السلطان العثمانى فى خطبة الجمعة بالمساجد ، بوصفه خليفة للمسلمين فى تلك الأيام..

ولم ينتظر الشعب الليبى وخرج على بكرة أبيه يذود عن وطنه ضد الاستعمار الايطالى تحت قيادة السيد أحمد الشريف السنوسى..

وكانت معارك حامية أوقع فيها الليبيون خسائر فادحة بالايطاليين مما قلب مخططاتهم الاستعمارية رأسا على عقب..

ولم يستسلم الشعب الليبى ، وظل يقاوم الايطاليين بشجاعة وقوة ، وقد اعترف بذلك المؤرخون الايطاليون انفسهم.. وقد روى بعضهم كيف كان فى تقدير الايطاليين ان تتم عملية السيطرة على الأراضى الليبية فى اسابيع ، الا انهم لم يتمكنوا من ضبط قبضتهم على البلاد بسبب تلك الخسائر الفادحة الا بعد عشرين سنة كاملة..

وحاولت ايطاليا لكثرة خسائرها ان تعقد الصلح مع المجاهدين الليبيين ، وكان أن لجأت الى بعض اصدقاء السيد أحمد الشريف السنوسى لاقناعة بوقف القتال ، وكان من هؤلاء الوسطاء الخديو عباس حلمى الذى ارسل فى سنة ١٩١٣ وفدا من القاهرة الى السيد أحمد الشريف السنوسى فى مقر قيادته بالجبل الاخضر فى تلك الأيام لمحاولة اقناعه بعقد الصلح مع الايطاليين..

ولم تفلح وساطة الخديو عباس حلمى..

* * *

ومع اعلان الحرب العالمية الأولى عملت تركيا والمانيا على فتح جبهة غربية فى الأراضى الليبية لتخفيف الضغط عن القوات التركية فى جبهة سيناء وقناة السويس..

وكان أن أرسل أنور باشا وزير الحربية التركية رسالة الى السيد احمد الشريف السنوسى يطلب اليه أن تتحرش قواته بالانجليز فى الصحراء الغربية..

والثابت تاريخيا.. أن السيد أحمد الشريف السنوسى قد رفض ذلك بقوة حرصا على مصالح الشعب الليبى، الا أن الاتراك قاموا بتزوير بعض الأوامر التى بعثوا بها باسمه الى قوات المجاهدين التى كانت تعمل تحت قيادته، وكان أن هاجمت قوات هؤلاء المجاهدين الانجليز ونجحت فى احتلال مدينتى السلوم ومرسى مطروح.. وكان ذلك فى سنة ١٩١٥..

وقد بادر الانجليز بالاتصال بالسلطان حسين كامل، وطلبوا اليه العمل على ابلاغ السيد أحمد الشريف السنوسى بأن يلتزم الحياد والا يتورط فى مشروعات الدولة العثمانية مع الالمان، وقد قام السلطان حسين كامل بايفاد بعثة الى ليبيا لمقابلة السيد أحمد الشريف السنوسى فى نفس السنة..

وحملت هذه البعثة معها ثلاث رسائل واحدة من السلطان حسين كامل والثانية من مكماهون رئيس الوزارة الانجليزية والثالثة من قائد جيش الاحتلال الانجليزى فى مصر..

وفى تلك الأيام كان عبد الرحمن عزام قد انضم الى مجموعة من المصريين تطوعوا لقتال الانجليز مع قوات المجاهدين الليبيين..

وكانت الدولة العثمانية قد أوفدت نورى باشا شقيق أنور باشا وزير الحربية التركية لقيادة القوات التركية فى ليبيا..

ونجحت هذه القوات مع قوات المجاهدين الليبين والمتطوعين المصريين فى احراز انتصارات كثيرة ضد قوات الانجليز فى الصحراء الغربية..

وحدث فى تلك الأيام أن اعتزل السيد أحمد الشريف السنوسى ليخلفه السيد ادريس السنوسى الا أن الشعب الليبى اكتفى بمبايعة ادريس أميرا على برقة، ورفض أن يبايعه نائبا عن السلطان العثمانى خلفا للسيد أحمد الشريف السنوسى..

وقام السيد ادريس السنوسى أثر توليه الأمور فى برقة بالاتصال بالانجليز..

وسارعت القيادة الانجليزية فى القاهرة بايفاد بعثة رسمية الى منطقة السلوم لاجراء مفاوضات معه . وعقدت هذه البعثة عدة اجتماعات مع ادريس السنوسى عاد بعدها الى المقر الذى إتخذه لقيادته فى منطقة اشتهرت باسم .. إجدابية ..

وظهرت نتائج هذه الاجتماعات عندما طلب ادريس السنوسى الى القائد التركى نورى باشا سحب قواته ومغادرة الأراضى الليبية ..

ولم يخضع القائد التركى لتعليمات ادريس السنوسى ، بل بادر بالانسحاب الى ناحية الغرب مع قواته وقوات المجاهدين التى كانت تضم عددا كبيرا من المتطوعين المصريين ، وكان من بينهم عبد الرحمن عزام ..

ودارت فى تلك الأيام معارك ضارية ضد الايطاليين الذين حاولوا انتهاز فرصة الحرب العالمية للسيطرة على الأراضى الليبية ..

وفى سنة ١٩١٨ نجح الوطنيون الليبيون فى اعلان جمهورية عربية تقوم فى الأراضى الليبية ، وقد اطلقوا عليها اسم « الجمهورية الطرابلسية » ..

ولعب عبد الرحمن عزام فى تلك الايام دورا هاما فى الاتصالات السياسية بين زعماء القبائل ، وكان هو الذى أعد وثيقة اعلان هذه الجمهورية الطرابلسية ..

ولم ييأس الايطاليون .. وكان أن استمروا فى مؤامراتهم رغم اعترافهم بالجمهورية التى قامت على أراضى ليبيا ..

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى بادر الايطاليون بتوجيه عدة ضربات قوية الى قوات المجاهدين الليبيين ..

وتحطمت الجمهورية الطرابلسية ليبدأ الايطاليون عملية احتلالهم العسكرى للأراضى الليبية ..

وكان الايطاليون قد عقدوا عدة اتفاقيات مع ادريس السنوسى فى برقة ليضمنوا وقوفه على الحياد الا انه خاف بطشهم بعد أن استتب لهم الأمر فى الأراضى الليبية ، فبادر بالانسحاب عن طريق واحة جغبوب الى مصر فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ ..

وفى تلك الأيام كان الفاشست قد تولوا شئون الحكم فى ايطاليا .. وعلى أثر انسحاب ادريس السنوسى الى مصر أعلن الوالى الايطالى على ليبيا فى شهر ابريل ١٩٢٣ بطلان جميع الاتفاقيات التى كان الايطاليون قد عقدوها مع السنوسيين ..

وأثار هذا الإعلان مشاعر الشعب الليبى فاستأنف القتال مرة أخرى ضد الايطاليين . .

واشتدت المقاومة حتى كانت سنة ١٩٣٠ عندما أقام السفاح الايطالى جرازيانى حاجزا فى منطقة الحدود بين مصر وليبيا طوله ٣٠٠ كيلو متر ، ثم قام باغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة ممتلكاتها واعتقل شيوخها . .

واندلعت نيران الثورة مرة أخرى . . وكانت معارك حامية ، وفى يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ وقع البطل المجاهد عمر المختار فى قبضة الايطاليين . .

كان فى التاسعة والستين من عمره ولم يرحم الايطاليون شيخوخته ، فقاموا باعدامه فى نفس الأسبوع الذى وقع فيه أسيراً فى أيديهم . .

وكان ذلك فى يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ . .

وفى سنة ١٩٣٧ حاولت إيطاليا التقرب إلى المسلمين ، فقام موسولينى بزيارة ليبيا لأول مرة منذ تولى الفاشست شئون الحكم فى إيطاليا . .

وكانت مظاهرة سياسية قدمت له الادارة الايطالية أثناءها سيفاً من الذهب أطلقت عليه اسم سيف الإسلام رمزاً لما وصفته الدعايات الايطالية بأنه يمثل الصداقة الايطالية الليبية . .

ولكن مجلس الفاشست الأعلى ما لبث فى يوم ٢٠ نوفبر سنة ١٩٣٨ أن اعتبر الأراضى الليبية جزءاً من إيطاليا واعتبر أهل ليبيا من الايطاليين . . وبمعنى آخر منح شعب ليبيا كله . . الجنسية الايطالية .

وأثار قرار المجلس الأعلى للفاشست مشاعر الشعب الليبى مما اضطرت ايطاليا معه أن تصدر قانوناً للجنسية أطلقت فيه على الليبيين فى برقة اسم الليبيين المسلمين . .

تصورت أنها بمثل هذا القانون يمكن أن ترضى الوطنيين من أهل البلاد . .

ولكنها سرعان ما عادت فى سنة ١٩٣٩ لتصدر قانوناً جديداً اعتبرت بمقتضاه برقة وطرابلس جزءاً من المملكة الايطالية . . وأطلقت على الأراضى الليبية اسم **Quarta Sponda** . . أى الشاطىء الرابع . .

ولكن الحرب العالمية الثانية سرعان ما قلبت الكثير من مخططات الايطاليين . .

وتتكلم الوقائع التاريخية لتقول إن عبد الرحمن عزام قام فى يوم ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ بعقد

اجتماع فى منزله بناحية أبو قير فى ضواحى الاسكندرية ضم بعض الزعماء الليبيين للاتفاق على تنظيم حركة المقاومة الليبية ضد الايطاليين..

ثم توالت اجتماعاته مع هؤلاء الزعماء الليبيين، ومن بينهم السيد ادريس السنوسى..

وفى أغسطس سنة ١٩٤٠ عقد اجتماع فى القاهرة أعلن فيه تكوين الجمعية الوطنية الليبية..

وفى هذا الاجتماع قرر الليبيون مساندة بريطانيا فى حربها ضد الايطاليين.. واعلان الامارة السنوسية، وبيعة ادريس السنوسى أميراً على برقة..

كما تقرر تكوين جيش ليبى يخوض الحرب إلى جانب الحلفاء ضد ايطاليا تحت العلم السنوسى.

وقد اشترك هذا الجيش الذى كان يضم ١٤ ألف جندى و ١٢٠ ضابطاً من الليبيين فى الكثير من معارك الحرب العالمية الثانية فى منطقة العلمين.. وكان هذا الجيش للأسف الشديد تحت قيادة كولونيل انجليزى اسمه (بروملو)..

وفى تلك الأيام كلف اثنان من المجاهدين الليبيين من أهالى منطقة طرابلس وهما عون بك سوف والشيخ محمد توفيق الغريانى بالاتصال بالفرنسيين عن طريق السفارة الفرنسية فى القاهرة للحصول على ترخيص لهما بالسفر إلى الجزائر.

وفى يوم ١٠ يونيو ١٩٤٠ وهو اليوم الذى أعلنت فيه ايطاليا الحرب على الحلفاء سافر الاثنان إلى الجزائر لتجميع قوى المهاجرين الليبيين فى تونس والجزائر للحرب ضد الايطاليين فى ليبيا..

وكانت مهمتها هى العمل على فتح جبهة ثانية ضد القوات الايطالية فى ناحية فزان ولكن استسلام فرنسا حال دون فتح هذه الجبهة واضطر المجاهدان الليبيان إلى أن يعودا الى القاهرة..

* * *

اشتركت القوات الليبية فى معارك الحرب فى منطقة الصحراء الغربية.. وفى شهر فبراير سنة ١٩٤٣ نجحت قوات المارشال مونتجمرى فى هزيمة القوات الألمانية والايطالية..

وقام الانجليز والفرنسيون باحتلال ليبيا .. وبادر الانجليز بإقامة ادارتين عسكريتين واحدة فى برقة والثانية فى طرابلس .. بينما حكم الفرنسيون منطقة فزان حكماً عسكرياً ..

وفى سنة ١٩٤٣ أصدر الانجليز عملة فى طرابلس أطلق عليها اسم (المال) وكان الجنيه الاسترلينى يساوى ٤٨٠ مالاً ..

أما فى فزان فكانت العملة فيها هى الفرنك الفرنسى الذى كان متداولاً فى الجزائر ..

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية تنازلت ايطاليا عما كانت تدعيه من حقوق فى مستعمراتها السابقة بما فيها أراضى الشاطىء الرابع ، أى الأراضى الليبية ..

وعندما عرضت قضية ليبيا على مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى ثارت منازعات كثيرة ..

ولعبت الجامعة العربية فى بداية نشأتها فى سنة ١٩٤٥ دوراً كبيراً فى الاتصالات السياسية والدولية من أجل اعلان استقلال ليبيا ووحدة أراضيها ..

وكان عبد الرحمن عزام هو أول أمين عام للجامعة العربية بعد نشأتها .. وأراد القدر للرجل الذى حارب مع المجاهدين الليبيين فى حروبهم ضد الاستعماريين الانجليزى والايطالى أن يقوم بدور المحامى عن شعب ليبيا ..

واستطاع المجاهد الكبير رغم كل المؤامرات الدولية أن يحقق النصر لشعب ليبيا ..

وكان أن أعلن استقلال ليبيا فى أبريل سنة ١٩٤٩ ..

وكانت الأمم المتحدة قد كلفت لجنة تضم مندوبين عن الدول الكبرى باعداد توصياتها عن مستقبل الأراضى الليبية ..

ولما عرض تقرير هذه اللجنة على الجمعية العمومية للأمم المتحدة قررت فى يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ الموافقة على استقلال ليبيا ووحدتها على ألا يتأخر تحقيق هذا الاستقلال عن يوم أول فبراير سنة ١٩٥٢ ..

وفى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٠ اجتمعت الجمعية الوطنية الليبية لتعلن أن ليبيا دولة ديمقراطية اتحادية مستقلة ذات سيادة على أن تكون ملكية دستورية ..

وفجأة نشب خلاف بين ادريس السنوسى وعبد الرحمن عزام الرجل الذى قام بدور المحامى فى قضية الشعب الليبى..

كان خلافاً على الأسس والمبادىء..

وتمر الأيام بعد أن أصبحت ليبيا دولة مستقلة لتقوم ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩.. ومع هذه الثورة قامت على أرض ليبيا للمرة الثانية جمهورية ذات نظام ديمقراطى اشتراكى.. وهى الجمهورية العربية الليبية..

الفصل الأول

بدأت حياتي تلميذا في مدرسة الحزب الوطني

تكلم عبد الرحمن عزام ليقول :

- أنا فلاح ابن فلاح من مديرية الجيزة التى أصبحت الآن محافظة . .

وصحيح أن شهادة ميلادى تقول . . أننى ولدت فى يوم ٨ مارس سنة ١٨٩٤ ولكن أحداً لم يكن يهتم فى الماضى بتسجيل المواليد فى نفس اليوم . .

وكان عليهم أن ينتظروا حتى يذهب حلاق الصحة الى البندر لتسجيل المولود الجديد فى مكتب الصحة ، ولذلك يحتمل كثيراً أن أكون قد ولدت قبل ذلك التاريخ الذى تحمله شهادة ميلادى الرسمية بأسبوع . . أو بعشرة أيام . .

ولكن الشىء المؤكد . . هو أننى ولدت فى البيت الريفى الذى كان والدى يعيش فيه فى قرية الشوبك الغربى بمركز البدرشين ، وهى القرية التى أمضيت فيها طفولتى بين الفلاحين ، وأننا انتقلنا بعد ذلك إلى حلوان لنعيش فى بيت اشتراه والدى من أحد الباشوات حتى نكون قريبين من المدرسة الابتدائية التى التحقت بها . .

وفى حلوان لم تنقطع صلتى بقريتنا ، فقد كنت أذهب اليها فى أيام الإجازات الأسبوعية ، وفى فترة الصيف . .

وكل ما أذكره عن حياتى فى تلك الأيام . . هو منظر المفتش الانجليزى عندما كان يأتى إلى قريتنا . .

كنت أراه وهو يتجول فوق حصانه بين المزارع ، وعند شاطىء الترعة ، وأحياناً . . كنت ألمحه جالساً ، وهو يشرب الشاى فى دوار العمدة . .

وكان مشهد المفتش الانجليزى بعجرفته يثير فى نفسى الشعور بالألم والمرارة ، فقد كنت أرى فيه رغم حداثة سنى احدى صور الاحتلال الانجليزى الذى كان يجثم على أنفاس بلادى . .

وكنت أرى أيضاً الجنود الانجليز فى شوارع القاهرة .. كلما نزلت إلى المدينة من حلوان ، وهم يتجولون فى الشوارع ، ولم يكن فى وسعى ، وأنا طفل صغير أن أفعل شيئاً ..

وحدث مرة أن اصطحبنى والدى لزيارة أحد أقاربنا فى القاهرة ..

وشاهدت جماعة من هؤلاء الانجليز بملابسهم العسكرية وقد خلع كل منهم حزامه ، وهو ينهال به ضرباً على مجموعة من الأهالى الوطنيين وكانوا يجلسون على أحد المقاهى . .

ولما سألت والدى عما كانوا يفعلونه قال لى ، وهو يحاول أن يسكتنى :

- انهم سكارى .. يا ولدى ...

قالها والدى ، ثم أخذ يسب ويلعن هؤلاء الجنود الانجليز ..

* * *

ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرى عندما سمعت لأول مرة فى حياتى ، عن مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ..

كان الناس يتحدثون عنه ، وعن وطنيته ومواقفه فى كل مكان ..

ولن أنسى ما حييت تعليقات الفلاحين فى قريتنا « الشوبك » عندما كانوا يسمعون عن مواقفه ..

كانوا يجلسون بعد صلاة العشاء على المصاطب أمام بيوت القرية ، وقد التفوا حول واحد منهم ، وهو يقرأ لهم الصحف أو المجلات القديمة التى كانت تنقل خطبه ومقالاته ..

وكانوا يصفقون ويرقصون عندما يسمعون كلمات الزعيم الشاب وهو يطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ..

وفى تلك الأيام ، لم تكن مصر قد عرفت شيئاً اسمه الراديو أو التليفزيون ، ولذلك كانت أخبار مصطفى كامل تسرى بين الشعب من مواطن إلى آخر ..

وحفظت وأنا طفل صغير الكثير مما كان الزعيم الشاب يقوله فى خطبه ومقالاته ..

وأعجبنى كلماته وهو يقول : لا يأس مع الحياة .. ولا حياة مع اليأس .. بالدرجة التى جعلتنى أردد تلك الكلمات المأثورة على لسانى ..

ولا أظننى قد تركت فى تلك الأيام حائطاً واحداً فى قرية الشوبك الغربى .. أو فى بيوت مدرسة حلوان ، دون أن أكتب عليه بالطباشير بعض كلمات الزعيم الوطنى الذى ومض نوره فى حياة شعب مصر كالشعاع المضىء فى ظلام الاحتلال ، ثم خبا هذا الضوء فجأة بوفاته وهو فى ريعان الشباب ..

وهكذا مارست وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية ، كتابة المنشورات على حوائط بيوت قريتنا وفى مدينة حلوان .. ولكن بالطباشير ..

ومع مرور الأيام أخذت أفكار الحزب الوطنى تتغلغل فى نفسى وتثير فى قلبى الحماس والحمية الوطنية ، حتى إذا ما ذهبت إلى المدرسة السعيدية فى سنة ١٩٠٨ بادرت بالاشتراك مع زملائى طلبة المدرسة فى إنشاء جمعية وطنية أطلقنا عليها اسم جمعية « الرابطة الاسلامية » ..

كانت جمعية تنادى بأفكار الحزب الوطنى .. والزعيم الشاب مصطفى كامل ..

وأذكر عندما كنت تلميذاً بالمدرسة السعيدية أن وقعت لى حادثة اهتزت لها نفسى بقوة وعنف ، فقد كانت عادتى أن استيقظ فى كل يوم عند الفجر لألحق بأول قطار يقوم من حلوان إلى محطة باب اللوق فى القاهرة ، ومنها كنت أذهب إلى المدرسة السعيدية فى الجيزة سيراً على قدمى ..

وكانت عندى تذكرة اشتراك أى « أبونيه » فى الدرجة الأولى فى القطار ..

وحدث فى أحد الأيام .. أننى ركبت القطار من محطة حلوان ، وكان معى أحد زملائى ولما هممنا بالدخول إلى أحد صالونات الدرجة الأولى ، فوجئت بأحد العساكر الانجليز ، وكان يجلس بداخله ، وهو يرفع قدميه ليسد بهما الباب حتى يمنعنا من الدخول إلى الصالون ..

ولم أتمالك نفسى من الغضب ، وتبادر إلى خاطرى أن أمسك بخناق العسكرى الانجليزى حتى ألقنه درساً فى الأدب ، لولا أن منعنى زميلى ، وهو يقول لى :

ـ إحنا رايحين المدرسة ، ولا عاوز تتخانق ..

قلت له ، وأنا فى أشد حالات الضيق والانفعال :

ـ أنت شفت عمل إيه .. ان آخر ما كنت أتصوره أن تصل به الوقاحة إلى هذا الحد ..

وأخذ زميلى يهدىء من غضبى ، وأنا أحاول التحرش بالعسكرى الانجليزى حتى وصل بنا القطار إلى محطة باب اللوق . .

وذهبنا إلى المدرسة السعيدية وأنا فى أشد حالات الغيظ ، وكان أول ما فعلته عندما التقيت ببقية زملائى أن رويت لهم حكاية العسكرى الانجليزى وأنا أقول لهم :

- إنهم يحتلون بلادنا ، وقد بلغت بهم العجرفة والعنجهية أن يسد جنودهم الأبواب بأحذيتهم فى وجوهنا . . ونحن أبناء البلاد . . !

وبقيت هذه الحادثة عالقة فى ذهنى ، ولم أستطع أن أنساها ، ويحتمل كثيراً أن يكون السبب ، هو أننى لم أستطع أن ألقن هذا العسكرى الانجليزى درساً فى الأدب حتى أنتقم لنفسى ، ولكرامة بلدى !

* * *

ومات والدى رحمه الله ، عندما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى . .

وكان نصيبى من تركته لا يزيد على قطعة أرض زراعية فى زمام قرية الشوبك الغربى ، ومنزل فى حلوان بالاضافة إلى بعض النقود السائلة التى كان والدى يحتفظ بها فى بيته كعادة أهل الريف أيام زمان . .

إن والدى لم يكن ثرياً . . وصحيح أن عائلتنا فى قرية الشوبك الغربى كبيرة ، وتربطها بعائلات كثيرة فى المنطقة التى حولها صلات النسب والمصاهرة ، إلا أننا لم نكن فى يوم من الأيام من الإقطاعيين . .

كنا من هؤلاء الذين يمكن أن ينطبق عليهم القول : مستورين والحمد لله . .

* * *

المهم واصلت دراستى فى المدرسة السعيدية بعد وفاة والدى . .

كنت أريد أن أتعلم حتى يتسنى لى خدمة بلدى . . وكان والدى رحمه الله يريدنى أيضاً أن أتم دراستى . .

كان يقول لى دائماً : أريدك أن تتعلم وأن تحصل على شهادتك الجامعية حتى يصبح لك شأن فى الحياة .

وقد بقيت مواظباً على دراستى حتى حصلت على الشهادة الثانوية فى عام ١٩١٢ . .

وبعدها ذهبت إلى أهلى ، وطلبت اليهم الموافقة على سفرى إلى لندن . .

قلت لهم : أريد أن أدرس الطب فى كلية سان توماس الانجليزية . .

وحاول بعضهم اقناعى بالعدول عن رأيى . .

قالوا لى : أنت ما تزال صغيراً ، ونحن نخشى عليك من السفر إلى لندن وحدك . .

ولكننى أصررت بشدة على رأيى . . وبعد مناقشات طويلة ، أضطر أهلى للموافقة على سفرى إلى لندن . .

والحقيقة التى لا يعرفها كثيرون هى أننى لم أكن أميل إلى دراسة الطب ، وقد تأكد لى ذلك بعد وصولى إلى لندن ، والتحاقى بالكلية الانجليزية . .

ولا أظن أننى قد عرفت حتى الآن الأسباب التى دفعتنى إلى الاتجاه لدراسة الطب فى لندن . . ولكن الاحتمال الأرجح . . أنها كانت مجرد نزوة راودت تفكيرى كشاب كان يريد أن يخرج من بلده ليتجول فى بلاد العالم . . وليرى ويشاهد ويغامر . .

إلا أن الشىء المؤكد أن أفكاراً كثيرة كانت تراودنى فى تلك الأيام . . حول ما يجب على أن أفعله من أجل بلدى . . ومن أجل مقاومة الاحتلال الانجليزى . .

كنت أحلم ككل شاب عاش أيام الاحتلال الانجليزى على أرض مصر فى أن يكون له دور فى الكفاح ضد قوى هذا الاحتلال وأعوانه . .

وكان فى رأيى كلما راودنى هذا التفكير أن الاستقلال التام الذى كان مصطفى كامل باشا يطالب به ، لا يمكن أن يتحقق إلا إذا شارك كل فرد من أبناء شعبنا الطيب بنصيب فى معركة الكفاح ضد هذا الاستعمار . .

وكان أهم ما يحتاج إليه بلدى فى تلك المعركة . . هو انقاذه من الأعداء الثلاثة التى كانت تهدد كيان شعبنا الطيب فى تلك الأيام . . وهى الفقر والجهل والمرض . .

وكان تصورى . . أننى بدراسة الطب يمكن أن أصبح طبيباً ، وأن أضع نفسى وعلمى فى خدمة أبناء بلدى . .

ويحتمل أيضاً أن يكون السبب ما كنت قد قرأته فى تلك الأيام عن دور الطب فى معارك تحرير الشعوب ، فقد كان أول ماألفه المهاتما غاندى بعد أن أصبح زعيماً للهند هو كتاب عن الأدوية والطب . .

كما ارتبط اسم المرحوم على « باشا » مبارك بكتاب آخر من تأليفه وكان عن الارشادات الصحية . . !

وفى اعتقادى أن تفكيرى قد قادنى للاتجاه لدراسة الطب حتى أصبح طبيباً تصوراً منى أننى قد أتعرض للنفى أو التشريد من بلدى ، وكان أملى فى تلك الحالة أن أجد لنفسى عملاً اتكسب منه فى أى مكان يستقر به مقامى بعيداً عن بلدى . . .

المهم . . كنت أريد أن أفعل شيئاً من أجل مصر ، وقد استقر رأيى على دراسة الطب إيماناً منى بأن هذه الدراسة واجب وطنى فى معركة نضال شعبنا المصرى ضد الاحتلال الانجليزى . .

ولا أريد أن أقول . . أن قدرى هو الذى أخذ يشدنى بقوة للسفر إلى لندن حتى يتسنى لى العمل بحرية أكثر فى الحرب التى أعلنتها بعد ذلك على طريقتى الخاصة ضد الاحتلال الانجليزى لبلادى . .

* * *

سافرت إلى لندن لألتحق بكلية سان توماس الانجليزية لدراسة الطب . .

كنت شاباً صغيرا بلا خبرة بالحياة . . وبلا تجارب . .

وصادفتنى أول مشكلة فى نفس الأسبوع الذى وصلت فيه إلى العاصمة الانجليزية . .

اكتشفت فجأة . . أن مستنداتى التى حملتها معى من القاهرة للتقدم بها إلى الكلية الانجليزية كان ينقصها مستند واحد . . وهو شهادة تثبت حسن سيرى وسلوكى أثناء دراستى الثانوية . .

وفى بادىء الأمر . . تصورت أن هذه الشهادة لا تهم كثيراً ، وكان أن حاولت بسذاجة الريفى القادم من قرية الشوبك الغربى إقناعهم بأن مثل هذه الشهادة بحسن السير والسلوك تعتبر شهادة شكلية ، إذ يحتمل كثيراً أن يختلف الناس فى تقديرها . .

ولكنهم لم يقتنعوا برأيى ، وقالوا لى . . إنها على العكس ضرورية وهامة . . وأنه كان مفروضاً على أن أحملها معى من القاهرة . .

وكانت مناقشات طويلة أدركت أثناءها سر حرصهم واصرارهم على أهمية هذه الشهادة . .

كانوا يريدون أن يتعرفوا على رأى الناظر الانجليزى للمدرسة السعيدية التى أتممت فيها دراستى الثانوية فى سلوكى أثناء دراستى بمدرسته قبل أن يسمحوا لى بالالتحاق بكلية الطب..

ولم أيأس، وبادرت بالكتابة إلى رجل انجليزى كان صديقاً للمرحوم والدى، وكان يعيش فى القاهرة أطلب مساعدته فى الحصول على الشهادة المطلوبة.. وكان اسمه على ما أذكر.. مستر أنتونى..

قلت له.. إن هذه الشهادة تقف عثرة فى سبيل التحاق بكلية الطب الانجليزية. ورجوته أن يذهب بنفسه إلى ناظر المدرسة الانجليزى لاستخراج هذه الشهادة، وإرسالها على عنوانى فى لندن حتى يتسنى لى استكمال أوراق والالتحاق بكلية الطب..

وقام الرجل بشهامة لم أتعودها فى تلك الأيام من أبناء بلده الانجليز باستخراج الشهادة المطلوبة، ثم بعث إلى بها فى لندن، ومعها خطاب توصية إلى واحد من أصدقائه الانجليز ليعمل على مساعدتى..

وكان مستر أنتونى واحداً من الموظفين الانجليز الذين جاءوا مع الاحتلال البريطانى ليعمل فى نظارة المالية المصرية، وظل الرجل يتدرج فى المناصب حتى أصبح مديراً لمصلحة الأملاك الأميرية..

ولما أحيل إلى المعاش رفض أن يعود إلى انجلترا، ليعيش فى فيلا صغيرة اشتراها فى ناحية المطرية.. وظل الرجل يتقاضى معاش تقاعده من الحكومة المصرية إلى أن مات هو وزوجته..

***

وأنا نفسى كنت طفلاً صغيراً عندما توثقت عرى الصداقة بين الرجل الانجليزى ووالدى رحمه الله، وان كنت قد سمعت من بعض أبناء قريتنا فيما بعد تفاصيل ما حدث بين والدى الرجل الفلاح الذى ارتبط بالأرض والفلاحين وهذا الرجل الانجليزى الذى جاء إلى مصر مع الاحتلال البريطانى..

قالوا لى إن الصداقة التى توطدت بينهما كانت من النوع الذى ينطبق عليه المثل الذى يقول: لا محبة إلا بعد عداوة..

وكان الرجل الانجليزى قد جاء إلى قريتنا ليقوم بتقدير الضرائب على الأراضى

الزراعية بتكليف من نظارة المالية فى تلك الأيام..

وأثارت فداحة الضرائب التى قام الرجل بربطها على الأهالى غضب والدى، وكان وقتئذ عضواً فى مجلس شورى القوانين عن مديرية الجيزة التى أصبحت الآن محافظة.. ووقعت مشادة بين الرجل ووالدى أثناء معاينته للأراضى الزراعية فى زمام قريتنا..

قال له والدى:

- هذه الضرائب ظلم فادح، ومحاولة لاثقال كاهل الفلاحين بها..

ورفض الرجل بعجرفته الانجليزية فى تلك الأيام اعتراض والدى قائلاً: إن قراره نهائى، وأنه لا رجوع فيه..

ولم يتمالك والدى رحمه الله نفسه من الغضب، فقام «بتشمير» أى رفع أطراف أكمامه على طريقة الفلاحين ثم أمسك الفأس، وضرب بها الأرض بحدة، ليخرج منها حفنة من التراب، ثم أخذ يلوح بها فى وجه الرجل الانجليزى محاولاً إقناعه بوجهة نظره..

وتصور مستر أنتونى - الذى لم يكن قد فهم ما يعنيه والدى - أنه قد هدده بالقتل، عندما ضرب الأرض بالفأس وأنه كان يريد أن يقول له:

- سأقتلك.. ثم أدفنك فى التراب..

وتطور الموقف بين الاثنين، لولا أن عرف الرجل الخطأ الذى وقع فيه، وأدرك أن كل ما كان والدى رحمه الله يريد أن يقوله له عندما ضرب الأرض بالفأس.. هو أن ظاهر الأرض لا يكشف عن باطنها..

وأنه قد ربط ضرائبه الفادحة على الأرض متصوراً أنها من الأراضى الزراعية، بينما، يوجد تحتها طبقة رملية.. أى أنها أصلاً من الأراضى الرملية التى لا تستحق ما ربطه عليها من ضرائب فادحة..

واعتذر الرجل، وهو يعترف بأنه قد اشتط كثيراً فى تقدير الضرائب التى ربطها على الأرض..

وتحول الخلاف بسرعة بين والدى رحمه الله والرجل الانجليزى إلى صداقة وطيدة..

* * *

وفى لندن بدأ اهتمامى بالعمل فى السياسة مع التحاق بكلية الطب الانجليزية فقد قمت بالاشتراك مع مجموعة من الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون فى جامعات الانجليز بإنشاء جمعية مصرية أطلقنا عليها اسم : « جمعية أبو الهول » . .

وبدأت هذه الجمعية نشاطها بأن وجهت الدعوة إلى الزعيم الوطنى محمد فريد وكان يعيش فى سويسرا لزيارتنا فى لندن . .

وجاء الزعيم الكبير ليقيم معنا عدة أيام فى لندن . .

ولما اعتزم السفر . . تبرع كل واحد منا بما كان معه من نقود ، ثم قدمناه إلى الزعيم الكبير مساهمة منا فى أعباء الحركة الوطنية التى كان يقودها من سويسرا . .
كنا نعرف أنه يعيش فى ضنك ، وأن حالته المالية سيئة للغاية . .

وامتلأت عينا الزعيم الكبير بالدموع عندما مددنا إليه يدنا بالمبلغ الذى تبرعنا به . .

كان يعرف أننا جميعاً من الطلبة الذين يدرسون فى لندن ، وأننا نعيش على ما كانت عائلاتنا ترسله إلينا من مصروفات لننفقها على دراستنا . .

وتصور الزعيم الكبير مصر كلها فى تلك الأيام ، وهى تمد إلى حركته الوطنية يد المساعدة فأخذ يحدثنا بما كانت تفيض به وطنيته التى بلغت أسمى آيات التضحية ، حتى حانت ساعة مغادرته لنا ليسافر إلى سويسرا . .

والشىء الذى لم يعرفه الزعيم الكبير فى تلك اللحظة . . هو أن بعضنا قد تبرع له بكل ما كان فى جيبه عن طيب خاطر ، دون أن يحتفظ معه بشلن واحد ثمناً لعشائه فى تلك الليلة . .

وكنت واحداً من هؤلاء الذين أعطوا للزعيم الكبير عند سفره من لندن ، كل ما كانوا يحملونه فى جيوبهم من نقود . .

* * *

وكان الزعيم الكبير قبل أن يغادر لندن عائداً إلى سويسرا ، قد طلب أن أصطحبه مع اثنين من زملائنا لزيارة رجل انجليزى اشتهر بمناهضة الاحتلال الانجليزى لمصر . . واسمه مستر بلين . .

إنه نفس الرجل الذى انبرى للدفاع عن أحمد عرابى باشا وزملائه إثر تقديمهم

للمحاكمة العسكرية بعد فشل الثورة العرابية واحتلال الانجليز لمصر..

وذهبنا إلى الرجل فى بيته، وكان يعيش فى منزل صغير فى إحدى ضواحى لندن..

كان رجلاً عجوزاً، وقد انتابته الفرحة عندما عرف بزيارة الزعيم محمد فريد له فى بيته..

وكان بينهما حديث طويل..

وعند انصرافنا أمسك الرجل بيدى ثم أخذ يشد عليها بقوة، وهو يقول لى:

- يا بنى لا تيأسوا وصابروا.. إن قضيتكم عادلة والنصر فيها محقق لكم.. وعليكم أن تقاوموا وأن تثابروا حتى تعود إلى بلادكم حريتها.. وأنا على يقين من أن الانجليز سيخرجون من بلادكم التى احتلوها بغير حق..

* * *

وأوشك العام الدراسى على الانتهاء..
وفجأة اندلعت نيران الحرب فى البلقان..

وأخذت الصحف الانجليزية تصف الجرائم الوحشية التى كانت جيوش الجبل الأسود والصرب والبلغار ترتكبها فى تلك البلاد..

وانتابتنى عاصفة نفسية، وأنا أتابع كل ما كانت الصحف الانجليزية تنشره عن مذابح المسلمين..

وجاءت فى تلك الأيام بعض الأنباء تقول.. إن المعتدين قد قاموا بتحويل المساجد إلى كنائس وأنهم يرفعون فوقها الصلبان..

وقالت أنباء أخرى.. إن آلاف المسلمين، قد خرجوا من بيوتهم مشردين..

ولم أتمالك نفسى من الغيظ..

وكان أن اتخذت قراراً خطيراً..

قررت أن أترك دراستى للطب، وأن أسافر إلى البلقان للتطوع فى صفوف المسلمين فى الحرب ضد هؤلاء الطغاة..

ونصحنى بعض زملائى بأن أتريث حتى أفرغ من تأدية امتحانات آخر السنة فى كلية الطب..

قالوا لى .. إنه لم يبق على موعد الامتحان أكثر من عدة أسابيع ، وعلى أن أؤدى امتحاناتى وبعدها أستطيع أن أفعل ما أريد .

ووافقت على مضض ، فقد كانت الفظائع التى ترتكب ضد المسلمين تثير فى نفسى القلق ..

وأذكر أننى انتظرت حتى فرغت تماماً من تأدية امتحانات السنة الدراسية ، وبعدها بادرت بالسفر فى اليوم التالى إلى البلقان ..

وفى تلك الأيام كان العالم يختلف كثيراً عن عالمنا اليوم ..

وتصوروا .. لقد اخترقت غرب أوربا ووسطها بالقطارات حتى وصلت إلى ميناء تريستا على بحر الأدرياتيك دون أن يكون معى جواز سفر .. أو تأشيرة واحدة لدخول أية دولة من الدول الأوروبية التى مررت بها ..

وأكثر من ذلك .. لم أكن أحمل حتى بطاقة لاثبات شخصيتى ..

وكنت قبل مغادرتى لندن قد حصلت على خطاب يقدمنى لكل من يهمه الأمر على أننى أعمل مراسلاً لجريدة عمالية اسمها « الديلى ستيزن » ..

وهذه الجريدة لم تكن معروفة ، ولم يكن يقرؤها إلا عدد محدود من العمال ..

كما أن أحداً لم يكن يسمع عنها فى خارج نطاق هذه المجموعة الضيقة من قرائها من العمال ..

وبمعنى آخر .. لم تكن هذه الجريدة مشهورة أو منتشرة ..

وفى تلك الأيام كان حزب العمال البريطانى من الأحزاب المغمورة ، فلم تكن له أى قيمة سياسية .. ولم يكن له فى مجلس العموم البريطانى أكثر من نائب واحد ..

وكان أحد أصدقائى الانجليز هو الذى ساعدنى فى الحصول على الخطاب الذى يعتمدنى كمراسل لتلك الجريدة العمالية ..

وهذا الصديق الانجليزى عمل فترة من الوقت فى خدمة السلطان عبد الحفيظ سلطان مراكش فى تلك الأيام .. ولم يكن مطلوباً منى إلا أن أرسل تحقيقاتى الصحفية عن الموقف فى البلقان إلى عنوان صديق له يعمل محرراً بتلك الجريدة على أن يقوم هذا الصديق بتقديمها إلى جريدته ..

ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت .. إنى لم أقابل هذا المحرر مرة واحدة فى حياتى ..

كما أننى لم أدخل إدارة جريدته وبالتالى لم أكن أعرف عنوانها بالضبط ..

وهكذا سافرت إلى البلقان ولم أكن أحمل فى جيبى أكثر من ذلك الخطاب فضلا عن مسدس صغير، وعدة جنيهات ذهبية كنت قد ادخرتها خصيصا لتكون رصيدى أثناء مغامرتى فى البقان ..

وفى تلك الأيام .. لم تكن المعاملات النقدية مضطربة كما هو حالها اليوم، فقد كانت أسعار العملات النقدية ثابتة .. ولم يكن هناك ما يسمونه الآن بالعملات الصعبة والعملات السهلة .. كما لم تكن هناك أيضاً أية مشكلات فى الجمارك ..

ولا أذكر أن أحداً قد سألنى طول الطريق عن وجهتى أو جنسيتى .. !

* * *

وصلت بالقطار إلى تريستا، ومنها ركبت الباخرة إلى ميناء اسمه « كترو »، وهو ثغر صغير يطل على بحر الأدرياتيك ..

كان المنفذ الوحيد إلى مدينة « ستنجه » .. عاصمة مملكة الجبل الأسود فى تلك الأيام .. وقد تلاشت تلك المملكة لتصبح الآن جزءاً من جمهورية يوغوسلافيا ..

ومن ميناء كترو ركبت عربة يجرها حصان لتحملنى إلى مدينة « ستنجه » .. وكان علينا أن نصعد بالعربة إلى قمة جبل شاهق على أن تنحدر بنا بعد ذلك من الناحية الأخرى لتصل إلى المدينة، ولكن حدث أثناء صعود العربة إلى قمة الجبل أن اضطرب الحصان، بحيث أخذت العربة تتراجع لتهبط بمؤخرتها فى الاتجاه الآخر إلى سفح الجبل بدلاً من الصعود فوقه ..

ولم يتمالك الحوذى نفسه فأخذ يصرخ فزعاً وهو يرسم على صدره علامات الصليب ..

وكان معى فى العربة عدد من المسافرين لا أعرفهم، كما أن أحداً منهم لم يكن يعرف عنى أو عن المهمة التى جئت من أجلها شيئاً .. وكنت فى نفس الوقت لا أعرف شيئاً عن اللغة التى كانوا يتكلمون بها ..

ولاحظت نظرات الارتياب فى عيونهم، وهم يتلفتون ناحيتى ..

وأخذت من جانبى أبادلهم نفس النظرات وعندما أظلم الجبل مع وصول الليل أخذت الوحشة تنتابنى وكانت أول مرة أشعر فيها منذ تركت لندن بخطورة المغامرة التى كنت مقدماً عليها . .

* * *

وفى مدينة ستنجه عاصمة الجبل الأسود نزلت فى فندق متواضع . .
كان فندقاً غريباً . . فقد كانت الجياد تشاطر فيه النزلاء غرف النوم . . !

وجلست استريح فى ذلك الفندق الذى لم أعد أذكر اسمه ، من مشاق رحلتى الطويلة . .

وفى صباح اليوم التالى كانت فى انتظارى مفاجأة مثيرة ، فقد اكتشفت أن مدينة ستنجه تعج بالأعداء الذين جئت خصيصاً من لندن للتطوع فى الحرب ضدهم . .

وكان الفندق الذى نزلت فيه يمتلىء أيضاً بهؤلاء الأعداء . .

وأخذ القلق ينتابنى . .

ماذا لو عرفوا بحقيقة أمرى ؟ . .

وقررت أن التزم الصمت التام حتى أجد مخرجاً من المصيدة التى وقعت فيها . .

وبينما كنت جالساً فى الفندق أفكر فى أمرى لفتت نظرى خريطة كانت على الحائط . . فأخذت أتطلع إليها لأدرك لأول مرة حقيقة الخطأ الذى أوقعت نفسى فيه . .

كان على أن أواصل رحلتى إلى واحدة من المدن الألبانية الاسلامية التى ظلت جيوش الجبل الأسود والصرب تحاصرها لفترة طويلة ، واسمها مدينة « شقودرا » . .

إن دفاع أهل هذه المدينة عنها كان عظيماً . . وهى لم تستسلم إلا بعد أن انسحبت القوات المدافعة عنها بسلاحها بعد معركة خاضتها تلك القوات دفاعاً عنها بشرف وكرامة . .

وأثار سقوط هذه المدينة فى أيدى الأعداء منازعات سياسية بين مملكة الجبل الأسود والصرب والنمسا . .

كانت كل دولة تريد أن تحتل المدينة بقواتها العسكرية . .

وأثار الخلاف بين القوى المتنازعة أزمة انتهت بالاتفاق على أن تقوم قوة دولية بقيادة ادميرال انجليزى باحتلال المدينة !

* * *

لم يكن فى وسعى فى تلك الليلة أن أفعل شيئاً..

وكان على أن أتصرف بهدوء حتى لا أثير الارتياب فى نفوس الأعداء الذين كان يمتلىء بهم المكان حولى..

وقد بقيت فى حجرتى بالفندق أفكر فيما يجب أن أفعله لأفلت من المصيدة التى وقعت فيها حتى غلبنى النوم..!

وفى صباح اليوم التالى صحوت من نومى متعباً شارد الذهن..
كانت ورطتى تثير قلقى..
ولم أبق فى الفندق طويلاً، فقد سارعت بالخروج للتجول فى المدينة..

وأثار انتباهى أسماء بعض لافتات المتاجر فقد كانت مكتوبة باللغة التركية..

ولم أتمالك نفسى من الفرحة، وبادرت بالدخول إلى أحد هذه المتاجر..

وفى تلك الأيام، لم أكن قد تعلمت اللغة التركية، ولذلك رفعت يدى بالتحية لأصحاب المتجر، وأنا أحدثهم باللغة الانجليزية..

وأخذ أصحاب المتجر يتلفتون حولهم، والدهشة تملأ عيونهم..

كان واضحاً أنهم لم يفهموا كلماتى الانجليزية، ولذلك وقفت فى مكانى، وأنا فى أشد حالات الحيرة..

وأدرك أحدهم المأزق الذى وقعت فيه، فدعانى بإشارة من يده للجلوس على مقعد إلى جواره، ثم همس فى أذن رجل كان يجلس بالقرب منه بعدة كلمات..

وخرج الرجل بسرعة من المتجر لينتابنى قلق شديد، فقد تبادر إلى ذهنى، أن أصحاب المتجر من الأعداء، وأنهم قد أرسلوا الرجل لاستدعاء أحد رجال الشرطة للقبض على..

ولم تهدأ أعصابى ، إلا عندما رأيت الرجل عائداً بعد عدة دقائق ، وبصحبته شيخ معمم يتكلم اللغة العربية الفصحى ..

كان واحداً من الشيوخ الذين يطلق عليهم الألبان المسلمون اسم « الحفاظ » .. أى حفظة القرآن الكريم ..

ولم أنتظر بعد أن عادت إلى الروح وبادرت بالافضاء الى الشيخ برغبتى فى الوصول إلى مدينة شقودرا ..

قلت له : أنا مسلم مثلكم ، وأريد أن تساعدونى فى الوصول إلى هذه المدينة ..

وقام الشيخ بترجمة حديثى إلى أصحاب المتجر فأخذوا يرحبون بى ، وخاصة بعد أن عرفوا أننى مصرى ومسلم ! !

وأكثر من ذلك أصروا على استضافتى لمدة ثلاثة أيام ...

وبعدها قاموا بتزويدى بكميات كبيرة من الطعام ، ثم كلفوا أحدهم باصطحابى إلى منطقة الحدود فى الطريق إلى مدينة شقودرا ..

وكان هؤلاء المسلمون الألبان هم الذين أنقذونى من المصيدة التى وقعت فيها !

الفصل الثانى

اتهمونى بمحاولة اغتيال الخديو عباس !

وصلت إلى مدينة شقودرا..

وأثارت انتباهى مناظر الدمار الذى حل بالمدينة أثناء المعارك..

كانت آثار الحرب فى كل مكان..

وكان أول ما فعلته، هو أننى نزلت للتجول فى شوارع المدينة..

تصورت أن فى وسعى أن أجد وسيلة للاتصال بالأرناؤوط الوطنيين وبالمجاهدين..

وكان على فى نفس الوقت أن أكون على حذر شديد بعد تجربتى فى مدينة ستنجه..

وتبادر إلى ذهنى، وأنا أتفرس فى وجوه الناس، خاطر غريب..

ماذا لو ارتاب فى أهل المدينة؟..

تصورت أنهم ما كانوا يترددون لحظة فى قتلى..

وحاولت أن أطيب خاطرى، وأنا أقول لنفسى:

- لا أظن أننى أثير الريبة..

كنت أبدو هزيل الجسم، ولم أكن قد تجاوزت العشرين من عمرى..

ولم يكن فى مظهرى ما يوحى بأننى جئت خصيصاً إلى تلك البلاد لأحارب فى صفوف المجاهدين من أبنائها..

وذهبت لمقابلة حاكم المدينة الانجليزى..

كان رجلاً صارم الوجه شديد المراس..

وحدجنى الرجل بنظرة فاحصة تنم عن فظاظته وقسوته عندما دخلت عليه، ثم سألنى،

وهو يتطلع إلى من أعلى إلى أسفل وبالعكس :

ـ من تكون ؟ . .

قلت له بثبات ودون أن أهتز فى موقفى لحظة واحدة :

ـ إننى مراسل لجريدة . . « الديلى ستيزن » الانجليزية . .

وأطرق الحاكم الانجليزى برهة ، ثم استطرد يسألنى بنفس الصرامة :

ـ وأين هى ' الديلى ستيزن ' هذه ؟ . إننى لم أسمع عنها من قبل . .

قلت له :

ـ إنها جريدة تصدر فى لندن ، وقد أوفدتنى هذه الجريدة لموافاتها بتحقيق صحفى عن الحرب الدائرة فى المنطقة التى حولنا . .

قال الحاكم بتهكم : وهل هذه الجريدة غنية إلى الدرجة التى تساعدها على أن توفد مراسلاً خاصاً لها إلى جبهة القتال ؟

قلت له بسرعة :

ـ بل إنها فقيرة لدرجة أنها أوفدت رجلاً متواضعاً مثلى ، يرضى بالقليل !

وابتسم الرجل لأول مرة عندما سمع ردى عليه ، ثم طلب إلى أن أطلعه على أوراقى . .

ولما أبرزت له خطاب الجريدة ، اكتفى بالاطلاع عليه ، ثم التفت ناحيتى وهو يقول :

ـ إننى أعتبرك هنا من رعايا بريطانيا ، فأنت تعمل فى خدمة إحدى صحفنا ، ثم أنت مصرى . . ومصر كما تعرف تحت الحماية البريطانية !

وأثارتنى كلمات الحاكم الانجليزى فقد شعرت عندما أشار إلى حماية بريطانيا لمصر ، وكأنه قد غرس خنجراً فى قلبى . .

ولم يكن فى وسعى إلا أن أسكت على مضض وأنا أكاد أن أنفجر من الغيظ . .

وعاد الرجل الانجليزى يقول لى :

ـ وما الذى تريدنى أن أفعله لك الآن ؟ . .

قلت له بسرعة :

ـ أريد مساعدتى على أن أعبر منطقة القتال الذى تجدد فى الجبهة الأخرى لأصل إلى تركيا..

وفغر الحاكم الانجليزى فمه من الدهشة ثم قال لى:

ـ ولكن هذا يعنى انتحارك.. وأنا لايمكن أن أوافق على هذا الانتحار.. ولن أعطيك تصريحاً بذلك..!!

قلت له: إننى أتحمل مسئولية عملى..

ولم يوافق الرجل..

وأخيراً وبعد مناقشة طويلة وافق الحاكم الانجليزى على معاونتى فى تحقيق رغبتى، وهو يقول:

ـ سأساعدك، ولكن بشرط أن تكتب إقراراً كتابياً بخط يدك على أن تشير فيه إلى إننى قد نصحتك بالعدول عن ذلك، وأنك لم تنتصح!..

ولم أنتظر وبادرت بمد يدى إلى المحبرة التى كان يضعها فوق مكتبه، ثم أمسكت بالقلم لأكتب له الاقرار الذى اقترحه..

وابتسم الرجل على عكس ما توجست منه بعد أن انتهيت من كتابة هذا الاقرار..

ثم التفت ناحيتى، وهو يقول:

ـ لا شك أنه طيش الشباب.. وأعتقد أن مغامرتك هذه سيكون لها أثر كبير على مستقبلك..

وفى مدينة «شقودرا» عرف الأرناؤوط من الوطنيين والأحرار بوصولى بواسطة بعض المراسلات السرية التى كانوا يتبادلونها مع زملائهم فى المدن الأخرى..

وكما فهمت كانت قد سبقتنى إلى المدينة هالة ضخمة من الدعايات عن اتجاهاتى ونزعاتى.. وقد انتشرت هذه الدعايات فى المناطق التى يعيش فيها هؤلاء المجاهدون بحيث أخذت فى تصويرى على أننى رسول العالم الاسلامى الذى جاء لنصرة قضيتهم وللحرب معهم..

وكان أن استضافنى هؤلاء المجاهدون عدة أيام . . كما دعونى للكتابة فى جريدة كانوا يصدرونها واسمها « هدى الله » . .

ولم يفارقنى هؤلاء المجاهدون حتى غادرت المدينة فى طريق إلى جبهة القتال !

* * *

غادرت المدينة لأدرك لأول مرة أننى قد دفعت بنفسى إلى قلب المعارك . .

كانت أول مرة يراودنى فيها الخوف . .

ودارت فى رأسى عشرات الأسئلة . . ماذا يا ترى سيكون حال أهلى فى قرية الشوبك عندما يعرفون أننى قد تركت دراستى فى كلية الطب ، وأننى قد غادرت لندن لأعيش شريداً فى الجبال ؟ . .

إننى نفسى لم أكن أعرف ماذا سيكون عليه مصيرى . .

وكان مسدسى الذى أحمله قد علاه الصدأ ، فلم أكن قد أطلقت منه رصاصة واحدة !

كما كانت الحقيبة التى أحمل فيها ملابسى تثقل كاهلى . .

وانتابنى شعور بأنها قد ازدادت ثقلاً بحيث أصبح حملها يرهقنى . .

لم أتمالك نفسى ، وبادرت بفتح الحقيبة ، ثم سحبت الملابس التى كانت بداخلها ، وأخذت أرتدى بعضها فوق البعض ، ثم القيت بالحقيبة على قارعة الطريق . .
وبعدها تنفست الصعداء ، فقد تخلصت من الحمل الذى كان يثقل كاهلى أثناء رحلتى .

وأذكر أننى وضعت يدى فى جيب سترتى لأكتشف فجأة أننى لم أعد أمتلك بنساً واحداً . . وأن كل الجنيهات الذهبية التى كانت معى قد تلاشت . .

وابتسمت لحالى وأخذت أشبه نفسى . . باليهودى التائه . . .

المهم . . أخذت أضرب فى الأرض على غير هدى . . وكاد اليأس يخنقنى إلى أن التقيت مصادفة بواحد من المجاهدين الذين كنت قد التقيت بهم فى مدينة « شقودرا » .

ولما عرف الرجل بما أصبحت عليه حالى ، اقترح على أن أرافقه ، وقد ظللت بصحبته فترة من الوقت ، وكان هو الذى ساعدنى على العثور على سفينة صغيرة أقلتنى إلى مدينة برنديزى فى إيطاليا . . ومن برنديزى . . سافرت إلى استانبول !

أثار وصولى إلى تركيا .. علامات استفهام كثيرة ..

وأخذ رجال الحكومة العثمانية يتساءلون فيما بينهم .. ما الذى دفع هذا الشاب المغامر للقدوم إلى استابول ؟ ..

وكان من السهل على أن أدرك أن المسئولين العثمانيين لا ينظرون إلى وصولى إلى بلادهم باطمئنان ...

ولعل السبب .. هو أن مدينة استابول كانت فى تلك الأيام مسرحاً هاماً لنشاط رجال الحزب الوطنى ..

وفى بداية الأمر لم أهتم كثيراً بموقف الحذر والفتور الذى استقبلنى به المسئولون فى الحكومة التركية. فقد كنت أشعر باجهاد شديد ..

وكان طبيعياً أن أسعى لمقابلة رجال الحزب الوطنى، وكانوا قد عرفوا بما فعلته للزعيم محمد فريد فى لندن ..

وساءنى كثيراً أنهم كانوا ينظرون إلى على أننى مجرد شاب وطنى متحمس وأننى لا أعدو أن أكون ذلك الطالب النحيل الجسم الذى كان يدرس الطب فى لندن ..

ولكنهم عندما عرفوا بما وقع لى .. والسبب الذى جئت من أجله الى استانبول، استقبلونى بحفاوة بالغة ..

ولا أعرف لماذا قررت بعد وصولى إلى تركيا الالتحاق بجامعة استانبول ..

لعلنى كنت بعد أن تركت دراستى للطب فى لندن أريد أن أطمئن أهلى فى مصر على أن اشتغالى بالسياسة لن يجعلنى أهمل دراستى ومستقبلى ..

المهم .. لقد راودتنى فعلاً فكرة الالتحاق بجامعة استانبول .. وإن لم تسنح لى فرصة استكمال دراستى بتلك الجامعة ..

وقابلت فى تلك الأيام المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ..

وأكرم الرجل وفادتى، وقام بتقديمى إلى عدد من الشخصيات العربية والتركية ..

كان يقول لهم .. هذا الشاب شجاع وبطل ..

وكنت أشعر بالخجل عندما كان يتحدث عنى ، فقد كان يبالغ كثيراً فيما كان يقوله عنى . .

وكنت أخشى ألا يصدق أحد ما كان يرويه عن مغامرتى ، بالنسبة لصغر سنى ، ولأننى كنت أبدو هزيلاً وضعيف الجسم لدرجة مثيرة للانتباه ! !

* * *

سرعان ما شعرت بالملل من الحياة فى مدينة استانبول . .

وكان أن قررت السفر إلى « أدرنة » للالتحاق بالجيش التركى . .

كان على أن أفعل شيئاً . .

وعندما أفضيت برغبتى إلى الشيخ عبد العزيز جاويش أخذ يشجعنى على تنفيذ ما عزمت عليه . .

قال لى . . أنت قد تركت لندن مدفوعاً بالرغبة فى الجهاد . . وهذا هو الجهاد الحق . .

وأدركت ما كان يعنيه ! . .

كان يريد أن يقول لى . . أن التحاق بالجيش التركى ، سيتيح لى فرصة الحرب ضد البلغار . .

وعمل الشيخ عبد العزيز جاويش على تسهيل مهمتى . .

وكان أن أعطانى خطاب توصية إلى المرحوم أنور باشا . . رئيس هيئة أركان حرب الجيش التركى فى تلك الأيام . .

وفى أدرنة قابلت أنور باشا الذى رحب بى ، ثم دعانى لتناول الغداء على مائدته . .

وبعد الغداء استدعى أنور باشا ، ضابطاً عربياً من طرابلس فى ليبيا ، وكان اسمه طارق ، وكلفه بالاهتمام بى . .

وخرجت مع طارق لأعرف منه خبراً نزل على كالصاعقة . .

أن أنور باشا كان يسعى للصلح مع البلغار . . وأن الفريقين المتنازعين قد شرعا فعلاً فى كتابة مذكرات الصلح . .

ومادت الأرض تحت قدمى ، فقد كان هذا يعنى أن أعود بخفى حنين . . وأنه لم يعد

هناك أى داع للتطوع فى الجيش التركى . .

وأخذت أفكر فى الأمر طويلاً . . ثم اتخذت قراراً وهو أن أعود للعمل مراسلاً صحفياً مرة أخرى !

وكان أن قررت تجميع كل البيانات المتعلقة بالحرب بين تركيا والبلغار . .

تصورت أننى أستطيع أن أصبح شاهد عيان على ما جرى فى تلك الحرب من جرائم ومذابح . .

ولم أنتظر ، وبادرت بالذهاب إلى أنور باشا وحصلت منه على إذن بزيارة خطوط القتال . .

وهناك قابلت الضباط والجنود وعرفت منهم تفاصيل كثيرة عن الجرائم البشعة التى ارتكبها البغار أثناء حصارهم لمدينة أدرنة . .

لقد أحرقوا دور اليونانيين انتقاماً منهم لأن بلادهم تخلت عنهم فى الحرب . .

وشاهدت بعينى . . كيف أن أحياء بأكملها كان يسكن فيها اليونانيون قد تحولت إلى حطام ولم يكن باقياً منها إلا آثار الحريق . .

وروى لى بعضهم . . كيف أن البلغار كانوا يجمعون اليونانيين بالمئات داخل بيوتهم ، ثم يشعلون النيران فيها ! . . . وكيف أنهم كانوا يصوبون بنادقهم إلى النوافذ والأبواب ، ليقتلوا كل من كان يحاول الهرب من جهنم التى أشعلوها فى بيوت هؤلاء اليونانيين . .

وقالوا لى إن بعض اليونانيين كانوا يلقون بأنفسهم فى النهر من النوافذ هرباً من النيران . . وأن عمليات الإبادة كانت تجرى فيهم بالجملة ، وقد ذهب ضحية هذه العمليات الآلاف من اليونانيين الذين كانوا يعيشون فى مدينة أدرنة . .

وقد قام الأتراك ، بإخراج جثث الغرقى والقتلى ثم عملوا على نشر صورها فى لندن وباريس مما أثار شعوب أوربا كلها ضد البلغار . .

* * *

وفى مدينة أدرنة قابلت عدداً من الضباط العرب الذين كانوا يعملون فى الجيش التركى . .

ولفت انتباهى أن غالبية المناصب الرئيسية فى هذا الجيش كان يشغلها عدد من الضباط العراقيين . . وأن معظم وظائف أركان الحرب كانت فى أيدى الضباط العرب .؟

ولعلى أحسست بالاعتزاز بوطنى مصر حينما زرت مؤسسة الهلال الأحمر التركى ، وعرفت أن رئيسها مصرى إسمه الدكتور مورو . . انه واحد آخر غير المرحوم الدكتور عبد الوهاب مورو باشا . . وقد تعرفت به عندما ذهبت إليه مريضاً ، ورأيت كيف كانت مؤسسة الهلال الأحمر التركى تحت رئاسة هذا الطبيب المصرى تقوم بواجبها الانسانى على أكمل وجه . . .

* * *

كانت جولة استطلاعية ناجحة ، عدت بعدها بالقطار إلى مدينة استانبول . .

وفى الطريق شاهدت من نافذة القطار كيف خربت الحرب بلاداً بأكملها . .

ورأيت سهولاً واسعة ، وقد هجرها أهلها . .

وكما سمعت . . كان الأتراك لا يطيقون البقاء فى أى بلد يسقط فى أيدى أعدائهم ، ولذلك كانوا يبادرون بالهجرة منها قبل أن تنسحب منها قواتهم . . .

المهم . . وصلت إلى مدينة استانبول لأقرر السفر إلى لندن . .

كانت معى تفاصيل وصور كثيرة للفظائع التى ارتكبها البلغار ضد اليونانيين وضد الأرناؤوط الألبان ، وقد رأيت أن من واجبى أن أبادر بالعودة إلى لندن حتى أعمل على نشرها فى الصحف البريطانية . .

وكان اهتمامى بالدرجة الأولى بنشر الفظائع التى ارتكبت ضد المسلمين الألبان . .

أما تفاصيل ما حاق باليونانيين من جرائم وحشية ، فقد كان هدفى من وراء نشرها هو إثارة الرأى العام البريطانى ضد البلغار . .

* * *

قطعت تذكرة فى الدرجة الثانية على أول باخرة غادرت ميناء استانبول . .

وجاء بعض رجال الحزب الوطنى إلى الميناء ليودعونى . . وقد ظلوا معى حتى حان موعد صعودى إلى الباخرة . .

ولكنى ما كدت أستقر فوق سلم الباخرة حتى وقعت مفاجأة..

كان بعض رجال البوليس التركى فى انتظارى. وقد جاءوا ليطلبوا منى مغادرة الباخرة معهم..

ولما سألتهم عن السبب.. قالوا لى إننى مقبوض على ثم اصطحبونى إلى أحد مراكز البوليس فى قلب المدينة..

وهناك وجدت فى انتظارى تهمة لم تخطر على بالى أبداً..

قالوا لى أن الخديو عباس يزمع السفر على نفس الباخرة، ولما كانت ميولى غير معروفة تماماً، فى الوقت الذى تبدو فيه علاقتى برجال الحزب الوطنى واضحة ومعروفة. فقد تقرر القبض على خوفاً من قيامى بمحاولة اغتيال الخديو أثناء سفرى معه على نفس الباخرة..

وصعقت لهذه التهمة، الباطلة، وأخذت أصيح فى وجه رجال البوليس التركى:

- أنا أغتال الخديو!.. ولماذا..؟

قالوا لى.. إذن فعليك أن تنتظر باخرة أخرى!!..

ووافقت على عدم السفر مع الخديو على نفس الباخرة..

ومع اطلاق سراحى أرسلت إلى حاكم مدينة استانبول، وكان اسمه جمال «باشا» مذكرة احتجاج على ما لقيته من معاملة رجال البوليس التركى..

قلت له.. إننى رجل محدود الموارد وقد دفعت فى ثمن تذكرة السفر بالباخرة آخر قرش فى جيبى وأنه لم يتبق معى ما يمكن أن أتعيش منه فى مدينة استانبول حتى يحين موعد قيام الباخرة التالية. . وإننى إزاء ذلك أحمله مسئولية ما أصابنى من أضرار نتيجة لتعسف رجال بوليسه التركى؟

وكان جمال باشا كريماً فأرسل فى طلبى.. ولما ذهبت إليه قال لى:

- لا تحتج ولا تحزن، فأنت الآن فى ضيافتى.. وهاك تذكرة على الباخرة القادمة بالدرجة الأولى..

ولما حاولت أن أقول له شيئاً، قاطعنى، وهو يقول:

- إننا فقط كنا نعمل على ضمان سلامة حياة الخديو عباس!

ولم يكن فى وسعى إلا أن أشكر الرجل .. ثم أنصرف ..

* * *

نسيت أن أقول شيئاً هاماً ..

كان الألبان المسلمون يعيشون بعد الجرائم البشعة التى تعرضوا لها فى حالة ضياع ..

وكنت قد التقيت أثناء مغامرتى فى بلاد البلقان بالكثيرين من زعمائهم ..

وكانت رغبة هؤلاء الزعماء كما سمعتها منهم ، وكما طلبوا منى إبلاغها إلى العالم الاسلامى ، هى أن يكون لهم أمير مسلم يجلس على عرش البلاد ..

قالوا لى .. إنهم يريدون أميراً يجمع شملهم ، ويوحد صفوفهم ..

وقد حاولت أكثر من مرة إقناع هؤلاء الزعماء الألبانيين بأننى أصغر كثيراً من حمل مسئولية هذه الرسالة إلى العالم الاسلامى ، إلا أنهم أصروا على أن أنوب عنهم فى حمل هذه الرسالة ..

قالوا لى .. إنها أمانة فى عنق !

وعندما ركبت الباخرة التى أقلتنى فى طريق عودتى إلى لندن أخذت أفكر فى رسالة زعماء الألبان ..

ولم انقطع عن التفكير فيها حتى وصلت إلى لندن !

الفصل الثالث

رشحت الملك فؤاد لعرش ألبانيا..

رجعت الى لندن فى أوائل سنة ١٩١٣ لأبادر بالعودة الى كلية سان توماس لدراسة الطب..

كان قرارى أن اتعلم بالنهار، وأن اشتغل بالسياسة بالليل!

وكان تفكيرى ينحصر فى تحقيق هدفين: العمل على نشر تفاصيل الفظائع التى ارتكبها البلغار ضد الالبانيين المسلمين.. وثانيا تحقيق رغبة الوطنيين الألبانيين فى ان تكون لهم دولة مستقلة يحكمها أمير مسلم..

كانت هذه هى رغبتهم، وقد حملوها لى أمانة فى عنق حتى ابلغها الى العالم الخارجى.. وخاصة الى زعماء الشعوب الاسلامية!!

وعلى أثر وصولى لندن قمت بالاتصال بجمعية تكونت فى لندن للعمل على تحقيق استقلال ألبانيا، وكان اسمها.. (الجمعية الانجليزية الالبانية).. وقد دعانى أعضاء هذه الجمعية، وكان يرأسها أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى لالقاء محاضرة فى أحد اجتماعات الجمعية..

وفى هذه المحاضرة شرحت للحاضرين تفاصيل المذابح التى ارتكبها البلغار ضد الشعب الالبانى المسلم، وعرضت عليهم ماكنت أحمله من وثائق وصور تكشف عن وحشية البلغار فى حربهم البربرية ضد الالبان..

وأذكر أننى تلقيت فى اليوم التالى بعد القاء محاضرتى خطابا من سيدة لاأعرفها.

كانت تقول لى فيها أنها قد أعجبت كثيرا بحماسى وبلاغتى واخلاصى فى الدفاع عن قضية الالبان، ثم اقترحت على أن أقابلها حتى تقوم بتقديمى الى واحد من اللوردات الانجليز، واسمه اللورد هادلى..؟

وقالت لى.. ان هذا اللورد الانجليزى قد اعتنق الاسلام، وقد أبدى رغبته فى أن يستمع الى وجهة نظرى حول القضية الالبانية..

وذهبت لمقابلة هذه السيدة لأدرك منذ أول وهلة ماكانت تجرى وراءه .

كانت تريد استغلالى فى تنفيذ خطة لمساعدة اللورد هادلى على أن يصبح ملكا على ألبانيا . .

وابتسمت وأنا أسمع هذه السيدة الانجليزية وهى تقول لى . . إن تربع اللورد الانجليزى على عرش ألبانيا هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق أمنية شعب ألبانيا فى تحقيق استقلاله ، وأن يصبح له ملك مسلم . .

كانت أول مرة يتبادر الى خاطرى اسم هذا اللورد الانجليزى لترشيحه ملكا على ألبانيا ، فقد كان رأيى قد استقر على ترشيح أحد الأمراء المصريين للتربع على عرش المسلمين فى هذه البلاد . . الا أن فكرة ترشيح اللورد هادلى قد أثارتنى قليلا ، لاعتقادى بأن بريطانيا ، وكانت دولة كبرى يمكن أن تساند هذا اللورد الذى اعتنق الاسلام فى أن يصبح ملكا على ألبانيا . . وبالتالى يمكن أن تتحقق أمنية شعب ألبانيا فى أن يحصل على استقلاله ، وأن يكون له ملك مسلم . . !

وكان أن وافقت على الاجتماع مع اللورد هادلى . .

وكانت السيدة الانجليزية قد أوصتنى عندما مهدت أول لقاء بينى وبينه ، بألا أشير فى حديثى معه الى عرش ألبانيا . .

وعملت بنصيحتها ، فأخذت أتحدث معه عن أحوال الشعب الالبانى وعن رغبته فى الاستقلال . .

وأثار اهتمام الرجل بالتفاصيل التى كنت أتحدث معه عنها ، انتباهى ، وخاصة عندما دعانى لتناول العشاء على مائدته ، وهو يهنئنى على حماستى لقضية الشعب الالبانى . .

كانت عيناه تلمعان ببريق عجيب ، وكان يبدو نهما ومتعجلا فى أن يصبح ملكا على ألبانيا ، حتى أن خاطرا تبادر الى ذهنى . . وهو أن الرجل لم يعتنق الاسلام الا جريا وراء عرش المسلمين فى ألبانيا . .

واعترف أننى قابلت السيدة عدة مرات ، واننى عملت فعلا من أجل تنصيب (لورد هادلى) ملكا على ألبانيا . .

* * *

لم يكن هناك مرشح آخر.. وكل ماكنت أجرى وراءه هو أن أجد دولة كبرى كبريطانيا لتؤيد رغبة الالبان فى أن يكون لهم ملك مسلم، ولم يكن يهمنى أن يكون ذلك الملك هو اللورد هادلى أو غيره!..

ولكنى فجأة.. وبعد أن تبادلت عدة رسائل مع زعماء الالبان فى الجبال أعرض عليهم اسم اللورد الانجليزى.. وصل الى لندن الأمير أحمد فؤاد.. الذى أصبح فيما بعد الملك فؤاد الأول..

ولاأعرف بالضبط كيف اتجهت بفكرى الى هذا الامير الذى لم أكن أعرفه.. ولم يكن قد سبق أن التقيت به..

كان أميرا من مصر.. وقد قادنى تفكيرى الى أنه أحق بعرش ألبانيا من ذلك اللورد الانجليزى هادلى ليتربع على عرش هذه البلاد!!

وزادنى تحمسا لهذا الرأى.. انى كنت قد سمعت من صديق انجليزى من أعضاء الجمعية الانجليزية الالبانية أن هناك من يرشح الأمير أحمد فؤاد فعلا لعرش ألبانيا وأن ايطاليا تؤيد هذا الترشيح.. كما أن فرنسا لم تكن تمانع، وان كانت تفضل أن يكون صاحب عرش ألبانيا فرنسيا.. أما انجلترا، فلم تكن حتى تلك اللحظة قد اتخذت أى قرار فى أمر هذا الترشيح..!

ولم أنتظر، وقررت أن أنصرف تماما عن اللورد هادلى الى الأمير أحمد فؤاد..

وكان أن سعيت لمقابلته..

وأذكر أننى ذهبت الى الفندق الذى كان يقيم فيه، وطلبت تحديد موعد لمقابلة الأمير..

وتحدد الموعد على الفور..

ولكن عندما ذهبت فى الموعد المحدد، وكنت قد رتبت فى ذهنى كل ماكنت أنوى أن أقوله له، ان قابلنى أحد رجال حاشيته ليخبرنى بأن الأمير لن يستطيع مقابلتى، وأنه قد كلفه بأن يستمع نيابة عنه الى ماأريد ان أقوله لسموه..

وأثار ذلك الضيق فى نفسى، ومع ذلك لم أيأس، وبادرت اقول لرسول الأمير:

ـ ألا يمكن أن أقابل سموه فى فرصة أخرى..

وأخذ الرجل يتأملنى طويلا، ثم أجابنى بقوله:

ـ كلفنى سمو الأمير بأن أنوب عنه فى الاستماع الى كل ماتريد أن تقوله لسموه .. هذا كل ماعندى ! !

ولم يكن أمامى الا أن أقول للرجل كل ماكنت أريد أن أقوله للأمير ..

قلت له .. ان الشعب الالبانى يرحب بأن يتولى عرش ألبانيا ملك من أسرة محمد على ..

وقلت له .. انه لافائدة من انتظار تأييد الدول الأوربية .. ولاسيما بريطانيا ، لأن لكل واحدة من هذه الدول الأوربية مطامع فى ألبانيا ، كما أن لكل واحدة منها مرشحا للعرش الألبانى ..

واقترحت أن يذهب الأمير الى ألبانيا مباشرة وهناك يمكن تجميع الشعب الالبانى حوله والمناداة به ملكا على ألبانيا ..

وقلت له .. إن هناك أكثر من مائة ألف مسلم على الأقل لايترددون فى الالتفاف حول أى أمير مسلم من أسرة محمد على .. أو البيت العثمانى . وأن هذه الآلاف من المسلمين تنتظر فقط اشارة تحمل اسم الأمير الذى يوافق على أن يتربع على عرش بلادهم حتى تلتف حوله ، وتنادى به ملكا على بلادها ..

وقلت له .. ان ذهاب الأمير الى ألبانيا ، والمناداة به ملكا يمكن أن يضع الدول الكبرى أمام الامر الواقع .. !

وأثار انتباهى أن الرجل كان يتابع حديثى باهتمام بالغ ، وانه ظل يستمع الى حتى انتهيت من كلامى ، وبعدها التفت ناحيتى وهو يقول :

ـ هذه أفكار شاب صغير لايقدر المصاعب والاخطار !

قلت : المهم عندى أن أقابل الأمير ..

وتركنى الرجل ، ثم عاد بعد فترة ليحدد لى موعدا آخر وهو يقول لى :

ـ ان أفندينا ـ أى الأمير ـ يشكرك على اخلاصك .. وقد وافق على مقابلتك . !

* * *

تصورت أننى قد نجحت فى اثارة اهتمام الأمير بعرش ألبانيا ..

وبادرت بكتابة رسالة الى زعماء المسلمين فى ألبانيا أرشح لهم اسم الأمير المصرى..

كان فى تصورى أنه لن يعارض بعد أن يستمع الى وجهة نظرى فى أن يصبح ملكا على ألبانيا..

ولكن حدث عندما عدت الى الفندق فى الموعد الجديد الذى حدد لى.. ان وجدت مفاجأة فى انتظارى..

قالوا لى.. ان الأمير غير موجود.. وانه قد غادر الفندق، وأنه لايعرف متى سيعود.

وتأثرت بشدة حتى أننى فكرت، وأنا أغادر باب الفندق الذى ينزل فيه الأمير، ألا أعود للتفكير فى عرش ألبانيا..

وقررت أن أتفرغ لدراستى، وأن أعود من جديد طالبا فى كلية الطب..!

ولكن العمل السياسى كان يلاحقنى.. فقد اقترح على بعض زملائى من الطلبة المصريين فى لندن فى تلك الايام انشاء جمعية أطلقنا عليها اسم.. جمعية (أبو الهول) للمطالبة باستقلال مصر..

وتحمست للفكرة، وكانت مناقشاته طويلة لتحديد أهداف هذه الجمعية..

كان من رأيى أن يكون احد أغراض إنشاء هذه الجمعية هو المطالبة بالاستقلال التام..

وكان فى رأى بعض الاعضاء من زملائنا الطلبة الاستغناء عن كلمة التام..

وقررنا الاحتكام الى المرحوم محمد فريد بك.. وكان أن كتبنا اليه فى جنيف..

وجاء الرد الينا منه.. وكانت مفاجأة عندما وجدناه يقترح علينا هو الآخر.. الغاء كلمة التام..

قال.. انه من الحكمة ألا توضع كلمة التام لانها قد تغضب الأتراك، وهى فى نفس الوقت لن تفيد مصر كثيرا فى معركتها من أجل تحقيق حريتها واستقلالها..!

لكننى وزملائى الذين أيدونى صممنا على النص على كلمة التام.. ولا يمكن أن نكون أعضاء فى جمعية تطالب بغير هذا الاستقلال التام!

ونجحنا فى اقناع زملائنا الطلبة فى اثبات كلمة التام بين أهداف الجمعية . .

* * *

المهم . . مر عام ١٩١٣ . . وكذلك النصف الاول من عام ١٩١٤ . . وكنت فى تلك الأيام مشغولا بدراستى . .

وفى شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، وجهت الدعوة للطلبة المصريين ممن كانوا يدرسون فى مختلف دول أوربا لعقد مؤتمر عام فى جنيف أطلق عليه اسم « مؤتمر الشبيبة المصرية » . .

واختارنى زملائى الطلبة المصريون فى انجلترا ، مع أربعة آخرين من الزملاء لتمثيلهم فى هذا المؤتمر . .

وكان هؤلاء الزملاء هم الدكاترة عبد الحليم حلمى وعبد الرءوف رشدى ومصطفى عمر بك . . والاستاذ زيدان القصبى . .

وفى جنيف عقد مؤتمر الشبيبة المصرية أول اجتماعاته فى مقهى صغير

واشترك فى هذا الاجتماع حوالى ٢٠٠ طالب جاءوا الى سويسرا من مختلف دول أوربا . . كما اشترك فيه أيضا المرحوم محمد فريد بك وأمين الرافعى بك وبعض زملائهما من أعضاء الحزب الوطنى . .

وأذكر عندما بدأنا فى اعمال المؤتمر . . أن دخل علينا الدكتور منصور رفعت متأثرا ، وهو يوجه الاتهامات الى أعضاء الحزب الوطنى ، ثم قام بمهاجمة المرحوم محمد فريد بك بعنف وهو يتهمه بعدم المحافظة على كرامة مصر والمصريين . .

قال له . . كيف تقبل وأنت الذى تعيش هنا فى جنيف أن يعقد المؤتمر المصرى فى مثل هذا المكان الحقير . .

وحاول المرحوم محمد فريد بك أن يقول شيئا . . ولكن الدكتور منصور رفعت أخذ يصيح وهو يقسم بشرفه أن يعمل على فض اجتماعات المؤتمر فورا لأنه لن يسمح بعقدها الا فى واحد من أكبر مسارح المدينة محافظة على كرامة مصر وشبيبة مصر . .

ولا أريد أن اقول . . ان هذه الثورة أثارت حماسنا كثيرا . . وقد أيدناها وان كنا نعلم أن الحالة كانت كما يقول المثل المصرى . . العين بصيرة واليد قصيرة . .

فقد كان رئيس الحزب الوطنى نفسه يعيش على الاعانات الضئيلة المحدودة التى كان يتلقاها من الطلبة.. وبالتالى لم يكن عندنا المال الذى يكفى لاقامة المؤتمر فى واحد من مسارح المدينة الكبيرة..

ولم يكن فى وسعى الا أن أقف خطيبا حتى أعمل على تهدئة الموقف..

واستطعت بلباقة ان اخفف من ثورة الدكتور منصور رفعت، وكانت تربطنى به صلة قرابة.. كما خففت من الاثر السيىء الذى تركته هذه الثورة فى نفوس رجال الحزب الوطنى بعد الحملة الظالمة التى وجهها الرجل الى المرحوم محمد فريد بك..

واقترحت فى النهاية تأجيل الاجتماع حتى نجد مكانا مناسبا لعقده فيه..

ووافق أعضاء المؤتمر على اقتراحى!..

* * *

اجتمع المؤتمر مرة أخرى.. ولكن فى أحد مسارح المدينة الكبيرة..

وأثناء احدى جلسات المؤتمر ألقيت خطابا باللغة الانجليزية عن فظائع الاحتلال الانجليزى واستبداد اللورد كيتشنر فى مصر..

وأدهشنى أن أجد ترجمة خطابى وقد نشرتها الصحف السويسرية فى صباح اليوم التالى..

كما نشرت الصحف الانجليزية النص الكامل لهذا الخطاب..

وحاولت أن أعرف.. كيف تسرب هذا الخطاب الى الصحف السويسرية والانجليزية، وكما فهمت كان بعض الصحفيين السويسريين والانجليز فى جنيف، قد عرفوا باجتماع الطلبة المصريين فى هذا المؤتمر فأخذوا يتابعون اخباره..

وقد أثار الخطاب الذى ألقيته اهتمامهم لما ضمنته من وقائع ثابتة تفضح الاستعمار الانجليزى فى مصر!

وحدث بعد انتهاء أعمال هذا المؤتمر أن تلبد الجو السياسى الدولى بالغيوم إثر مصرع الأرشيدوق فرديناند ولى عهد الصرب..

وفجأة أيضا اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى مع عمليات حشد الجيوش فى كل الدول التى كانت تحيط بسويسرا..

وانقطعت المواصلات ، ولم يعد فى وسعنا أن نغادر الاراضى السويسرية . . واضطر غالبية أعضاء المؤتمر من الطلبة البقاء فى جنيف على أمل أن تصل اليهم أى نقود من عائلاتهم فى مصر . .

ولكن المراسلات توقفت أيضا . .

كما توقفت البنوك عن العمل . .

ولم يعد فى وسع أى واحد من الطلبة المصريين الذين جاءوا الى سويسرا للاشتراك فى أعمال مؤتمر الشبيبة المصرية أن يتحرك من مكانه . .

كانوا جميعا فى حالة افلاس تام . .

وفى تلك الأيام . . جاءتنى صاحبة البنسيون الذى كنت انزل فيه مع بعض زملائى لتطالبنا بدفع ماكان علينا من مبالغ متأخرة . .

وأخذت صاحبة البنسيون تسب وتشتم ، ونحن فى أشد حالات الخجل . .

وعرف المرحوم محمد فريد بما حدث لنا مع صاحبة البنسيون فبادر باغاثتنا ـ وهو الذى كان محتاجا الى كل فرنك فى جيبه ـ بمبلغ مائة فرنك فدفعناها الى صاحبة البنسيون حتى تهدأ ثورتها !

وكنت قد تعلمت كثيرا من مغامرتى الاولى التى وصلت فيها الى تركيا . . ولعل أهم ماتعلمته هو أن أحسب حساب الغد . .

وكان أن عملت على اخفاء خمسة جنيهات من النقود التى كانت معى دون أن أخبر بها أحدا من زملائى . .

وبهذا المبلغ قررت أن أعود الى مصر لأتصل بعائلات زملائى وللبحث عن وسائل لاسعافهم بما كانوا يحتاجون اليه من مساعدات ونقود . .

وكان أن سافرت من جنيف الى برنديزى وهى ميناء ايطالى على بحر الادرياتيك بأرخص درجات السكك الحديدية . .

وفى برنديزى اشتريت تذكرة للركوب على سطح احدى البواخر المسافرة الى بيريه فى اليونان . .

وكان ثمن التذكرة فى تلك الأيام أقل من جنيهين . . !

وعندما ذهبت الى الميناء لركوب الباخرة وجدت نفسى وقد أحاط بى حشد كبير من الجماهير التى تدفقت على الميناء لركوب البواخر التى كانت تستعد للاقلاع منها هربا من المدينة إثر انطلاق بعض الاشاعات التى تقول بقرب اجتياح الالمان للمدينة.. !

وكنت قد سلمت حقيبتى الى أحد عمال الزوارق ليحملها الى سطح الباخرة ، وعندما صعدت على السلم أخذت اتلفت حولى بحثا عن الرجل فلم أجده..

ولم يكن أمامى الا أن أواصل صعودى درجات سلم الباخرة مرغما ، وأنا مدفوع بالكتل البشرية التى كانت تتدفق حولى..

ولما صعدت على ظهر الباخرة رأيت الرجل يقف فى الميناء وهو يحمل حقيبتى..

كان يفتش عنى..

وناديته بأعلى صوتى من فوق سطح الباخرة حتى رآنى.

وأخذ الرجل يصيح ، وهو يلوح بإحدى يديه ، بينما كان يحمل حقيبتى بيده الأخرى

كان من المستحيل عليه أن يشق طريقه بين جماهير الناس التى كانت تتحرك بعصبية وذعر شديد..

وتلفت حولى بحثا عن حبل حتى وجدته.. ومن فوق سطح الباخرة أدليت بالحبل ليربط الرجل الحقيبة به..

وبسرعة جذبت الحبل لأتلقى الحقيبة بين ذراعى !

الشئ الوحيد الذى أسفت عليه.. أننى لم أتمكن من أن أعطى الرجل البقشيش الذى كان يستحقه ، فقد كان الزحام حول سلم الباخرة شديدا ، وكان من المستحيل على فعلا أن أصل اليه حتى أعطيه هذا البقشيش !



الفصل الرابع

أعلنت بريطانيا الحماية على مصر
فأعلنت أنا الحماية عليها !

كان سطح الباخرة يضم خليطا عجيبا من مختلف الجنسيات واللهجات..

وكان هناك شئ واحد يسيطر على تفكير جميع هؤلاء الركاب، وهو الخوف من الحرب، ومحاولة اغتنام فرصة حياد ايطاليا، وعدم اشتراكها فى الحرب للذهاب بعيدا عن أوربا عن طريق أحد موانيها..

ولم تكن الرحلة مأمونة، فقد كان يكفى أن تظهر احدى البوارج الالمانية فى عرض البحر حتى تدوى صفارات الانذار على سطح الباخرة..

وكان هذا يعنى أن يشتد الهلع بين الركاب..

ولن أنسى فى حياتى ماحدث على ظهر الباخرة بعد أن تحركت بحوالى أربع ساعات، عندما ظهر فجأة الى جوارها قطعتان من الاسطول البحرى الالمانى.. وكانت احداهما هى البارجة الحربية الالمانية (جوبن).. والثانية هى الطراد الالمانى (برسلاو)..

ارتفع الصراخ، وأخذ الركاب يهرولون فى جميع الاتجاهات..

وأمرنا قبطان الباخرة أن نرتدى أطواق النجاة، وقد ظللنا فى أشد حالات الفزع حتى مرت قطعتا الاسطول الالمانى بجوارنا، وانتهت الازمة بسلام..

وأثناء رحلة الباخرة لم أجد مكانا فوق سطح الباخرة لاستريح فيه، ولذلك أخذت أتنقل من جهة الى أخرى..

ولاأظن أننى وجدت مكانا أحسن من عنبر الفحم لكى أقضى بداخله بعض أوقات الراحة والنوم !

وأثناء رحلة الباخرة تساوى الركاب جميعا.. الفقراء أمثالى ممن لم يكن فى وسعهم أن يهيئوا بالمال مايحتاجون اليه من راحة.. والذين يملكون المال، فلم تكن أموالهم فى مثل تلك الرحلة لتساعدهم على الراحة التى تعودوا عليها..

وبصورة عامة.. كان كل شيء على ظهر الباخرة يعيش فى حالة فوضى..

ولم يكن فى وسع أى راكب مهما كان قدره أو مقامه الا أن يتصرف كما يقول المثل البلدى.. بذراعه.. وبمعنى آخر.. كان على كل راكب أن يدبر أمره بنفسه..!

وكنت قد أعددت نفسى لكى أعيش أيام رحلتى فوق ظهر الباخرة على ماكنت قد حملته معى فى سلة صغيرة من كسرات الخبز والجبن..

وكان من نعم الله على.. أن هذه الفوضى مع اختلاط ركاب درجات الباخرة قد ساعدتنى كثيرا فى أن أحصل من آن لآخر على كمية من الحساء الساخن التى كانت توزع فى أكواب على المسافرين..

وفى غمرة الخوف.. من البارجة الالمانية (جوبن) والطراد (برسلاو)، نسى الركاب كل مافقدوه من أسباب الراحة..

وأصبحوا.. لاهمّ لكل راكب على ظهر السفينة الا مراقبة البحر..

وظل الرعب يلازمنا جميعا حتى وصلت الباخرة بنا الى ميناء بيريه اليونانى!!

ونزلت من الباخرة لأستفسر عن موعد اقلاع باخرة رومانية كنت قد حجزت عليها تذكرتى الى الاسكندرية فى الدرجة الرابعة.. أى على السطح..

وكدت أصاب بالدوار عندما قالوا لى.. ان موعدها سيتأخر عدة أيام..

وأخذت أفكر بسرعة فيما يمكننى أن أفعله، فقد كنت أعرف أننى فى أشد حالات الافلاس فلم يكن معى أكثر من جنيه واحد!!

وانتابنى خاطر بأن أبعث ببرقية الى أهلى فى مصر لارسال مبلغ من المال الى لمساعدتى على العيش حتى موعد وصول الباخرة الرومانية..

ولكن ارسال هذه البرقية كان يعنى أن أنفق كل ماتبقى معى من مال.. ولم يكن فى وسعى أن أبقى وحيدا فى شوارع بيريه بلا مليم واحد فى جيبى..

وقررت أن أفوض أمرى الى الله..

***

وفى اليوم التالى وقع نظرى فى أحد الشوارع على شيخين معممين وقد عرفت أحدهما لأول وهلة.. وكان المرحوم فضل بك الزمر..

ولم أنتظر، وبادرت بالتقدم اليه وأنا أحييه..

وفى بادىء الامر لم يعرفنى الرجل، فقد كنت أضع قبعة على رأسى.. ولما عرفته بنفسى احتضننى وقبلنى.. ثم عرفنى بزميله.. وكان المرحوم ابراهيم بك أبو رحاب عضو الجمعية التشريعية فى تلك الأيام..

والاثنان كانا زميلين لأخى المرحوم محمد بك عزام..

وقال لى المرحوم ابراهيم بك أبو رحاب إن أخى قلق على وفى حيرة شديدة لأنه يعلم أننى فى أشد الحاجة الى المال.. وهو فى نفس الوقت لايعرف مكانى حتى يبادر الى مساعدتى..

وقال لى الزمر بك: لابد أنك يابنى فى ضيق لأن أخاك محمد بك فى قلق شديد عليك. وأراد الرجل أن يقدم لى مبلغا من المال.. ولاأعرف لماذا ترددت فى قبوله ؟

لقد تملكنى شعور غريب لاأعرف كيف أفسره، ووجدت نفسى أعتذر عن قبول هذا المبلغ، مدعيا أن معى مايكفينى من مال!

وأثناء الحديث عرفت منهما السبب فى مجيئهما ميناء بيريه اليونانى..

قالا لى.. انهما جاءا مع وفد من كبار الاعيان المصريين لتهنئة الخديو عباس حلمى بنجاته من محاولة أثيمة للاعتداء على حياته..

وعرفت منهما تفاصيل هذا الحادث.. قالا لى.. ان الجانى كان اسمه مظهر وانه تلميذ، بالمدرسة البحرية، وقد قتل أثناء محاولته اغتيال الخديو..

* * *

مرة أخرى حاول الزمر بك اعطائى مبلغا من المال وهو يقول لى:

أنا أعرف انك لابد أن تكون فى حاجة الى أى مبلغ من المال.. ونحن أقارب ومن عائلة واحدة.. كما أننا (بلديات).. وأنا بمثابة والدك.

وتملكنى الخجل مرة أخرى وأنا أؤكد له أن معى كفايتى من النقود، وأنه لاحاجة لى لأى مال..

وحتى أؤكد له ذلك.. أطلعته على تذكرة سفرى على الباخرة الرومانية..

وسكت الرجل على مضض ، وقد ظللت ألازمه مع زميله حتى علمت أن باخرة يونانية ستغادر ميناء بيريه فى نفس اليوم . .

وتمالكت نفسى وأنا أقول لفضل بك . . اننى أفضل السفر على هذه الباخرة حتى أبكر بالوصول الى الاسكندرية لطمأنة أهلى بعد الذى عرفته عن قلق أخى وحيرته بشأنى . .

وقال لى الرجل : وماذا عن تذكرة سفرك على الباخرة الرومانية ؟ . .

قلت له : استسمحك أن تشترى لى تذكرة سفر على الباخرة اليونانية . . وسأترك لك تذكرتى على الباخرة الرومانية عسى أن يستفيد بها أحد ! !

ووافق الرجل على شراء تذكرة سفر لى على الباخرة اليونانية التى غادرت ميناء بيريه فى نفس اليوم . .

* * *

وصلت الى ميناء الاسكندرية لأنزل ضيفا على منزل صديق والدى المرحوم محمود فهمى باشا رئيس مجلس شورى القوانين . .

لقد كان ترحيبه بى كبيرا . . وبعد أن أمضيت معه يوما رحلت الى القاهرة ، وفيها بادرت بالاتصال برجال الحزب الوطنى ، وعلى الاخص المرحوم اسماعيل صدقى والدكتور سالم هنداوى وزكى على باشا وعبد المقصود متولى بك . . وغيرهم . .

وكانت اجتماعات طويلة تدارسنا فيها احتمالات اشتراك تركيا فى الحرب التى كانت ناشبة فى أوربا . . فلما أعلنت تركيا الحرب ضد الفرنسيين والانجليز قررنا العمل للاستعانة بالاتراك على تخليص مصر من نير الاحتلال البريطانى !

ولكن الانجليز كانوا أسرع منا ، فقد بادروا باعلان الحماية على مصر . .

وبكينا من الالم عندما سمعنا باعلان الحماية على بلدنا بالدرجة التى كنا نعزى فيها بعضنا البعض . .

وكان شعورى بعد اعلان الحماية على مصر بأننى مقيد ، وأن بقائى فى مصر تحت ظل هذه الحماية عديم الفائدة ، ولا طائل وراءه ، ولذلك صممت على مغادرة مصر للالتحاق بالجيش التركى ، وللاشتراك فى الحرب ضد الانجليز ! !

وفى قريتى بحثت بين أهلى وعشيرتى عن رجل يشترك معى فى الجهاد . .

ووقع اختيارى على رجل قوى شجاع كان قد عمل فترة من الوقت جنديا فى الجيش المصرى . .

ولما فاتحته بما عزمت عليه رحب بسرعة على الخروج معى للحرب ضد الانجليز . .

وكان عهدا بيننا على الموت دفاعا عن حرية وطننا العزيز مصر . .

* * *

ذهبت الى محافظة مصر ومعى أوراقى للحصول على إذن بالسفر . .

قلت انى عائد الى انجلترا لاستئناف دراستى فى كلية الطب . .

وكما فهمت . . أرسلت أوراقى الى القسم السرى ، وكان يرأسه انجليزى اسمه (فليبيدس) . .

وحجز الرجل أوراقى عنده عدة أيام ، وبعدها فوجئت بأحدهم يستدعينى لمقابلة رسل باشا . . وكان يعمل فى تلك الأيام وكيلا لحكمدار القاهرة . .

ولما ذهبت اليه ، أخذ الرجل الانجليزى ينظر الى والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، ثم صرخ فى وجهى وهو يقول :

ـ لن تخرج من مصر حتى تنتهى الحرب !

وكانت مقابلة قصيرة للغاية ، خرجت بعدها من مكتبه . . !

وفى الطريق الى خارج مبنى حكمدارية القاهرة أخذت أتعثر فى مشيتى والالم يكاد يعصر قلبى . .

وحمدا لله على أنى لم أقدم أوراق زميلى ، وكنت قد تصورت أن فى وسعى أن أدعى أنه خادمى الخاص . .

وكان على أن اتدبر الامر ، فقد كانت نفسى ممتلئة تصميما على الخروج من مصر للمساهمة فى الجهاد الذى كنت أريد أن أشارك فيه ضد الانجليز . . أعداء مصر الذين أعلنوا الحماية عليها . .

ولم أيأس ، وبادرت على الفور بكتابة رسالة الى مدير كلية الطب التى كنت ملتحقا بها فى لندن . .

قلت له .. انى أجد صعوبة فى العودة الى لندن بسبب الحرب ، ورجوته الا يعد انقطاعى عن الدراسة نهائيا ..

وكان الرجل رقيقا ، فرد على بخطاب يطلب الى فيه أن أعود ، وأخذ يطمئنى على أن الحالة فى لندن طيبة ..

وكان واضحا فى رده .. انه قد تصور أن الخوف مما يمكن أن تحدثه الحرب فى لندن هو الذى يمنعنى من العودة الى دراستى ..

ولم أنتظر ، وحملت خطاب المدير الانجليزى الى محافظة القاهرة لأعرضه على رسل باشا عسى أن يسمح لى بالسفر الى لندن ..

ولكن الرجل أصر على موقفه ..

قلت له .. إن الاصرار على بقائى فى مصر يضر بى ضررا بالغا ، لأن يحرمنى من اتمام دراستى مدة لا نهاية لها .. و خاصة أن أحدا لا يعرف متى يمكن أن تضع الحرب أوزارها !!

ولمعت عينا رسل باشا ببريق عجيب ثم التفت ناحيتى وهو يقول :

ـ إذا كانت الدراسة هى التى تهمك .. اذن فأنا على استعداد لأن أصدر أمرا بقبولك طالبا بمدرسة الطب المصرية ..

ثم طلب إلى أن أذهب لمقابلة مديرها وكان اسمه الدكتور « كيتنج » فى حالة إذا ما كنت على اصرارى لمواصلة دراستى للطب ..

* * *

ولم يكن أمامى .. إلا أن التحق بمدرسة الطب المصرية فى انتظار أول فرصة تسنح لى للذهاب فى المهمة التى وهبت نفسى لها ..

وكانت توصيات رسل باشا قد سبقتنى إلى الدكتور كيتنج ، فقد كان الرجل يستدعينى بين الآونة والاخرى إلى مكتبه لينصحنى بألا أشتغل بالسياسة !

ولكننى لم أترك العمل بالسياسة لحظة واحدة ..

وأذكر أن الدكتور كيتنج استدعانى مرة لمقابلته ، فلما ذهبت اليه فوجئت به يقول لى :

ـ أنت جرثومة فى هذه المدرسة .. وأحب أن أحذرك بأن صديق الجنرال مكسويل ،

قد فكر أكثر من مرة فى شنقك أو القائك فى السجن ، ولكنى كنت فى كل مرة أحميك . .

والجنرال مكسويل هو الرجل الذى كان يعمل قائدا عاما للقوات البريطانية فى مصر فى تلك الأيام . .

وأذكر أيضا أننى لم أتمالك نفسى عندما سمعت هذه الكلمات من المدير الانجليزى ، . . واننى بادرت أقول له :

ـ ان الامبراطوية البريطانية تستطيع أن تشنقنى أو تسجننى ظلما إذا أرادت لأنها تملك القوة التى تمكنها من أن تفعل ما تشاء ، ولكننى لم آت عملا استحق عليه هذا التهديد !!

قال المدير : أنت مفسد

ثم فتح أحد أدراج مكتبه ، وأخرج منه ملفا كان يضم مجموعة مقالاتى فى الصحف البريطانية .

وكان يحتوى أيضا على النص الكامل لخطبتى فى جنيف التى هاجمت فيها الاحتلال البريطانى واستبداد اللورد كيتشنر !

ولمعت عينا الرجل ، وقد تصور أنه قد أمسك بتلابيبى ، ثم أخذ يصيح :

ـ أليست هذه مقالاتك وخطبك . .

قلت له بهدوء :

ـ كل هذا حدث قبل الحرب . . أما الآن فإننى لا أعمل شيئا . . لا أخطب . . ولا أكتب !!

وسكت الرجل ولم يقل شيئا !

وفى رأيى أن الدكتور كيتنج كان بالرغم من كل ما كان يبدو عليه من شدة وقسوة رجلا رحيما وطيب القلب . .

وكما عرفت لقد تدخل فعلا عدة مرات لحمايتى من رجال القسم السياسى ، وكانت أية تهمة تكفى فى ذلك الوقت الرهيب الذى كانت البلاد خاضعة فيه للأحكام العرفية . . لإلقاء أى مواطن فى السجن إلى ما شاء الله !!

وفى تلك الأيام . . تعددت حوادث الاعتداء على المغفور له السلطان حسين كامل وعلى المرحوم ابراهيم فتحى باشا وزير الحربية المصرية وقتئذ . .

وأخذ رجال الشرطة السريون يتعقبوننى فى كل مكان..
وكنت أعرف ذلك، ولذلك كنت أجد متعة فى تضليلهم..

والحقيقة.. اننى كنت على علم بتفاصيل هذه الحوادث.. بل اننى كنت أعرف الكثير منها قبل وقوعها.. ولكن ضميرى وتدينى كان يمنعاننى دائما من الاشتراك فيها بالرغم من حماستى الوطنية..

ولم تطاوعنى نفسى مطلقا على المساهمة فى أية عملية للاغتيال أو الغدر!

* * *

المهم بقيت أنتظر فى صمت وصبر اللحظة المناسبة للخروج من مصر سرا حتى يتسنى لى التطوع مع الاتراك فى الحرب ضد الانجليز..

ومرت عدة أشهر، ثم جاءت الفرصة المناسبة عندما نشب القتال بين الانجليز والاتراك عند قناة السويس، وامتلأ مستشفى قصر العينى بالجرحى الاتراك الذين أصيبوا أثناء المعارك..

ووجدت نفسى بحكم عملى فى مدرسة الطب أعمل ممرضا للجنود الذين كنت أتمنى أن أكون محاربا معهم..

وأذكر أننى عثرت بين هؤلاء الجنود على شاب مصرى كان متطوعا للقتال مع الاتراك..

كان اسمه (قفطان)، وهو من الإسكندرية، وقد كان فى الآستانة عندما نشبت الحرب فبادر بالتطوع للقتال ضد الانجليز مع الاتراك..

وعرفت من هذا الشاب أن نورى باشا شقيق انور باشا قد سافر إلى طرابلس فى ليبيا، ومعه مجموعة من الضباط الاتراك..

قال لى.. انهم حملوا معهم كميات من المؤن والذخائر.. وأنه مكلف بأن يعد مع السنوسيين جيشا على حدود مصر لغزوها من ناحية الغرب..

وكانت هذه المعلومات كافية لأن اتخذ أخطر قرار فى حياتى.. وهو الهرب من مصر عبر الصحراء الغربية للالتحاق بهذا الجيش ومحاولة الاستعانة به فى تحرير مصر من الاحتلال البريطانى....!

الفصل الخامس

بداية المغامرة فى ليبيا

اتجهت بفكرى إلى الفرار عن طريق الحدود الغربية والانضمام إلى المجاهدين .. كنت أريد محاربة الانجليز ، والعمل على طردهم من بلادى ..

وكان أن اتصلت بأحد مشايخ العرب ، واسمه الشيخ « عبد العزيز أبو مصباح » .. وكانت تربط بينه وبين عشيرتى صلة نسب ..

اتفقت معه على أن يعمل على تسهيل عملية فرارى عبر الصحراء الغربية إلى ليبيا ..

قلت له .. أريد واحدا من البدو الخبيرين بمسالك الصحراء لمصاحبتى فى رحلتى ..

ووافق شيخ العرب على أن يعد لى ما يمكن أن أحتاج اليه فى تلك الرحلة ، وأن يتفق مع الرجل الذى سيرافقنى فى رحلتى ..

ودفعت للرجل عشرين جنيها لتكاليف الرحلة بما فى ذلك ثمن الجمل الذى كان قد وعد بإعداده لأركبه فى رحلتى إلى الحدود الليبية ..

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بعد أن أعددت كل شئ للقيام برحلتى ، فقد أخذ شيخ العرب يتلكأ فى تنفيذ ما كان مطلوبا منه حتى يئست تماما منه ..

وقد تبين لى فيما بعد أن الرجل كان يجارينى فى أفكارى حتى لا يعرضنى لأخطار الرحلة التى قررت القيام بها ..

تصور أنها مجرد نزوة شاب يريد أن يقوم بمغامرة .. ولم يكن يتصور أبداً أننى لن أتراجع عن القيام بالمهمة التى وهبت نفسى لها ..

ووصل إلى القاهرة فى تلك الأيام ضابط بالجيش التركى من أصل مصرى اسمه (شكرى) وكان قد جاء إلى مصر متخفيا للتجسس وللعمل على اشعال نيران الثورة ضد الانجليز ..

وفى القاهرة قام بالاتصال بعدد من زعماء الحزب الوطنى ، وقد تعرفت به عن طريقهم ..

وأراد القدر أن يلعب دوره حتى يتسنى لى تحقيق الحلم الذى كان يراودنى بالهرب إلى ليبيا، والانضمام إلى الجيش التركى الذى كان يجرى إعداده لغزة مصر من ناحية حدودها الغربية.

وكان ان كلفت بالعمل على تهيئة إقامة هذا الضابط التركى واخفائه وتهريبه من مكان لآخر..

وأخيرا.. اتفقنا على أن يبقى الضابط فى مصر حتى يواصل تنفيذ مهمته.. وأن أحمل أنا ما جمعه من معلومات إلى طرابلس..

وأهم من ذلك كان على أن أحمل معى إلى قيادة الأتراك فى ليبيا (أطلس) يحتوى على مجموعة من خرائط المساحة المصرية، وكل ما وصلت اليه أيدى رجال الحزب الوطنى مما قد يفيد الجيش التركى عندما تبدأ عمليات غزوه لمصر من ناحية حدودها الغربية.

* * *

المهم.. اختفيت فى شهر ديسمبر عدة أيام فى القاهرة مع ابن فريقى الذى عاهدنى على القتال معى ووافق على أن يرافقنى فى رحلتى.. ثم سافرنا معا إلى الاسكندرية خلسة حيث قمت بالاتصال برجل اصطحبنا إلى دمنهور، ومنها انتقلنا إلى بيت يمتلكه أحد أعراب الصحراء فى ناحية الكوم الأخضر فى مديرية البحيرة التى أصبحت الآن محافظة.

وفى بيت هذا الرجل العربى انضم الينا اثنان من البدو الذين عرفوا بخبرتهم بمسالك الصحراء الغربية، وكان أحدهما اسمه خالد.. والآخر لا أذكر اسمه تماما..

ومن الكوم الأخضر بدأنا رحلتنا فى أخطر مغامرة يمكن أن يقوم بها إنسان..

لقد خرجنا من البلدة الصغيرة قبيل الغروب لنصل إلى بلدة اسمها (كوم الحنش).. وكان علينا أن نتصل بضابط نقطة الشرطة فى هذه البلدة. إنه ضابط شاب رقيق وكان ينتسب إلى الحزب الوطنى وكثيرا ما كان يتصل بأعضائه.

وفى كوم الحنش سألنا عن هذا الضابط. فلم نجده. كان فى راحته الأسبوعية..

ولم ننتظر، وقررنا مواصلة السير إلى رأس ترعة النوبارية، فوصلنا اليها فى ساعة متأخرة من الليل..

وكان الظلام دامسا.. والبرد قارسا للغاية.. وفى تلك الأيام كانت الأحكام العرفية

تقضى باطلاق الرصاص على كل من يحاول تجاوز هذه المنطقة إلى الغرب بدون ترخيص رسمى.. وكنا نعرف أن الحراسة مشددة للغاية فى المنطقة ما بين رأس النوبارية وبحيرة مريوط.. ولذلك قررنا أن نختفى حتى منتصف الليل، على أن نترقب غفلة الحراسة والدوريات لنواصل رحلتنا فى اتجاه الصحراء..

وأخيرا سنحت الفرصة فتحركنا فى الظلام.. وكنا نسمع أثناء سيرنا أصوات رجال الدوريات المسلحة فى حركاتهم.. حتى إذا ما طلع النهار علينا وجدنا أنفسنا قد اخترقنا منطقة الخطر.

كانت الأرض أمامنا سهلة، وممتدة إلى مالا نهاية.

ولم نتوقف وواصلنا السير حتى بلغنا عند الظهر منطقة آبار عند هضبة إلى الجنوب من السكك الحديدية عند محطة بهيج، ويطلق عليها أهل المنطقة اسم.. آثار (أبو سنة)..

وعند هذه المنطقة تركنى الأعرابيان مع زميلى ثم توجها إلى بلدة بهيج لاحضار الجمل، وما يمكن أن نحتاج اليه فى رحلتنا من أطعمة وقرب الماء..

* * *

بقيت مع زميلى فى ذلك المكان وحدنا طول النهار.. ومرت بنا الساعات طويلة، وقد امتلأت بالاحتمالات المختلفة..

ولأول مرة بدأت أشعر بالضياع، وأنا اختنق فى ذلك المكان المهجور، فقد كنت مع زميلى بلا طعام. ولأننى لم أكن أعرف ما يمكن أن تخبئه لنا الأيام..

وكنت اتطلع حولى، فلا أرى شيئا على مدى البصر حتى اننى تصورت نفسى وقد تركنى الاعرابيان نائما فى قبر..

ولما غابت الشمس وأسدل الليل ظلامه، أخذت الهواجس تنتابنى.

تصوت أن شيئا قد حدث للاعرابيين، وفجأة وبينا كنت فى أشد حالات القلق والانزعاج رأيت بعض الأشباح تدنو من بعيد..

ولمحت بين تلك الأشباح الجمل وهو يتحرك فى الظلام..

وانفرجت أساريرى لأول مرة وأنا أهرول ناحية تلك الأشباح تاركا المكان الذى كنت مختبئا فيه..

وكانت مفاجأة عندما رأيت شيخا مسنا قد انضم إلى الاعرابيين..

وجلسنا نتحدث عن السبب فى تأخرهم.. قلت لهم أننى تصورت أن أمرهم قد انكشف للسلطات العسكرية، ولذلك أمضيت يومى فى قلق شديد..

وقام أحد الاعرابيين فأوقد نارا ثم صنع «شايا» على طريقة البدو..

كانت أول مرة اتذوق فيها هذا الشاى.. ولا أريد أن أقول أن نفسى عافته من شدة مراراته..

ولم أكن أدرى فى ذلك اليوم أن هذا الشاى الأسود سيصبح فيما بعد شرابى المفضل!

وتكلم الشيخ المسن وكان اسمه الشيخ مفتاح، لأول مرة.. فأخذ يوصينى بالصبر والشجاعة.. ثم قال لى:

ان كل ما أرجوه منك هو أن تسأل السيد أحمد الشريف السنوسى منذ وصولك أن يدعو لى.. وان تأتينى من الاتراك بندقية جديدة..

فوعدته بذلك!

والتفت الرجل إلى الاعرابيين، وقد عرفت فيما بعد أن أحدهما ابنه.. والثانى ابن أخيه ثم قال لهما:

ـ إذا مات هذان الرجلان، ولم تموتا مثلهما فلستما منى..!
وأثارت كلمات الرجل الطمأنينة فى نفسى..
وأذكر أننا أكلنا خبزا وجبنا وزيتونا.. وبعدها ودعنا الرجل ثم عاد من حيث أتى!

* * *

وتحركنا لنطوى الليل، وكان البرد قارسا، حتى الصباح.. ولا أريد أن أقول.. إننى كنت فى أواخر الليل أنام وأحلم فاستيقظ فأجد نفسى ما أزال ماشيا، فاستمر فى سيرى..

ولم أعرف قبل تلك الليلة.. أن فى وسع الإنسان أن ينام ويمشى فى نفس الوقت!

وكان ركوب الجمل متعذرا، فقد كان يحمل الزاد وقرب الماء.

وعند الظهر رأينا طائرة تحلق فى السماء وكانت تقترب من ناحيتنا، فتصورت أنها

تراقبنا . . ولكن الطائرة ارتفعت من جديد ، ثم عادت أدراجها إلى ناحية يطلقون عليها اسم « آبار المغيرة » . .

وكانت هذه المنطقة تلوح لنا من بعيد ، ومع ذلك لم نتجه ناحيتها خشية أن نجد عندها احدى دوريات الهجانة التى كانت تنتشر فى أودية الصحراء فى تلك الأيام . .

وصحيح أننى كنت متخفيا فى ملابس البدو . . الا أننى كنت على يقين من أن مظهرى الذى لم يكن يدل على أننى بدوى يمكن أن يفضحنى . .

وبالتالى ، فقد كان الابتعاد عن الطرق التى تسلكها دوريات الهجانة أسلم بكثير . .

ولما جاء الليل . . اقترحت على رفاقى فى الرحلة أن ننام . .

قلت لهم . . انه لم تعد لى قدرة على مواصلة السير . .

وكانوا جميعا فى حالة يرثى لها من الاجهاد والتعب ، ولذلك وافقونى على رأيى ! . .

ولم أنتظر وبادرت بالقاء نفسى على الأرض فى العراء . .

* * *

نهضنا عند الفجر لنتحرك من جديد . .

وكان الاعرابيان على جانب كبير من الذكاء . . فلم يسلكا طريقا مألوفا : ولم يسيرا فى طريق مستقيم . فقد كانا يتجهان بنا فى اتجاه الجنوب ثم إلى الشمال . . وكانا يتحركان بالقافلة إلى الغرب ثم يعودان مرة أخرى إلى الشرق ، قبل أن نواصل رحلتنا فوق رمال الصحراء التى كانت تمتد أمامنا . .

وبمعنى آخر . . كنا نتحرك بطريقة لولبية . .

كانا يتحاشيان المرور على مخيمات البدو . . أو الاقتراب من المسالك التى تمر بها دوريات الهجانة . .

وقد واصلنا رحلتنا على هذه الحالة يوما بعد يوم ، حتى بلغنا مشارف مدينة مرسى مطروح بعد سبعة أو ثمانية أيام . .

إننى لا أذكر بالضبط عدد الأيام التى قطعنا فيها هذه الرحلة حتى مرسى مطروح . .

فقد كنا نسير.. وننام.. وكان الليل والنهار يتعاقبان علينا، فلم تسنح لنا الفرصة لمعرفة عدد الأيام بالضبط التى استغرقتها رحلتنا..

ولكن من حسن حظنا أننا كنا فى الشتاء، فقد هطلت الأمطار أثناء رحلتنا، ولذلك كنا نجد حاجتنا من الماء دون أن نضطر للاقتراب من مناطق الآبار والموارد التى يتجمع عندها البدو!

وفى مرسى مطروح تحركنا من جديد لنتابع رحلتنا لمدة عدة أيام أخرى..

وفجأة شاهدنا أثناء الليل نارا مشتعلة..

كانت تبدو من بعيد، وقد رأينا من حولها أناسا يتحركون فى ظلام الليل..

وجلسنا نتشاور فيما يمكن أن تكشف عنه هذه النار..

وكان من رأى الاعرابيين.. الا خوف من أصحاب هذه النار..

قالا.. اننا قد ابتعدنا تماما عن كل خطر، ثم أخذا يؤكدان أننا قد وصلنا إلى منطقة كانت تقع تحت سيطرة السيد أحمد الشريف السنوسى.. وكانت قواته قد هاجمت فى تلك الأيام مدينة السلوم، وأصبحت تسيطر على المنطقة التى حولها..

ولم أقتنع بسرعة، وطلبت إلى أحدهما أن يتسلل إلى منطقة هذه النار لنعرف الحقيقة..

وغاب الرجل فترة من الوقت، ثم عاد والفرحة تملأ أساريره..

قال لى.. إن شيخ النجع الذى نسير فيه هو أحد رؤساء زوايا السنوسية..

وأنه من رجال السيد أحمد الشريف السنوسى!

وأطمأنت نفسى لأول مرة، وأدركت أننى قد نجحت فى الفرار من مصر..

وان مهمتى ستكلل بالنجاح..!

* * *

تقدمنا إلى النجع، وكان قد مضى علينا فى رحلتنا حوالى ١٢ يوما، ولما عرفوا بمهمتنا أكرموا وفادتنا، ثم ذبحوا لنا ماعزا..

وارتفعت النيران من جديد، وكانت أحاديث طويلة دارت أثناءها أكواب الشاى..

وفى تلك الليلة .. نمت لأول مرة منذ أن غادرت الإسكندرية نوما عميقا هادئا ..

واستيقظت فى الصباح لأطلب من شيخ النجع أن يرافقنا إلى مركز قيادة الجيش السنوسى التركى ، وكان فى ناحية يطلقون عليها اسم « العقاقير » ..

وتحركنا من جديد وكنا فى أشد حالات الفرح حتى وصلنا إلى هناك ..

وفى معسكر الجيش السنوسى التركى التقيت بأحد أولاد المجاهد المصرى المرحوم محمد بك أبو جبريل .. وكان شيخا لقبيلة القفاشات . وهى واحدة من قبائل أولاد على التى تعيش فى الصحراء الغربية .. وكان هو الذى اصطحبنى إلى خيمة القائد نورى باشا شقيق المرحوم أنور باشا الذى قابلنى بترحاب وبعد أن أكرم وفادتى تسلم منى ما كنت أحمله معى من الرسائل والمعلومات والوثائق والخرائط !

وخرجت من عند نورى باشا لأجد نفسى وجها لوجه مع صديق وزميل عزيز لى كنت قد تركته فى لندن .. وهو المرحوم الدكتور دسوقى ..

كان من زملاء الكفاح فى لندن ، وكنت عندما سافرت إلى جنيف قد تركته فى العاصمة الانجليزية حتى يتسنى له تأدية امتحانه النهائى .. ولما أعلنت الحرب سافر إلى ألبانيا ، ومنها إلى تركيا حيث تطوع للقتال ضد الانجليز فى الجيش العثمانى ..

وكان لقاؤنا مثيرا للغاية ، فقد تعانقنا .. ثم غلب علينا البكاء .. !

* * *

وأذكر ما حدث عندما قرأ نورى باشا الرسائل التى حملتها اليه .

لقد قام من مكانه ثم عانقنى وهو يقول لى :

ـ هكذا يكون أبناء البلاد التى تريد الحرية !

وكان حديث طويل ، ثم تناولنا الطعام ..

وأثناء هذا الحديث قلت له .. إننى فى حاجة إلى التدريب على الجندية ..

ولم ينتظر نورى باشا ، وأمر باستدعاء ضابط مصرى كان متطوعا للقتال مع الأتراك ، وهو الشهيد عبد الحليم حمدى وكلفه بالاشراف على تدريبى العسكرى ..

وأهدى إلى نورى باشا بندقية عثمانية جديدة وهو يقول لى :

ـ هذه البندقية هى أعز شئ عندى وأنا أهديها اليك تقديرا لشجاعتك ووطنيتك !

وفى منطقة « العقاقير » . . وهى تقع فى غرب منطقة سيدى برانى بدأت أول تدريب على القتال فى منطقة تمتلئ بكثبان الرمال . .

انها نفس المنطقة التى أقام الجيش السنوسى التركى فيها مركز قيادته . .

وكانت القوة العسكرية فى هذه المنطقة لا تزيد على ٥٠٠ مقاتل من المشاة . . وكانت مع هذه القوة مدفعان صحراويان وعشرة مترو ليوزات أى مدافع رشاشة . . كما كانت تدعمها مجموعة صغيرة من الفرسان وكانت غالبيتهم من الضباط وشيوخ القبائل .

وكان عدد هؤلاء الفرسان لا يتجاوز العشرين فارسا . .
هذا إلى جانب قوة مؤلفة من المصريين والطرابلسيين من اتباع السيد أحمد الشريف السنوسى . .

وكانت هذه القوة بقيادة المجاهد المصرى المرحوم محمد صالح حرب . .

ولم تكن هذه القوة تزيد على ٣٠٠٠ رجل مسلح . . وكانت هى التى قامت فى تلك الأيام باحتلال واحة سيوة وواحات الفرافرة والواحات البحرية والداخلة . .

أما القوات الانجليزية فكانت تعسكر فى ناحية مرسى مطروح . !

* * *

أخذت الأيام تجرى بسرعة . . وكنت أقضى فى كل يوم عدة ساعات فى التدريب على الفنون العسكرية حتى ألممت بها . .

وحدث فى تلك الأيام أن هاجمت قوة انجليزية إحدى وحدات الأتراك وكان يقودها المرحوم جعفر العسكرى باشا . . وكنا نطلق عليه وقتئذ اسم جعفر أفندى . .

وأثناء المعركة . . استطاع جعفر أن يرد القوة الانجليزية وأن يظفر بقبعة أحد جنودها . .

وكانت هذه القبعة أول ما شاهدته فى حياتى من غنائم الحرب !

* * *

ولكن فجأة وقع خلاف بين نورى باشا والسيد أحمد الشريف السنوسى . .

وكان طبيعيا أن يتوقف السيد الشريف السنوسى عن إمداد قوانا بما كانت تحتاج إليه من مواد التموين . .

واشتد الضيق الاقتصادى فى معسكرات الجيش والمنطقة التى حوله..

وتجاوز الموقف درجة الاحتمال..

وأذكر أن ثمن لفة الدخان قد وصل إلى جنيه من الذهب.. وكانت اللفة الواحدة تكفى لصنع عشر سجائر فقط!

وكاد الموقف يتدهور عندما أخذت قوات الانجليز تتقدم نحونا بعد أن تحركت من مرسى مطروح..

كانت تعززها الطائرات من قاذفات القنابل.. وأنواع أخرى من الطائرات.. وكان واضحا أن الانجليز قرروا استغلال الموقف فى توجيه ضربة على قواتنا..

واستدعانى نورى باشا.. كما قام باستدعاء كبار الضباط إلى اجتماع عاجل لتداول الموقف..

وتقرر فى هذا الاجتماع.. أن تقوم قواتنا بمناوشة قوات العدو لإعاقتها عن التقدم..

وجاءت اللحظة التى تمنيتها عندما خرجت مع الجنود.. كأى مقاتل عادى.. وكنت بلا رتبة عسكرية.. ولا أريد أن أقول مجرد نفر.. وكانت بيدى بندقية لأقاتل الانجليز أعداء بلادى..

وفى أول معركة نجحت قواتنا فى مباغتة العدو.. لقد فاجأناه بالهجوم.. وكانت تساندنا مدفعيتنا التى لعبت دورا مجيدا..

وانتصرنا عليه..

ولكن العدو لم يلبث أن استعان بالطائرات على رد الهجوم.. ولم تكن قواتنا تخاف شيئا قدر خوفها من الطائرات، فلم تكن لدينا مدفعية مضادة للطائرات..

كما كانت المنطقة كلها مكشوفة، مما كان يثير الهلع فى نفوس الناس..

وكان الأعراب ينظرون إلى الطائرات على أنها شياطين لها أجنحة تساعدها على الطيران..

وبعضهم.. كان يقول.. ان هذه الطائرات من أعمال الشيطان

وكان أن دب الذعر فى صفوف المتطوعين..

اضطررنا للهرب والاختفاء وراء كثبان الرمال من تلك الطائرات اللعينة!

وأثناء هذه المعركة استطعت أن أخفى حصانا ليساعدنى على الفرار فى الوقت المناسب . .

ربطته فى جذع شجرة بين كثبانين من الرمال حتى لا تراه العيون . . وعندما تحرج الموقف ، تسللت إلى مكان الحصان ، فلم أجده . . وضاقت بى الأرض عندما تطلعت أمامى لأرى قوات العدو تتقدم ، وكانت على بعد مئات من الأمتار من مكانى . .

وحلقت إحدى طائرات العدو فى تلك اللحظة مما اضطرنى للانبطاح على الأرض .

أزيزها كان مزعجا حتى أننى أحسست أن رأسى قد طار فى الهواء فمدت إليه يدى أتحسسه . .

تصورت فى تلك اللحظة أننى سأقع فى الأسر لا محاله . .

ان هذا يعنى أن يحملنى الانجليز إلى القاهرة لينتظرنى حبل المشنقة .

انتظرت . . وبادرت بالقيام من مكانى ، ثم أخذت أجرى تحت هدير الرصاص . .

وكنت أتوارى تارة بين كثبان الرمال . . وتارة أخرى أظهر فوقها . .

وأراد الله أن أفلت ، فلم أصب بشىء . . حتى جاءتنى النجدة عندما لمحت حصانا من خيول العدو . . وكان من النوع الاسترالى وعليه سرج . .

ولما دنوت منه وجدته يحمل بطانتين ووعاء من الألمنيوم . . وبندقية معلقة إلى جانب السرج . .

وجدت طفلا من البدو يقوده . . ولم يكن عمره يزيد على عشر سنوات ؟ . .

ولما رآنى الطفل قال لى . . إنه هو الذى وجده . . ولذلك فهو من حقه . . أى أصبح ملكا خالصا له . .

قلت له . . نعم . . هو لك . . ثم أركبت الطفل خلفى ، وطلبت اليه أن يدلنى على الطريق الذى ذهب إليه المحاربون

ولم نلبث أن ابتعدنا عن العدو . .

وبعد عدة أميال وجدت نورى باشا ومعه المرحوم جعفر باشا العسكرى وضابطا تركيا آخر اسمه نهاد . . وكان معهما عدد من الجنود ومدفع رشاش واحد !

وهللت وأنا أقول لنورى باشا :

ـ يا باشا لقد غنمت هذا الحصان بعد أن كدت أقع فى الأسر . .
وضحك نورى باشا . . ثم أشار بيديه ناحية الشرق وهو يقول لى :
ـ تظن نفسك قد نجوت من الأسر . . اذن أنظر هناك . . هذه خيول العدو تقطع علينا الطريق . .

قلت له : وماذا ستفعل ؟ . .

قال نورى باشا : اذهب بسرعة فى هذا الاتجاه . . ثم أشار إلى جهة الجنوب ، فقد تفلت بجلدك من الأسر . .

وتلفت ناحية الجنوب لأرى قافلة من قواتنا ، وهى تنسحب . .
قلت له : ولكننى أريد أن أبق معك . .
قال نورى باشا : أنا آمرك أن تذهب بسرعة . .

ولم يكن أمامى إلا أن أؤدى له التحية العسكرية ، ثم مضيت فى طريق لألحق بالقافلة . .

الفصل السادس

نجوت مرة أخرى من الموت !

كانت القافلة تضم جمال قواتنا التى تحمل الجرحى والمدافع وبقية الذخائر والخيام . .

وكان نورى باشا قد أدرك منذ الصباح أن العدو قد اشتبك معنا بمشاته ، فعمل بسرعة على إطلاق فرسانه فى اتجاه اليمين . . وبالتالى أصبحت قوات العدو محاصرة بين البحر وبين قواتنا . .

واتخذ فرسان العدو من أحد الكثبان الرملية كمينا بعد أن تجاوزوا الاراضى السهلة ووجدوا أمامهم مرتفعا اختبأوا وراءه . .

وبمعنى آخر . . إختفت قوات العدو وراء كثبان الرمال حتى اذا ما تخلصت قافلة قواتنا والجنود الهاربون من المنطقة الرملية ، وأصبحت الارض التى تسير عليها القافلة مكشوفة ، قامت بالإغارة عليها . .

أدرك نورى باشا خطة العدو أثناء المعركة ، ولذلك قام بسحب قوة من المشاة وجعلها قوة احتياطية تحت تصرفه ، وقام بتوزيعها بحيث تقوم بحماية جناحه الأيسر ، وفى نفس الوقت أعد ثلاثة كمائن ، وقام بتسليح كل كمين بمدفع رشاش . .

وأثناء عملية انسحاب قواتنا ، قام بنفسه بقيادة أحد هذه الكمائن الثلاثة ، وهو الكمين الذى التقيت به عنده . .

وأنا نفسى لم ادرك خطة نورى باشا ، إلا عندما اقتربت من المكان الذى تسير فيه قافلة قواتنا المنسحبة . .

كانت قد بلغت المنطقة المكشوفة . .

وفى تلك اللحظة رأيت غبار خيول العدو وهى تندفع فى اتجاه القوات المنسحبة . .

وارتفع زئير المدافع الرشاشة ، وهى تنطلق فى اتجاه قوات العدو من الكمائن التى أعدها نورى باشا . .

وهكذا أراد الانجليز أن يصيدوا قواتنا فعمل نورى باشا على أن يتصيد قواتهم . .

وأثناء المعركة أخذ حصانى ينجذب نحو خيول العدو، ولم أتمالك نفسى من الدهشة، وأخذت أضربه حتى لا يندفع نحوها..

ورآنى احد الضباط العرب وكان يركب هو الآخر فرسا فالتفت ناحيتى وهو يقول:

- إتبعنى فى هذا الاتجاه..

ولم انتظر واتجهت أجرى بحصانى وراءه..

وكان فرسه عربيا خفيفا، أما فرسى فكان استراليا من النوع الثقيل، ولذلك كان الضابط العربى يقلل من سرعته حتى ألحق به..

كان ضابطا فلسطينيا من أهل غزة، واسمه على ما أذكر حسن أفندى.. وقد ظللت ألاحقه حتى تجاوزنا القافلة بمسافة تقل عن الكيلو متر، وعندها تلفت ناحيتى وهو يقول:

- لننزل هنا ونرقب الحالة..

وأخذ الضابط الفلسطينى يتطلع حوله بالمنظار المكبر الذى كان يحمله، ثم قال لى:

- الآن نستطيع أن نلحق بالقافلة فقد نجونا والحمد لله..

وتحركنا فى طريقنا الى منطقة آبار ماء كان يعرفها، فقد كان خبيرا بالأرض، وكان يعرف ان القافلة ستتوقف لتعسكر عند هذه الآبار..

وهناك وجدنا بعض قواتنا، وكانت قد سبقتنا، وتتابعت بعد ذلك جماعات الجنود، ثم لحقت بهم بعض الجمال التى كانت تضمها القافلة..

وحاولنا أن نعرف ما حدث بالضبط أثناء المعركة، فلم نستطع، فقد كانت كل جماعة مشغولة بمشاكلها..

وكل الذى أدركناه.. هو ان مدافعنا الرشاشة قد تمكنت من رد الخيالة الانجليز عند هجومهم المباغت على القافلة، وقد حدث أثناء المعركة ان تمكن عدد من الفرسان الانجليز من الوصول الى مكان القافلة، وقد دارت معركة بينهم وبين القوات التى كانت قد انسحبت مع القافلة، وقد اشترك فى هذه المعركة الاعراب الذين كانوا يقودون الجمال مع النساء والجرحى..

واضطر الخيالة الانجليز للانسحاب..

ولم يصب فى هذه المعركة الا شيخ مسن أصيب بسيف فى رأسه!!

وفى هذه المنطقة أمضينا جانبا من الليل ، ثم تحركنا مرة أخرى ، فقد كان شعورنا بأن العدو لا بد أن يستمر فى تعقبنا . .

وتردد أن قوات العدو قد احتلت سيدى برانى ، ولذلك قررنا أن ننحرف فى مسيرتنا ، فلا نتجه ناحية الشاطىء . .

وكان علينا أن نتحرك بسرعة ، والا نستقر فى مكان حتى نتعرف على حقيقة الموقف بالضبط . .

وفى اليوم الثالث بلغنا منطقة اسمها بئر « واعر » فى داخل الأراضى الطرابلسية . .

وكان جنودنا منذ بدأت المعركة لا يجدون تموينا منتظما ، ولذلك ظلوا يعيشون على البلح الذى كان يجود به بعضهم على بعض . .

واضطررت أنا نفسى أن أعيش على الأعشاب الخضراء التى كنت ألتقطها فى طريق من الأرض كأعشاب « القزيج » « . . الذباح » . .

وفى بئر منطقة « واعر » إستقبلنى ضابط أسود عرفته منذ أول وهلة . .

كان هو نفسه الضابط طارق الذى كلفه أنور باشا بمرافقتى والاهتمام بشئونى عندما قابلته فى أدرنة منذ سنتين بعد أن حملت اليه المعلومات والوثائق التى قمت بجمعها عن الحرب فى البلقان . .

ولم أكن أعرف أنه قد جاء للحرب فى ليبيا . .

استقبلنى الرجل بحرارة ، وهو يقول لى . . إنه القومندان المسئول عن مركز « بئر واعر » . .

ولما قلت له أننى أكاد أموت من الجوع ، أمر تابعه بأن يطبخ لنا برغلا ولحما . .

وكانت وليمة . . ولا أبالغ إذا قلت اننى لم أذق فى حياتى أطيب أو ألذ من اللحم والبرغل الذى أكلته فى تلك الوليمة . .

* * *

وصل فى نفس اليوم نورى باشا . . كما وصل عدد كبير من جنودنا الذين نجوا من المعركة . .

وعرفت لأول مرة ما حدث بالضبط . . فقد فوجىء الفرسان الانجليز على أثر قيامهم بالهجوم المباغت على قافلة قواتنا المنسحبة ، بالرصاص ينهال عليهم من المدافع الرشاشة التى وزعها أنور باشا على الكمائن الثلاثة التى أقامها خفية بين كثبان الرمال . .

وكانت معركة شرسة قام الفرسان الانجليز أثناءها بالهجوم بخيولهم على مواقع كمائن المدافع الرشاشة . .

وصمد حاملو هذه المدافع بشجاعة حتى وطئتهم الخيول بأقدامها . .

وكانت الخسائر التى أصابت فرسان الانجليز بنيران مدافعنا الرشاشة فادحة . .

هذا الى جانب الخسائر التى تكبدها هؤلاء الفرسان عندما التحموا بالرجال والنساء عند هجومهم على القافلة المنسحبة . .

ولم تخطر مقاومة قواتنا على بال العدو بالدرجة التى جعلته يحمل جرحاه ويرحل دون أن يهتم كثيرا بالقتلى الذين تركهم وراءه فى مكان المعركة .

ولم يحمل العدو معه المدافع الرشاشة التى استولى عليها بعد مهاجمته الكمائن بالفرسان ، فقد ترك هذه المدافع الرشاشة فى أماكنها ثم رحل . .

وفى هذه المعركة وقع جعفر العسكرى أسيرا بعد أن جرح فى ذراعه . . كما وقع فى الأسر الضابط نهاد . . وضابط آخر . .

* * *

وفى منطقة بئر « واعر » . . سمعنا حكايات كثيرة عن بطولة نورى باشا ، فقد ظل واقفا على رأس جنوده ، فى أحد الكمائن الثلاثة التى كانت تطلق المدافع الرشاشة على الفرسان الانجليز حتى كاد يقع فى الاسر . .

وعندما دهمت القوات الانجليزية الموقع الذى كان يقود المعركة منه ، امتطى ظهر جواده ، ثم ظل يركض به ، وهو يداعب الفرسان الذين تعقبوه بسيوفهم ، فقد كان يتوقف ثم يطلق عليهم نيران مسدسه . . وبعدها كان يبتعد عنهم حتى يملأ مسدسه بالرصاص ، ثم يعود مرة أخرى لإطلاق الرصاص على الفرسان الانجليز . .

وكان جواد نورى باشا يساعده على سرعة الحركة ، فقد كان جوادا عربيا أصيلا ، وكان فى رأيى واحدا من أحسن وأقوى الجياد العربية التى شاهدتها فى حياتى . .

وفى مساء يوم المعركة .. عاد نورى باشا مرة أخرى ومعه من التق بهم من الجنود والبدو الى المنطقة التى دارت فيها الحرب ، واستطاع إنقاذ المدافع الرشاشة ..

كما قام بدفن جنوده الذين قتلوا أثناء المعارك ، وهم يطلقون المدافع الرشاشة على الجنود الانجليز ..

وهكذا أخذ معسكرنا كله يتحدث عن نورى باشا البطل الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصار كبير ..

* * *

وكانت مفاجأة عندما نادانى نورى باشا أمام الضابط والجنود ثم قال لى :

ـ لقد استحققت فى معركة العقاقير وسام الهلال الحديدى يا عبد الرحمن .. وأنا باسم الدولة العثمانية أعلن انى قد منحتك هذا الوسام ، وسأبعث إلى الأستانة فى طلب براءة هذا الوسام لتقديمه لك متى استطعت ذلك !

وحاولت أن أقول شيئا ، ولكنه أخذ يربت على كتنى وهو يقول لى :

ـ أنت ولد شجاع ..

وكان الشيخ يا سين .. وهو الذى هرب بفرسى الذى كنت أعول عليه كثيرا عندما وقع علينا هجوم قوات الانجليز ، حاضرا .. وقد استمع الى ثناء نورى باشا الذى وجهه الى ..

ولم يتمالك الرجل نفسه عند سمع ثناء نورى باشا على ، فتقدم ناحيتى معتذرا عما حدث منه .. ثم قال وهو فى اشد حالات الخجل :

ـ لم أكن أعرف ان الفرس تخصك ..

ثم استطرد يقول إنه تصورها فرسا شاردة ، وإنه لم يكن يدرى ما جرى لصاحبها ، وأنه لولاها لوقع أسيرا فى أيدى الانجليز ..

واختفى الشيخ يا سين عدة دقائق ، ثم عاد يقود الفرس ولما رآنى صاح أمام الضابط والجنود ..

ـ هذه فرسك يا عبد الرحمن أردها اليك فهى حقك ..

وسمعنا فى تلك الليلة أيضا قصة أخرى لواحد من المجاهدين العرب الابطال، وهو الشيخ حميدة أبو جبريل، فقد روى لنا بنفسه كيف انه أخذ يتعقب قوات العدو ومعه ستة من الفرسان العرب..

وكانت مناوشات.. ومعارك..

وعاد الشيخ حميدة أبو جبريل مع رجاله، ومعهم غنائم كثيرة من الخيول والاسلحة ومما عثروا عليه فى جيوب القتلى من جنود الانجليز..

لقد حملوا معهم كل ما استطاعوا أن يحملوه من غنائم، وكان من بينها دفاتر يوميات قوات العدو..

كما حملوا معهم أيضا بعض ما وجدوه فى جيوب القتلى من الأوراق الشخصية..

وكان بعضها يخص واحدا من الضباط الانجليز، وكان يرتبه البكباشى.. أى المقدم..

انى لا أذكر اسمه بالضبط.. وقد كشفت دفاتر اليوميات على أن القوات الانجليزية التى هاجمت قواتنا كانت تحت قيادته..

وكان هذا يعنى أننا نجحنا فى قتل أكبر رتبة خرجت للحرب ضدنا فى هذه المعركة..

ومع عودة الشيخ حميدة أبو جبريل تكاثرت فى السوق غنائم الحرب من الخيول والسلاح..

وكان أن اشتريت فرسا بسرجها وبطانيتين بجنيهين..

والواقع أن هذا الثمن كان بخسا للغاية، فقد كان أقل من المعقول..

والحقيقة اننا لم نكن نملك ما يكفى الجنود من الاكل..

وبالتالى.. لم يكن عندنا ما يمكن أن نقدمه للخيول..

وكان أن زهد المجاهدون فى الخيول، وكان فى رأى الكثير منهم أن الخيول الاسترالية لا يمكن أن تعيش طويلا فى ظروف الصحراء القاسية..

وانا نفسى عانيت كثيرا حتى يتسنى لى توفير الطعام للفرس التى اشتريتها، فقد كنت مضطرا لأن أرعاها بنفسى وأن أعنى بها حتى يئست تماما منها..

ولكن الفرس لم تبق طويلا فقد نفقت بعد شهر واحد بالقرب من مدينة طبرق ، أى على مسافة ١٥٠ كيلو مترا فى الغرب من الحدود المصرية . . !

* * *

كنا على ثقة باننا سنحقق النصر على الر غم من هزيمتنا ، وعودتنا من المعركة مجهدين وفى أشد حالات الفوضى والارهاق . .

ولم يكن عندنا فى المعسكر أى شعور بالخوف . .

وقد بادر نورى باشا بتوزيع دوريات الحراسة على مسافات من المعسكر فى اتجاه مدينة السلوم . .

وكان يبعث بين الآونة والاخرى بوحدات استكشافية لمراقبة تحركات العدو الذى كان قد استقر فى ناحية سيدى برانى . .

وبعد حوالى الاسبوعين عرف نورى باشا أن العدو يتحرك نحو السلوم ، فقرر أن نتقدم شرقا فى اتجاه منطقة يطلقون عليها اسم (الحلفاية) . .

كان يريد أن يلتحم بقوات العدو بعيدا عن السلوم التى أصر بعناد على الدفاع عنها . .

وفى بادىء الامر . . اعترض بعض الضباط الأتراك على خطة نورى باشا ، وكان فى رأيهم انها مجازفة جنونية ، وأن الاقدام عليها يعتبر انتحارا . .

واستحكم الخلاف بين نورى باشا ، والضباط الاتراك حتى إنه يئس منهم تماما . .

ولم يكن فى وسع نورى باشا أن يترك ضباطه لينضم الى قوات السيد أحمد الشريف السنوسى . . لأن الخلاف كان مستحكما بين الضباط الاتراك والسيد أحمد الشريف . .

وكان انضمام نورى الى السيد أحمد الشريف يمس كرامة الضباط الاتراك . . !

وكما يقول المثل . . ان المصائب تأتى بالجملة ، فقد أخذت الاحداث تتلاحق . .

وكان أن رفض العرب فى إقليم برقة الاشتراك مع نورى فى قتال جديد ضد الانجليز . .

قالوا . . انهم ضاقوا ذرعا بما كانوا يعانونه من شدة الجوع وارتفاع الأسعار ، كما أن

اغلاق سوق مدينة السلوم قد أضر بمصالحهم للغاية . .

وترددت بينهم أصوات تقول . . ان سبب المصـائب كلهـا يرجـع الى أن منطقتهـم قد تحولت الى ميدان للقتال !

وكان طبيعيا أن يتجـه تفكير هؤلاء البرقويين للبحث عن أسـلوب للتخلص من نورى باشا ، ومن كل الذين جاءوا معه ! !

الفصل السابع

منعت القائد التركى من الانتحار !

كان أولاد على ـ وهم من القبائل العربية التى تعيش فى صحراء مصر الغربية قد اشتركوا فى الكثير من المعارك التى خاضها نورى باشا وقد انضموا إليه فى معركة العقاقير إعتقادا منهم بأنه سينتصر على الإنجليز وأن هذا النصر ستتبعه بداية الزحف فى اتجاه وادى النيل..

فلما انهزمت قوات نورى ، رفض أولاد على أن يتركوا موطنهم.. أو أن يتزحزحوا عنه..

وعادت هذه القبائل فسلمت نفسها إلى الإنجليز فيا عدا بعض الأفراد القلائل ومنهم محمد بك أبو جبريل وأولاده ، والشيخ الجميعى عمدة الضبعة فى طريق الاسكندرية مرسى مطروح..

وعاش الرجل بعد معركة العقاقير على أمل واحد ، وهو أن تقوم الغواصات الألمانية بإسعافه ، وأن تمده بالمال والذخيرة باستمرار.

ولكن الغواصات الألمانية خيبت آماله فهى لم تحمل إليه أية معونة إقتصادية أو عسكرية إلا مرة واحدة على مدى ستة أشهر كاملة..

وحتى فى هذه المرة لم تحمل إليه الغواصات الألمانية الشىء الكثير ، وكل ما قامت به هو أنها أغرقت أمام شواطىء مدينة السلوم باخرة كانت تابعة لقوات خفر السواحل المصرية.. وباخرة إنجليزية..

ووقع الإنجليز الذين كانوا على ظهر الباخرة الإنجليزية أسرى ، وقامت الغواصات الألمانية بتسليمهم إلى نورى باشا..

وكان نورى باشا يعتبر هؤلاء الأسرى عبئا ثقيلا عليه ، فلم يكن فى وسعه توفير ما يكفيهم من أطعمة دون أن يحرم جنوده ونفسه من الطعام..

وهكذا أخذت المصائب تتلاحق على نورى باشا بالدرجة التى جعلته يفكر أكثر من مرة فى الانتحار فى إطلاق الرصاص على نفسه!

* * *

ولكن مجموعة المتطوعين المصريين التى تعمل تحت قيادته هى المجموعة الوحيدة التى كان يملؤها الحماس والإخلاص والرغبة فى متابعته حتى الموت..

وأذكر من هؤلاء المصريين ضابطا مصريا هو المرحوم اليوزباشى سيد احمد أبو شادى، وكان هذا الضابط المصرى يقول:

ـ اننا نعرف أننا سنخسر المعركة، ولكن السلوم هو آخر بلد عند حدود مصر، ولذلك فإننا نشعر أن لها حقا فى دمائنا ولذلك لن ننسحب منها من غير قتال بأى حال..

وكان نورى باشا يعرف أن المصريين يشجعونه بدوافع وطنية وعاطفية، بينما كان الضباط الأتراك يقفون منه دائما موقف الفتور..

وكان فى رأى هؤلاء الضباط الأتراك.. أن نورى باشا مندفع كثيرا فى قراراته وان من واجبهم أن يعملوا على فرملته عند اللزوم..

كان هو القائد المسئول عن الجبهة، وكان عليهم أن يتلقوا الأوامر منه.. وأن ينفذوها بلا مناقشة..

ولم ينتظر نورى باشا.. وقرر أن يتحرك بقواته..

وكان أن أصدر تعلياته بحشد القوات.. قال للضباط: إن أمامهم ساعتين للتحرك على رأس قطاعاتهم فى اتجاه منطقة اسمها «الحلفاية»

وكانت مفاجأة عندما لم يتحرك فى الموعد المحدد أكثر من ١٤٠ مسلحا..

تحركوا من غروب الشمس بقليل من منطقة هضبة السلوم.. وكان يبدو عليهم اليأس.. وخرجت معهم، وكان الظلام دامسا..

وكنت راكبا فرسا، وأحمل معى كمية من التمر وبطانيتين مربوطتين على السرج وكان سلاحى وراء ظهرى..

وتنازعنى عندما تحركت مع هذه القوة عاملان.. عامل يجذبنى الى الموت على أنه هو

الشهادة فى سبيل بلدى.. وعامل آخر كان يحذرنى من التضحية بنفسى وبشبابى بلا طائل.. وبلا فائدة..

وفى منتصف الليل عسكرت قواتنا فى مكان لا أذكر اسمه بالضبط..

وارسل نورى باشا إحدى الدوريات بقيادة ضابط اسمه تحسين لا كتشاف مواقع العدو التى كانت جميع التقارير تؤكد أنه قد تحرك للزحف فى اتجاه مدينة السلوم..

وقبيل الفجر عاد الضابط تحسين ليبلغ نورى باشا بأن قوات العدو تتحرك على مسافة عدة كيلو مترات من الموقع الذى كنا نعسكر فيه..

وقال.. ان فى اعتقاده أن هذه القوات المعادية يمكن ان تصل الى مكاننا فى الصباح..

وجاءت بعد ذلك تقارير أخرى تؤكد أن قوات العدو ليست بعيدة عن مكاننا.. وكان هذا يعنى أن علينا أن نستعد للدخول فى معركة مع قوات العدو..

ولفت انتباهى حالة القلق التى انتابت نورى باشا بعد أن تأكدت له هذه التقارير، فقد تغير وجهه، واستولت عليه الهموم بالدرجة التى جعلته عصبيا للغاية..

انه لم يكن يطيق حتى مجرد الكلام مع ضباطه.. ولكنى كنت الوحيد الذى استطاع أن يناقشه فى الموقف..

وأذكر أنه جاءنى اثنان من الضباط الاتراك وكان أحدهما اسمه امين بك.. والثانى اسمه غالب بك.. ثم قالا لى:

- ان نورى باشا يحبك ويثق فيك.. ونحن كضباط فى جيشه لا نستطيع أن نرده عما صمم عليه، وانت ترى كيف بادر عدد من جنودنا الى الفرار، وكل ما نخشاه أنه فى حالة ما اذا أصدر الينا أوامره بالاشتباك مع العدو فى الصباح، فلن نجد معنا الا عددا قليلا من الجنود، فهل يمكن أن تقنعه بأن يأمر قواتنا بالانسحاب حتى نتجنب وقوع مجزرة بين قواتنا ومثل هذه المجزرة لا يمكن أن تفيد الوطن..

قلت لهم: إننى سأبذل جهدى لإقناعه بوجهة نظرهم، ثم توجهت الى نورى باشا لمناقشته فى الموضوع..

ولم نكن فى تلك الليلة قد ذقنا طعاما للنوم ، الى جانب ما كنا قد قاسيناه من شدة البرد . .

وأذكر أننى بحثت عن خادمى فى الصباح ، فلم اجده ، ثم تبين لى . . أنه قد سرق واحدة من البطانيتين ، وبعض ما وجده فى خرجى من تمر ، وهرب . .

وكان هذا كافيا لأدرك ما صرنا إليه من انحطاط فى روح قواتنا المعنوية .

المهم . . ذهبت الى نورى باشا . . ثم أخذت أحادثه بلطف ، ولفت انتباهى أنه كان يستمع الى بينما كان ينكش بعصاه فى الرمال وهو لا يكاد ينظر الى . .

وكان نورى باشا قبل أن أتوجه اليه قد أصدر الاوامر الى القوة التى معنا حتى نستعد للقتال . .

كما كان قد قام بتحديد مواقع المدافع الرشاشة والمدفعية . .

وأثارنى حقيقة الموقف الذى كنا فيه . .

ان قواتنا لم تكن تزيد فى الواقع على مائة مقاتل من المشاة بعد أن هرب عدد من الجنود أثناء الليل . .

ولم يكن معنا أية قوة من السوارى ، إلا أولئك الذين كان نورى باشا يرسل بهم يمينا وشمالا للكشف عن مواقع العدو . .

ولا أذكر كيف استطعت أن أثير إنتباه نورى باشا بالدرجة التى جعلته يصغى إلى . .

قلت له . . كم ساعة تظن أن المعركة يمكن أن تستمر بيننا وبين العدو ؟ . .

قال ساخرا . . إنها لن تطول ، ويحتمل كثيرا أن نموت جميعا مع بداية المعركة أو أن تقوم قوات العدو بتطويقنا بعد أن نشتبك معها مدة قصيرة . .

ثم التفت ناحيتى وهو يقول :

عندى بعض الأخبار التى تقول أن قوات العدو تتحرك ومعها سيارات مصفحة فى إتجاه هضبة السلوم وإنها الآن فى طريقها للصعود إليها عن طريق الرابية . .

قلت له : إذن ما الفائدة من القتال ؟ . .

قال: هذه هى المعركة الأخيرة لقواتنا، وخير لنا أن نموت كراما وأسلحتنا فى أيدينا من أن ينهبنا الأعراب، وأن يشمت فينا زعماء السنوسيين..

وحاولت أن أقول شيئا، ولكن نورى باشا استطرد يقول لى وهو فى أشد حالات الإنفعال:

عندها سنلق هوانا لا حد له.. وقد ينتهى الأمر بوقوعنا أسرى فى أيدى الأعداء..

قلت له: إن هذا هو اليأس من رحمة الله.. إنك منذ وقت قريب قدرت شجاعتى وقد وثقت بى أنا الذى وهبت نفسى للموت عندما خرجت من مصر، وانا قد هيأت نفسى لذلك، ولذلك اذا أشرت عليك برأى فأرجو ألا تظنه نتيجة الرعب والخوف..

واعتدل نورى باشا فى مكانه: مما شجعنى لأن استطرد فى حديثى وانا اقول له:

- أنا نفسى قد فكرت فى موقفنا طويلا، والشىء الذى لا أريد أن أتصوره أن يعرض الانجليز أسلحتنا فى شوارع القاهرة.. وأنت معها..

ثم استطردت أقول له:

- ان كل ما أخشاه هو ان يقول الإنجليز.. هذه هى أسلحة الأتراك.. وهذا هو شقيق أنور باشا وزير الحربية التركية، وقد جئنا به أسيرا..

وانتفض نورى باشا فى مكانه، وخاصة عندما قلت له:

- أننى لا أستطيع أن أتصور مبلغ اليأس الذى يمكن أن يصيب المصريين نتيجة للعملية الإنتحارية التى تفكر فى القيام بها، وفى اعتقادى أنك بهذه النهاية تكون قد سددت إلى القضية التى تجاهد من أجلها طعنة قاتلة..

قال نورى باشا: لن يحملونى إلى القاهرة لأننى سأنتحر قبل أن أسقط فى أيدى الإنجليز..

قالها بعنجهية وكبرياء.. وكنت على يقين بأن الإنتحار هو ما كان يراود تفكيره فى تلك اللحظة..

ولم أيأس، وبادرت أقول له:

- إنك تخشى على نفسك الهوان فى داخل الأراضى الطرابلسية على أيدى الأعراب

وفى رأيى أننا إذا نجحنا فى الوصول إلى هناك سالمين ، فإن فى وسعنا أن نتدارك الموقف بإعادة تنظيم صفوفنا . .

كما قلت له :

ـ ألا يكون عندئذ أى أمل فى أن تتصل بنا الغواصات الألمانية مرة أخرى لتحمل المال والأسلحة التى نحتاج إليها فى دعم حركتنا ؟ . . أن عليك أن تفكر فى هذا الاحتمال البعيد وأن تضعه فى اعتبارك . .

وقلت له :

ـ إن الذى تعمله الآن لا يليق بقائد شجاع مثلك ، لا سيما أنك شقيق لبطل الإسلام أنور باشا الذى قاد الحرب فى منطقة برقة قبلك بعدة سنوات . . وكما تعرف لقد لاقى شقيقك فى هذه الحرب الكثير من الأهوال ، وكان صلبا قويا فى مواجهة كل ما صادفه من مكاره لا حد لها وقد خرج من الحرب بطلا بتاريخ حافل وآثار خالدة . .

وانتقض نورى باشا فى مكانه وادركت انى قد اصبت فى نفسه بعض التردد . .

والتفت ناحيته فرأيته تارة يحك جبهته بيده بقوة ، وتارة ينكش الارض بعصاه بعصبية . .

وفجأة قام من مكانه ، ثم اتجه ناحية أحد مواقع المدفعية ، ثم أخذ يتطلع اليها ، ثم ابتعد بسرعة . . وكنت فى تلك اللحظة أسير الى جواره محاولا تشجيعه على اتخاذ قرار خطير ضد إرادته . .

كان يريد أن يقود معركة أخيرة . . ثم ينتحر . .

وكنت من جانبى أحاول أن أهون عليه الامر حتى يعدل عن قراره . .

وتكلم الرجل وأخذ يقول لى :

ـ اسمع يا عبد الرحمن . . أنا أعرف أن الذى أوحى اليك بهذا الرأى هو إخلاصك ، ولكننى كاره لموقف الضباط الذين يعملون تحت قيادتى ، وكنت أتمنى أن أرى مصرعهم الواحد بعد الآخر ، وأنا مقتنع تماما بوجهة نظرك ، ولذلك اذهب اليهم وأخبرهم بالاستعداد للانسحاب قبل أن تدهمنا قوات العدو . .

ولم أنتظر . . وبادرت بابلاغ أوامر نورى باشا الجديدة للجميع . .

وكان أن أخذت قواتنا فى الاستعداد للتراجع ، وهى فى أشد حالات التعب والإجهاد من شدة الجوع وطول السهر ، حتى إذا ما تجمعت القوة كلها فى المعسكر أعد لنا بسرعة طبق من اللحم والأرز . .

وبعد أن التهمناه صدرت الينا الأوامر بالرحيل . .

ومع هذه الاوامر كلف نورى باشا أمين بك بأن يذهب مع قواته ليعسكر فى ناحية آبار سيدى عزيز وهى تبعد حوالى ٣٠ كيلو مترا فى الغرب من السلوم . .

وأخذ نورى باشا فريقا من جنوده ، وما تبقى معنا من أعراب قبائل أولاد على المصرية ثم اتجه الى مخازن الذخيرة حيث أمر بتجميل الجمال بما تستطيع حمله منها ، وما تبقى من هذه الذخائر قام بدفنه تحت الرمال . .

ولم يغادر المنطقة الا بعد أن أشعل النيران فى كل ما خلفناه وراءنا فى منطقة السلوم !

الفصل الثامن

عشنا عدة أشهر عند الشاطئ ننتظر الغواصات الألمانية

سرنا فى اتجاه الغرب فى طريق كان أنور باشا قد قام بتمهيده أثناء الحرب الايطالية التركية فى سنة ١٩١١ .. وهو الطريق الذى اشتهر فيما بعد باسم طريق أنور..

وكان علينا أن نتحرك طوال الليل حتى وصلنا إلى منطقة آبار سيدى عزيز لنقيم معسكرنا..

وكان الإنهاك باديا على نورى باشا بالدرجة التى جعلته ينام على الأرض العراء وفى الصباح أمر نورى باشا بنحر ناقتين ليأكلهما الجنود مع التمر الذى كانوا يحملونه..

وفجأة سمعنا أزيز طائرة معادية، وهى تحوم عدة مرات فوق المعسكر الذى أقمناه بسرعة..

ولما قفلت الطائرة راجعة التفت نورى باشا ناحيتى وهو يقول:

ـ لا استبعد أن يكون العدو قد عزم على تعقبنا فى هذه الأرض السهلة، بعد أن إحتلت قواته السلوم..

ثم أصدر تعليماته بأن نتحرك بسرعة..

واضطر الجنود إلى حمل ما وزع عليهم من لحم على أن يطبخوه فيما بعد..

وتحركت القوات حتى تبعد عن مكان الخطر..

وتخلف نورى باشا ومعه المرحوم الضابط المصرى أبو شادى.. والمرحوم محمد بك الجبالى من أعيان درنة فى طرابلس.. وانا.. على أن نلحق بقواتنا بعد أن نتناول طعامنا..

وبينما كان تابع نورى باشا يعد لنا طعامنا، لمحنا الغبار يرتفع الى أعلى فى الهواء..

وقفز نورى باشا من مكانه ، وهو يصيح :

انها خيول العدو . .

ثم التفت ناحيتى ، وهو يقول :

ـ اركب فرسك ، واتجه اليها لتكشف لنا عن الحقيقة . .

وبادرت بتنفيذ الامر الذى أصدره الى ، ولكنى ما كدت أتقدم قليلا حتى رأيت عددا من سيارات العدو المصفحة وهى تندفع بسرعة فى اتجاهنا . .

ولم أنتظر ، وبادرت بالعودة ، لأجد نورى باشا ومن معه ، وقد ركبوا خيولهم ، ثم اتجهوا بسرعة ناحية قافلة قواتنا التى كانت قد سبقتنا فى الانسحاب . .

وعندما لحقت بنورى باشا عند الجمال التى كانت تحمل المدفعية ، سمعته وهو يناقش ضابط المدفعية ـ وكان اسمه توفيق ـ بحدة . .

كان يأمر بانزال المدافع من فوق الجمال والاستعداد للقتال . .

وحاول الضابط أن يقول له شيئا ، فقد كان إنزال المدافع من فوق الجمال واعدادها للقتال يستلزم وقتا تكون فيه سيارات العدو قد وصلت الى مكاننا واستطاعت ان تجهز علينا جميعا بلا قتال . .

وكان هذا ما حدث بالضبط ، فبينما كان الجنود ينزلون المدافع انهال علينا رصاص المدافع الرشاشة من سيارات العدو المدرعة ، ففر الجميع ، ولم يكن فى وسعى إلا أن أهرب أنا أيضا مع الهاربين بينما كان الرصاص يلاحقنا وسيارات العدو المصفحة تطاردنا . .

واستطعت مع بعض الجنود أن نصل الى منطقة وعرة ساعدتنا كثبان الرمال فيها على الاختفاء بداخلها . . .

كنا نريد أن نتوارى عن عيون العدو . .

وبعد فترة من الوقت تمكنا من الخروج من منطقة نيران المدافع الرشاشة . . .

وكان علينا أن نسير فى اتجاه الغرب ، حتى وصلنا الى عين ماء لا اذكر اسمها الآن فنزلنا عندها . . .

وأرادت الصدفة الغريبة أن تصل أثناء الليل الى عين الماء قافلة كانت تحمل تمرا من الغرب، ولم تكن القافلة تدرى شيئا مما كان يدور فى المنطقة حولنا.. فأكل الجنود من تمر القافلة.

وعند الفجر اجتمع الجنود الذين وصلوا الى عين الماء أثناء الليل..

وحاولنا أن نعرف شيئا عن مصير نورى باشا، ولكن أخباره كانت قد انقطعت تماما..

وتصورنا أنه قد قتل فى المعركة...

ولم يكن فى وسعنا أن ننتظر طويلا عند عين الماء، ولذلك اعتبرنا كل من تخلف فى اللحاق بنا عند عين الماء، قد قتل، أو وقع أسيرا..

وبعدها تقرر أن نتحرك بسرعة فى اتجاه الغرب..

وآثار انتباهى أن طريقنا فى عملية الانسحاب الجديدة كان فى أرض قاحلة لا أثر للحياة فيها..

كانت خالية تماما من البدو الذين ينتشرون فى هذه المنطقة، وكانت خالية أيضا من الحيوانات الصحراوية، ولم يكن أمامنا الا ان نواصل السير غربا، حتى عثرنا على منطقة تنتشر فيها بعض اكواخ البدو...

وأسرعنا إلى هؤلاء البدو ونشترى منهم بعض الماشية..

كنا فى أشد حالات الجوع، وقد بادرنا بنحر هذه الماشية، ثم أخذنا فى طهى لحمها...

ولكن فجأة.. وقبل أن نتناول طعامنا، سمعنا صوت أحد البدو، وهو يصيح عند حافة الوادى:

- جاءتكم الكراهد..

وادركنا ما يعنى.. فقد كانت الكراهد هو الاسم الذى يطلقه الاعراب على العربات المصفحة..

وتصوروا حالة الفزع والرعب التى أصابت نفوسنا لدرجة أن كل واحد منا أخذ يجرى متجها إلى ناحية فرسه...

وأخذ الأعرابي يقهقه بأعلى صوته، ولم يلبث ان صاح بنا:

ـ لا تخافوا.. فقد كنت أمزح معكم..

ومما فهمته أن بعض البدو كانوا قد دبروا هذا المزاح السخيف حتى اذا ما أصابنا الفزع بادرنا بالهرب تاركين وراءنا الطعام حتى يأكلوه.. ولكن يبدو أنهم قد عدلوا فى آخر لحظة عن حيلتهم فأوعزوا الى البدوى ان يقول انه مجرد مزاح..

وهذه الحادثة على تفاهتها يمكن أن تكشف عن الحالة المعنوية السيئة التى وصلت إليها قواتنا...

أكلنا.. وبعدها واصلنا السير حتى بلغنا بعد يومين منطقة اشتهرت بإسم آبار عكرمة فى جنوب مدينة طبرق...

وفى هذه المنطقة سمعنا لأول مرة بنجاة نورى باشا...

كما عرفنا أن إخوننا الذين إتجهوا إلى الشرق وإلى الشمال، كانوا أحسن منا حظا لأن الذين ساروا فى ناحية الشرق أصبحت مواقعهم خلف سيارات العدو المصفحة، وبالتالى لم تتجه إليهم أنظار قوات الإنجليز..

أما الذين عبروا طريق السيارات وإتجهوا نحو الشمال، فقد صادفتهم بعض الأراضى الوعرة مما ساعد على عدم إكتشاف أمرهم، لأن مثل هذه الأراضى لا تستطيع السيارات المصفحة أن تتحرك فيها..

* * *

أقمنا معسكرنا فى منطقة «آبار عكرمة»، وفى اليوم التالى وصل إلينا اليوزباشى محمد فهمى المصرى، وكان فى حالة سيئة للغاية..

وروى لنا الرجل ما حدث له.. قال أن نورى باشا كان قد بعث به فى مهمة إلى السيد إدريس السنوسى فى أجدابية على مسيرة ثلاثين يوما فى الغرب من السلوم، إلا أن السيارات المصفحة الإنجليزية دهمته بينما كان يسير فى طريق أنور باشا متجها إلى الغرب...

واستطاع الضابط الشجاع، أن ينجو من السيارات الإنجليزية المصفحة بأعجوبة، ولكن بعد أن فقد كل ما كان معه من الإبل والخيول...

لقد اختبأ فى مكان حصين الى أن مرت به السيارات المصفحة فى اتجاه الغـرب ، وكان عددها حوالى المائتين من المدرعات وحاملات الجنود . . .

وكان واضحا أن هذا الحشد الانجليزى قد تحرك فى طـريقه إلى منطقـة حكيم لإطـلاق سراح الإنجليز الذين كنا نحتجزهم فى هذه المنطقة . . .

وفى آبار عكرمة عرفنا أن نورى باشا إستطاع أن ينقذ بعض مدافعه الرشـاشة ، وأنه تمكن من النجاة مع حوالى الخمسـين مقـاتلا من جنوده وقد ظلت السـيارات المصــفحة الإنجليزية تلاحقه حتى وصل إلى مكان إسمه السهل فى جبال دفنة غربى السلوم . . .

وفى هذا المكان قامت السـيارات بالهجـوم عليه مع جنوده ، إلا أنه اسـتطاع أن يحكم الدفاع عن المنطقة . . .

وتمكنت قواته من إصابة بعض السيارات المصفحة برصاص المدافع الرشاشة مما اضطر العدو أن يترك واحدة من هذه السيارات المعطلة على أرض المعركة ثم ينسحب . . .

وفى نفس الوقت جاءت أخبار أخرى تقول . . إن قوات العدو قد وصـلت إلى منطقـة حكيم بسياراتها المصفحة كما تنبأ اليوزباشى محمد فهمى المصرى ، وأنها وجـدت الأسرى فى حراسة خمسة أو سـتة من الجنود . وكانت معهـم عائلاتهـم ، فقـامت بقتل الجنود ، كما قتلت عددا من النساء والأطفال ، وبعدها أخرجت قوات العدو الأسرى وعادت بهـم إلى السلوم . . .

وأكدت هذه الأخبار أن الجنود الذين كانوا مكلفين بحـراسة الأسرى قد قاوموا حشـد السيارات المصفحة ببسالة ، وأنهم أصابوا قوات الإنجليز بخسائر فادحة ، مما كان سـببا فى عملية الإبادة بالجملة التى قام بها العدو وذهب ضحيتها الجنود الذين كانوا مكلفين بحراسة الأسرى وعائلاتهم من نساء وأطفال . . .

وكانت المذبحة رهيبة بحيث اضـطر بعض الضـباط الإنجليز ممن كانوا فى الاسر ـ كما سمعنا فيما بعد ـ لأن يبدوا أسفهم لما وقع . . .

وكان بعض هؤلاء الضـباط قد حـاولوا وقف المذبحة ، ولكن جهــودهم باءت بالفشل . . .

ولا أخــفى سرا . . إذا قلت . . أن هؤلاء الأسرى كانوا دائما مصــدر المتاعب لنورى

باشا ، وأنه قد عمل كل ما فى وسعه على توفير الطعام والراحة لهم ، ولما يئس بسبب قلة موارده وظروف قواته الصعبة ، أرسل أحد معاونيه الأتراك ، وكان اسمه برتا توفيق إلى مرسى مطروح لمفاوضة الإنجليز فى إرسال ما يلزم هؤلاء الأسرى من طعام ، ولكن مبعوث نورى باشا لم يعد إلا بعد قيام الإنجليز بالإفراج عن أسراهم بالقوة . .

* * *

وأخيرا وصل نورى باشا إلى طبرق . . وكان فى أشد حالات الضيق والهياج على الضباط الأتراك . .

وجاء بعض هؤلاء الضباط لمصافحته بالنجاة إلا أنه رفض أن يمد يده إليهم . .

وسمعت نورى باشا ، وكان يجلس فوق صندوق صغير من الخشب ، وهو يصف أمين بك والضباط الآخرين بألفاظ قاسية

كان يتهمهم بالجبن لأنهم تراجعوا إلى آبار عكرمة بالقرب من طبرق . .

ولما سألته : ماذا كنت تريدهم أن يفعلوا إذن ؟ . .

قال نورى باشا :

ـ كان عليهم أن يلتجئوا إلى منطقة سلسلة جبال دفنة فى غرب الحدود المصرية .

وتلفت ناحيته ، وأنا فى أشد حالات الدهشة ثم قلت له :

ـ وهل كان فى وسعهم أن يصمدوا فى هذه المنطقة ؟

قال الباشا التركى ، وهو يضرب الأرض برجليه بعنف :

ـ ان هذه المنطقة كانت تصلح لأن تصمد فيها قواتنا ضد العدو فترة أخرى من الوقت . . .

وسكت ولم أقل شيئا . .

وتصور نورى باشا أننى لم أقتنع بوجهة نظره فأخذ يصف لى تجربته عندما دهمته السيارات المصفحة الإنجليزية ، وهو يقول . . إنها الأرض الوعرة التى ساعدته على الوقوف فى وجه هذه السيارات المصفحة ، ومنها استطاعت مدافعه الرشاشة أن تصيب عددا من هذه السيارات بالعطب وأن تعرقل تقدمها . .

كان حديثا مثيرا ينم عن حنكة نورى باشا العسكرية ، وقد ظللت إلى جواره أتحدث معه حتى تمكنت من التخفيف من حدة ثورته . .

ولما هدأت ثورته أخرج خريطة صغيرة كانت فى جيبه ، ثم استدعى ضباطه الأتراك ، وأصدر إليهم تعلياته بإقامة مجموعة من النقط العسكرية فى المنطقة بين الحدود المصرية وطبرق . .

وبعد أن اطمأن على الموقف إصطحبنى معه لنتوجه إلى منطقة إسمها عيون جرابية ، وهى لا تبعد كثيرا عن منطقة السد عند الخليج البمبة ، فى المنطقة ما بين طبرق ودرنة على شاطىء البحر الأبيض . . .

وأدركت أن الأمل قد أخذ يراوده من جديد فى أن تعود الغواصات الألمانية للإتصال به . . .

* * *

كان نورى باشا يخرج فى كل يوم إلى شاطىء البحر وكنا نلوح بالرايات . . وأثناء الليل كنا نشعل نيرانا عالية على أمل أن ترى الغواصات الألمانية إشارات فتعاود الإتصال بنا . .

وتركزت آمالنا فى تلك الايام فى أن تعاود هذه الغواصات الإلمانية مدنا بالمال والذخائر والسلاح حتى نتمكن من إستئناف الحرب . .

وصحيح أن قواتنا كانت تنتشر على طول الشاطىء ، ولكن هذه القوات لم تكن تزيد على مائة ضابط وجندى . . .

ولم يكن الإنجليز يعرفون هذه الحقيقة ، فقد تصوروا أن قواتنا لا تزال متماسكة

وكان فى تقدير رجال مخابراتهم فى تلك الأيام . . أن قواتنا النظامية لا يمكن أن تقل عن ٥٠٠٠ مقاتل . . فضلا عن القوات الأخرى التى كانت تساندنا من متطوعين وبدو . . .

وكانت هذه التقديرات هى السبب فى توقف قواتهم عند السلوم وعدم محاولة التقدم لمطاردتنا . . .

وقد بقينا فى هذه المنطقة نحو أربعة أشهر كاملة وصلنا أثناءها إلى حالة مروعة من الفقر والجوع . .

وأنا نفسى كنت قد فقدت جملى بما يحمله من فراش وخيمة ولوازم أخرى فى منطقة سيدى عزيز...

كما ماتت فرسى الإسترالية بعد مغادرتنا لمنطقة عكرمة...

وكانت عندى فرس أخرى، ولكنها كانت مصابة بجرح كبير فى ظهرها، وقد ظلت تعانى من هذا الجرح فترة طويلة من الوقت...

ولم يكن عندنا شعير حتى تأكله، وكان أن هزلت هذه الفرس هزالا شديدا...

ولا أريد أن أقول.. أننى لم أكن أملك من الملابس سوى بنطلون (سوارى) كنت أرتديه ليلا ونهارا مع قميص من الكاكى...

أما ملابسى الداخلية، فلم يكن عندى سوى طاقم واحد منها.. وكنت أخلعها مرة كل عدة أيام لأغسلها بنفسى، وأصبحت عادتى أن أنتظر حتى تجف ثم أعود لارتديها من جديد حتى تمزقت وتهلهلت وأصبحت فى حالة يرثى لها..

وأكثر من ذلك كنت مفلسا تماما بعد أن نفد كل ما كنت أحمله من مال...

ولم يكن أمامى إلا أن أعيش على الجراية التى كانت تصرف لى فى كل يوم وكانت عبارة عن مقدار صغير من الأرز وقليل من الزيت والتمر..

وكان نورى باشا يقوم بنفسه بتوزيع هذه الجراية اليومية علينا مما كان يقترضه من تجار البدو وبعض شيوخ القبائل...

* * *

كانت أيام صعبة، ومع ذلك لم نشعر فى أى يوم منها باليأس والمهانة...

وبقينا نعيش على أمل أن يتم الاتصال بيننا وبين الغواصات الالمانية...

وأذكر أننا كنا نقضى أوقات النهار فى صيد السمك...

أما الليل فكنا نقضيه فى الضحك والسمر والتندر بالحالة التى أصبحنا عليها...

وكان نورى باشا يشجعنا، وهو يقول.. انه على يقين بأن الدولة العثمانية لن تنسانا..

وابتكرنا فى تلك الايام طريقة جديدة لزيادة محصول السمك الذى كنا نصطاده

باستخدام ديناميت القنابل ، فقد كنا نفرغ إحدى دانات المدافع مما فى داخلهـا من ديناميت ، ثم نقص هذا الديناميت ونقطعه الى أجزاء صغيرة وكنا نضع هذه الاجـزاء داخل كيس من القماش ومعها فتيل ، ثم نشد الكيس من جميع أطرافه شدا قويا بحبل متين حتى نجعل منه قنبلة . . .

وعند الشاطىء كنا نشعل الفتيل ثم نقذف بالقنبلة فى الماء حتى اذا ما انفجرت سارعنا بالسباحة نحو مكان انفجارها ، ثم أخذنا نجمع السمك الذى كان يموت بتأثير انفجار القنبلة فى أكياس كنا نحملها معنا . . .

وكثيرا ما كنا نرجع ومعنا كميات هائلة من السمك فنقضى الليل فى شوائه . . .

ومع نجاح عمليات صيد السمك بالديناميت ، بدأنا تجارب أخرى لصيد الغـزلان الصحراوية والارانب الجبلية . .

وكان نورى باشا ، وبعض الاعراب على جانب كبير من المهارة فى صيد هذه الارانب ولا أعتقد أنه قد فشل مرة واحدة عندما كان يخرج للصيد فى المناطق الصحراوية التى حولنا فى أن يعود لنا بنصيب منها . .

شىء واحد . . كان ينقصنا ولم ننجح فى توفيره . . هو الخبز . . .

لقد افتقدناه لفترات طويلة ، وكنا فى أشد حالات الاشتياق لتذوق طعمه ، وقد حدث عندما أصيب واحد من زملائنا الضباط المصريين الذين كانوا معنا . . بالحمى ، وهو المرحوم عبد الحليم حمدى ، أن أخذ يهذى باسم الخبز . . .

ولم يكن يطلب شيئا غيره !

الفصل التاسع

أخذ السنوسي الذهب والأسلحة وتركنا نموت من الجوع

دامت تلك الحالة عدة أشهر.. وانتهز الانجليز الفرصة، وقاموا بالاتصال بالسيد ادريس السنوسي، وكان قد تولى الاشراف على الاحوال فى منطقة برقة نيابة عن السيد أحمد الشريف السنوسي...

قالوا له انهم على استعداد لفتح اسواق السلوم للاعراب الطرابلسيين ولكن بشرط أن يعمل على إبعاد نورى باشا، والمقاتلين الذين معه من منطقة الحدود المصرية الليبية.

ووافق السيد السنوسى على تنفيذ رغبة الانجليز...

وكان أن بادر بالاتصال بنورى باشا...

بعث إليه بوفد يتكون من الشهيد عمر المختار وخالد الحمدى وابراهيم المصراتى..

وجاء هذا الوفد الينا ليطلب أعضاؤه من نورى باشا الرحيل للقاء السيد ادريس فى المنطقة التى كان يعيش فيها ناحية إجدابية..

وكان نورى باشا قد سمع من مصادره قبل وصول هذا الوفد الينا بعض الاخبار.. التى كانت تقول.. ان غواصة المانية قد ظهرت امام شاطىء منطقة اسمها العقيلة.. وهذه المنطقة تقع على مسيرة ٢٥ يوما فى المكان الذى كنا نعسكر فيه عند خليج البمبة وأن هذه الغواصة قد قامت بتسليم السيد ادريس السنوسى مبالغ طائلة قدرت بحوالى ٣٠ ألف ليرة عثمانية ذهبية فضلا عن نحو ٤٠ ألف جنيه من الورق البنكنوت هذا فضلا عن تسليمه أيضا نحو مائتى بندقية وكميات من الملابس والخيام..

وانتهز نورى باشا فرصة وصول الوفد الذى بعث به إليه السيد ادريس السنوسى ليستفسر منه عن هذه الغواصة.. ولم تكن مفاجأة عندما أكدوا له صحة الاخبار التى سمعها عن الغواصة الالمانية..
وكان هذا كافيا لأن يقرر نورى باشا تلبية دعوة السيد ادريس السنوسى...

كانت آماله كلها فى أن يعود الاتصال بينه وبين الدولة العثمانية . . .

وكان فى تصوره أنه سيتمكن من ضم السيد ادريس السنوسى الى صفه . .

ولم ينتظر نورى باشا وبادر باصطحابى معه ، كما اصطحب أيضا المرحوم محمد بك أبو جبريل حتى يساعده فى مهمته . . .

* * *

قررنا أن نسلك أقصر طريق إلى إجدابية وكان أن مررنا بمنطقة اسمها المخيلى . ثم قمنا بالسير فى طريق كانوا يطلقون عليه فى تلك الأيام اسم طريق العبد فى المنطقة التى تمتد فى جنوب الجبل الأخضر . . .

أنه طريق ليس فيه نبات أو ماء الا أنه اقصر بكثير من الطريق الساحلى وقد ظللنا نقطع الطريق يوما بعد يوم فى الأراضى الصحراوية التى كانت تمتد أمامنا دون أن تنتهى . . .

ومما يقال عن هذا الطريق . . أنه هو نفس الطريق الذى اتخذته القبائل العربية فى صدر الاسلام عندما قامت بفتح المغرب ، وأنها أى القبائل العربية كانت تسلك هذا الطريق كلما أرادت إمداد جيوشها بسرعة من مصر . . .

كما قيل إنه كانت توجد على امتداد هذا الطريق صهاريج كبيرة تحت الأرض لخزن مياه الأمطار على طول فصول السنة ، ولكن يبدو أن كميات المياه قد قلت فى بعض أنحاء هذه المنطقة ، كما أنها انعدمت تماما فى أنحاء أخرى ، بحيث أصبحت هذه المنطقة على ما رأيناها من جدب وقفر . . .

وبعد عدة أيام وصلنا إلى جوار إحدى الآبار . .

كان الحر شديدا ، فقد كنا على ما أذكر فى منتصف شهر أغسطس . .

ونزلت مع أحد الأعراب الى هذه البئر لنملأ ما فرغ من القرب التى كنا نحملها بالمياه . .

إن الماء هو حياة أى إنسان عندما يكون مسافرا فى الصحراء ، والعثور على بئر فى الطريق لا يدانيه بالنسبة لهذا الإنسان سوى عثوره على كنوز الأرض كلها . . .

وكنا قد استبشرنا عندما عثرنا على هذه البئر ، ولكن ما كدت أنزل إليها أنا وزميلى

الأعرابى ، حتى وجدنا مفاجأة مؤلمة فى انتظارنا . . .

رأينا جـديا ميتا فى مياه البئر وكانت تنبعث منه روائح كريهـة جعلتنا نعـاف الاقتراب من الماء . . .

والتفت زميلى الاعرابى ناحيتى ليسألنى عما يفعل . .

قلت له وأنا أشيح بوجهى عن منظر الجدى الميت :

ـ ليس أمامنا الا أن نملأ القرب بماء البئر . .

ثم طلبت اليه الا يخبر أحدا من رجال القافلة بما عثرنا عليه فى مياه البئر . . .

وكان فى رأيى أن نحتفظ بهذا الماء كاحتياطى لما كنا نحمله من ماء على الا نقربه إلا فى الضرورة القصوى ، وبعـد أن تفـرغ القـرب الأخـرى التى كنا قد ملأناها بالماء النظيف عندما بدأنا رحلتنا فى الصحراء . . .

ولا أذكر أن أحدا من رجال القافلة قد احتاج الماء الملوث ، فقـد مررنا ببئر أخـرى فى اليوم التالى ، وقد عملت أنا وزميلى الأعرابى على تفـريغ القـرب التى كانت تحمل الماء الملوث وبعد أن غسلناها جيدا قمنا بملئها بمياه البئر الجديدة

ولعل هذه القصة توحى بما كانت عليه حياتنا فى الصحراء فى تلك الأيام . . .

* * *

وبعد خمسـة عشر يوما من السير المتواصـل فى الصـحراء لاح لنا من بعيد معسكر إجدابية . .

كان فى سهل واسع يمتد تحت هضبة جبلية صغيرة . . .

وكان يتوسط المعسكر . . بيت كان السيد ادريس السنوسى قد قام ببنائه لنفسه . .

وكما يقضى العرف والتقاليد عند السنوسيين توقفنا على مسافة من المعسكر ، ثم أرسلنا مبعوثا يطلب الإذن لنا بالوصول الى المكان . . .

ومرت عدة سـاعات . . عاد المبعـوث يحمل إلينا الإذن بالدخـول الى المعسكر عند الغروب . .

وهناك خصص لنا بيت صغير مبنى من الطوب اللبن . .

كان بيتا متواضعا للغاية . . ولا أذكر أننى شاهدت فى المنطقة أكثر من ثلاثة أو أربعة بيوت صغيرة ، وكانت كلها مبنية من الطوب اللبن . .

وكان هناك أيضا عدة دكاكين والبيت الذى بناه السيد ادريس السنوسى ليعيش فيه . . .

وعلى امتداد السهل ، كانت تنتشر أكواخ البدو وخيامهم . . .

* * *

المهم . . توافد الأعراب من أتباع السيد إدريس السنوسى علينا لتحية نورى باشا والمرافقين له .

ولا أظن أن أحدا منهم كان يعرفنى فى تلك الأيام أو يعرف دورى ، إلى جوار نورى باشا . . .

كنت مجرد واحد من المجاهدين الذين جاءوا إلى ليبيا للقتال ضد الإنجليز . . .

أما نورى باشا ومحمد بك أبو جبريل فقد كانا معروفين فى مختلف أنحاء ليبيا . . .

وفى المساء أرسل إلينا السيد ادريس السنوسى مع جماعة من أتباعه وعاء كبيرا من الزنك ، وقد امتلأ بالأرز المطبوخ وبه كمية كبيرة من اللحم . .

وفى صباح اليوم التالى . . أذن السيد ادريس السنوسى لنورى باشا وحده بمقابلته . . .

أما نحن ، فقد ظللنا أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام حتى أذن لنا بزيارته . .

وشعرت بالألم والحزن بسبب تأخره فى الأذن لنا بمقابلته . . كنا ضيوفه ، ولم أكن أتصور أن نظل هكذا فى انتظار الأذن لنا بزيارته . . .

وكان فى رأيى . . أن فى ذلك تصغيرا من شأننا . . .

وحدث عندما استدعانا لمقابلته ، أن قام باستقبالنا ، وهو واقف على قدميه . . .

وكان السيد ادريس السنوسى فى تلك الأيام شابا بدينا ، وكان يبدو جميل الملامح أسمر اللون . . .

وفى بداية المقابلة تحدث الى المرحوم محمد بك أبو جبريل ، وبعدها اتجه بالحديث الى وهو يقول :

ـ كيف وجدت أجدابية يا عبد الرحمن ؟ . .

قلت له بسرعة :

وجدتها قفراء . . ويبدو لى أن اسمها قد اشتق من الجدب . . فلم يرد السيد ادريس السنوسى على !

وأدرك المرحوم محمد بك أبو جبريل ان إجابتى لم تلق ارتياحا عند السيد السنوسى وهو يضغط على شفتيه محاولا إسكاتى . .

ولكننى استطردت أقول للسيد السنوسى :

ـ لقد سمعنا يا سيدى عن جهاد السنوسيين وإخلاصهم لله ولبلادهم . . فجئنا من مصر متطوعين ، ونحن لا نطلب دنيا ، ولكى نموت فى سبيل الله . . .

وهنا قال السيد ادريس . .

ـ إننا نحن السنوسيين نحب مصر . . ونحب أهلها ونعتبرهم إخواننا ونحن نتمنى لمصر وشباب مصر كل الخير . . .

وسكت السيد ادريس عدة ثوان ، ثم رفع يديه ، وأخذ فى تلاوة الفاتحة . .

وأدركنا أن علينا أن نودعه ، ثم ننصرف ، لأن علامة الانصراف عند السنوسيين هى تلاوة الفاتحة . . .

وأذكر أنه دعانا فى تلك الليلة مع نورى باشا لتناول طعام العشاء فى بيته . .

وكانت وليمة امتلأت بالارز واللحم . .

وكان إكرام السيد إدريس لنا فى تلك الليلة يفوق الوصف ! . .

* * *

أخذ نورى باشا فى مفاوضة السيد ادريس فى مختلف الشئون . .

وكان حديثا طويلا حول الأموال والأسلحة التى تسلمها من الغواصة الألمانية . . .

وكان من رأى نورى باشا أن هذه الأموال والأسلحة تخص قواته وأنها مرسلة اليه من الدولة العثمانية . .

ولم يوافق السيد أدريس على هذا الرأى ورفض أن يسلم هذه الأموال والأسلحة الى نورى باشا . . ولكنه وافق بعد مناقشات طويلة على تسليمه ١٠٠٠ ليرة تركية من الورق حتى يتسنى له تسديد بعض ديوننا للتجار الذين كنا نتعامل معهم . .

وكان واضحا أن السيد ادريس قد استخدم هذه الأموال والأسلحة فى الضغط علينا لاجبارنا على الانسحاب من المنطقة التى كنا نعسكر فيها عند خليج البمبة . . .

كان يعرف أن قواتنا تعيش فى المنطقة التى كانت تحتلها وهى فى أشد حالات السوء . . .

كان الجنود فى حالة جوع ، ولكن البدو كانوا يعرفون فى نفس الوقت أن الدولة العثمانية لن تتخلى عن نورى باشا ، وأنها ستقوم بتزويده بكل ما كان يحتاج اليه أموال وذخائر ولذلك استمرت ثقتهم به . .

لقد التفوا حوله ، ولم يكن التجار يترددون فى التعامل معه بالأجل على أن يسدد فيما بعد . .

وأسفر السيد ادريس السنوسى عما كان يراود تفكيره بعد عدة أيام من وصولنا الى إجدابية عندما اقترح على نورى باشا أن يستدعى بقايا جنوده وضباطه للإقامه فى المنطقة المجاورة له . .

قال له . . إنهم سينزلون ضيوفا عليه ، وأنه على استعداد لأن يتكفل بتكاليف معيشتهم . . .

ووافق نورى باشا حتى ينقذ هؤلاء الجنود والضباط من حالة الجوع واليأس التى كانوا يعيشون فيها . . .

وفى تصورى أن السيد ادريس السنوسى كان قد تعهد للإنجليز أن يطلب من نورى باشا الرحيل مع من معه من جنود وضباط ومتطوعين عن الأراضى الطرابلسية ، إلا أنه تردد كثيرا فى تنفيذ تعهده للانجليز ، فقد كان فى نفس الوقت الذى يحاول فيه التفاهم مع الانجليز والايطاليين يعمل على مصالحة الاتراك . . .

ولعل السيد ادريس قد أدرك أن مجرد اقتراحه على نورى باشا بالرحيل مع جنوده وضباطه ، ومن كان معه من المتطوعين يمكن أن يصبح وصمة تسىء الى سمعته بين أتباعه وبين الأعراب الطرابلسية . . .

وبمعنى آخر . . وجد السيد ادريس السنوسى نفسه غير قادر على أن يقول لنورى باشا القائد التركى المسلم . . ارحل أنت ومن معك من المجاهدين فى سبيل الله عن أرض ليبيا العربية . . .

وكانت مشاعر البدو فى مختلف أنحاء ليبيا تمتلىء حقدا وكراهية للإيطاليين . . .

الا أنهم كانوا فى نفس الوقت لا يريدون أن يدخلوا فى خصومة مباشرة مع الانجليز . . .

ولكن الموقف تطور بعد أن أصبح الانجليز والايطاليون حلفاء فى الحرب العالمية . . .

ولم يكن فى وسع السيد ادريس السنوسى أن يتجاهل ما كان للدولة العثمانية من نفوذ كبير وسلطان معنوى على الشعب الليبيى . . .

* * *

كانت تركيا لا تريد فى تلك الأيام الا الحرب . .

ولا أظن أن رسالة واحدة وصلت من الاستانة الى ليبيا الا كانت تطالب بالحرب . .

ولكن البلاد كانت تعيش فى عوز شديد ، وكان الفقر يجعلها تقترب بسرعة من أبشع صور المجاعة . . .

ولا أريد أن أقول . . إننا كنا نشاهد الأعراب وهم يتحركون فى منطقة إجدابية أثناء النهار ، فكانوا يبدون أمام أنظارنا ، وكأنهم أشباح قد خرجت من قبورها فى أكفان بالية . .

وكان السيد ادريس فى أشد حالات الحيرة . . .

إنه لم يكن يعرف ما الذى يستطيع أن يفعله ، فقد كان بعض مستشاريه يدفعونه لمصالحة الانجليز والايطاليين والتخلى عن الاتراك . . .

وفى نفس الوقت كان يحذرونه من توجيه ضربة قاصمة للأتراك خوفا من إثارة غضب ابن عمه ورئيس عائلته السيد أحمد الشريف السنوسى . .

وكانت إحدى الغواصات الالمانية قد نقلت السيد أحمد الشريف الى تركيا للحصول

على مساعدات من العثمانيين، ولكنه بقى فى الاستانة ولم يعد إلى ليبيا !.

وبالتالى لم يكن فى وسعنا أن نحكم على السيد ادريس السنوسى.. إن كان معنا أو علينا...

* * *

المهم.. عمل نورى باشا باقتراح السيد ادريس، وكان أن أصدر تعليماته الى الضباط والجنود بالرحيل عن منطقة البمبة، والتحرك غربا للاستقرار فى منطقة إجدابية...

وعندما وصلت قواتنا الى هذه المنطقة أقيم لها على عجل معسكر فى أقصى جنوب المنطقة الساحلية حتى يصبح فى معزل عن أكواخ الأهالى...

وخصص أحد البيوت لإقامة نورى باشا وضباطه..

وكان هذا البيت الى جوار قبر يقولون إنه لسحنون صاحب الامام مالك...

الفصل العاشر

مباحثات سرية بين إدريس السنوسى والإنجليز

اشتدت المجاعة بين الناس فقد كانت الأراضى الطرابلسية محاصرة تماما ، فلم تكن طرق التجارة مفتوحة لا مع مصر من ناحية الشرق ، ولا مع تونس من ناحية الغرب ، فقد كان الانجليز يسيطرون على مصر ويراقبون الحدود الشرقية . . وكان الفرنسيون يسيطرون على تونس ويراقبون الحدود الغربية . .

وبمعنى آخر كانت الأراضى الطرابلسية تكاد تكون مطوقة . .

وكان الطريق البحرى غير مأمون ، نتيجة للحصار الذى كانت تفرضه السفن الحربية الإيطالية على الشواطىء الليبية . .

وتوقفت فى تلك الأيام القوافل التجارية التى كانت تربط ليبيا بأفريقيا والسودان عبر الصحراء .

وفكر نورى باشا فى حل لمشكلة هذه المجاعة . .

قال . . أنه لاحظ أن أحد النباتات التى تنمو فى الصحراء يعجب طعمه الأغنام وأن هذا النباتات يمكن استخدامه فى غذاء الآدميين بدلا من القمح والشعير . .

إنه نبات يطلق عليه الأعراب إسم (تراب الغنم) . . وهو ينتج بذورا هشة تتفتح إذا ما بللت بالماء . . وهى فى نفس الوقت بلا طعم ، أو مذاق وقد درج البدو على تغذية الأغنام بها لتسمينها . .

ولم ينتظر نورى باشا وبادر بإيفاد جماعة من الأعراب إلى منطقة قريبة من إجدابية لإحضار كمية منها .

وجاء الاعراب بالبذور لتقوم بطبخها ثم توزيعها على البدو بعد إضافة كمية قليلة من زيت الزيتون إليها . . !

وفى تلك الأيام بلغ ثمن أقة الأرز أكثر من ثلث جنيه ذهب . .

وقد درجت على الخروج وقت توزيع بذور تراب الغنم المطبوخة على البدو ، وأنا أحمل فى يدى كيسا ممتلئا بالنقود الصغيرة . . وكنت أعطى كل بائس قرشا مع كمية من البذور المطبوخة . .

ولكن ماذا يمكن أن يفيد مثل هذا القرش فى بلد تفشت فيه المجاعة بدرجة قاتلة ؟ .

لا شىء . . وقد تبين لنا مع مرور الأيام أن بذور (تراب الغنم) المطبوخة تنفخ البطون . .

ولم يكن أمامنا إلا أن نتوقف عن توزيع هذه البذور حتى لا يتعرض الأهالى للمضاعفات .

وقررنا الاكتفاء بتوزيع القروش عليهم . !

* * *

وطال انتظارنا ونحن نعانى أشد حالات الضيق والألم . .

إن آخر ما كنا نتصور هو الا تقوم الدولة العثمانية بأى اتصال معنا .

وطال انتظارنا ونحن نعانى أشد حالات الضيق والألم . .

وفى أحد الأيام جاءنا خبر كدنا نطير له . . من الفرح . . قالوا لنا . . إن غواصة ظهرت أمام منطقة البريقة ، وهى نفس المنطقة التى تفجر فيها أجود أنواع البترول الليبى منذ عدة سنوات . .

وكلفنى نورى باشا بالتوجه إلى شاطىء البحر عند هذه المنطقة لمحاولة الاتصال بهذه الغواصة . .

وعرف السيد إدريس السنوسى بهمتى ، فأصر على أن يوفد مبعوثا من عنده معى ، ورشح أحد رجاله وكان اسمه على العبيدى لهذه المهمة . .

المهم توجهت أنا والعبيدى الى منطقة الشاطىء التى قالت التقارير إن الغواصة قد ظهرت أمامها . .

ومرت عدة أيام دون أن تظهر الغواصة . .

ولاحظت أن على العبيدى يرسم مربعات على الرمال، وأنه كان فى كل يوم يضع نواة تمر داخل أحد هذه المربعات، وهو يقول:

ـ لن تأتى الغواصة اليوم!

إنها طريقة بدائية للتنبؤ عند الأعراب، ويطلقون عليها اسم «النافرة»..

وحدث فى اليوم السابع أو الثامن على ما أذكر أن وضع العبيدى نواة التمر فى أحد المربعات ثم قال:

ـ غدا تأتى الغواصة قطعا، وإلا كان ما يقوله الرمل كذبا فى كذب!

ومن الغريب أن الغواصة ظهرت فى اليوم التالى فعلا، وقد بادرنا بإشعال نيران عالية حتى تتعرف الغواصة على مكاننا، وبعد أن تبادلنا معها الاشارات الضوئية اطمأن قائدها إلينا واستقل أحد القوارب وجاء الينا عند الشاطىء..

كان من أشهر قواد الغواصات الالمان وكان على ما أذكر رجلا قصيرا، وكان صدره يمتلىء بالنياشين، واسمه «فورسمان»، وقد عرف أثناء الحرب العالمية الأولى باسم ذئب البحار لكثرة السفن الحربية والبواخر التى أغرقها بطوربيدات غواصته!!

المهم.. سرعان ما جاء نورى باشا الى الشاطىء حيث تسلم هو ورسول السيد ادريس السنوسى ما جاءت به الغواصة من نقود وأسلحة وغيرها مما كنا نحتاج إليه فى حياتنا فى قلب الصحراء..

وعندما رجعنا إلى اجدابية، والفرح يملأ نفوسنا كان خبر وصول الغواصة قد انتشر فى كل مكان..

ولا أريد أن أقول إن هذه الغواصة قد أعادت الينا الروح، فقد ارتفع شأننا فى أعين الأعراب والسنوسيين..

وقد بادر نورى باشا بالاتفاق مع السيد ادريس على إقامة نظام إدراى ثابت للمنطقة..

قال له: إنه قد حدد نقطة ثابتة للقاء مع الغواصات الالمانية عند شاطىء البحر..

واتفق معه على أن يقوم بالإنفاق على الادارة الجديدة مما تحمله الغواصات الألمانية إلينا..

ومع مرور الأيام استطعت أن أدعم علاقتى بالسيد ادريس السنوسى ، ولما كنت فى نفس الوقت موضع ثقة نورى باشا فقد أخذت ألعب دورى فى السياسة العامة كرسول لنورى باشا وناصح للسيد ادريس السنوسى !..

* * *

ولكن فجأة جاء إلينا أحد التقارير يقول : إنه وصل إلى منطقة الزويتية على شاطىء البحر وفد يضم عددا من الانجليز والإيطاليين .. وأن هذا الوفد يصطحب معه شابا مصريا اسمه أحمد حسنين أفندى .. وهو نفسه الذى أصبح فيما بعد أحمد حسنين باشا وعمل رئيسا للديوان الملكى فترة من الوقت ..

وقال نفس هذا التقرير إنه جاء مع هذا الوفد السيد محمد الشريف الإدريسى وابنه السيد الميرغنى ، وهما من أشراف الصعيد ، وينتميان فى نفس الوقت لعائلة الإدريسى الذى كان أميرا لمنطقة عسير بالحجاز فى تلك الأيام ..

وأثار وصول الوفد شكوكنا ، فإن أحدا منا لم يكن يعرف شيئا عنه ..

وإزدادت هذه الشكوك عندما عرفنا أن الانجليز والايطاليين قد بعثوا بهذا الوفد الى الزويتية بناء على اتفاق سرى بينهم وبين السيد ادريس نفسه ..

ولما كانت إجدابية تبعد عن شاطىء البحر مسيرة أربع أو خمس ساعات ، فقد انتقل اليها السيد ادريس السنوسى بنفسه !

* * *

واستمرت المفاوضات بين السيد إدريس وبين أعضاء هذا الوفد أياما طويلة ..

ويحتمل كثيرا أننا كنا نشعر بالقلق والانزعاج لما يمكن أن تنتهى إليه هذه المفاوضات الا أننا ظللنا على ثقتنا بالسيد ادريس ، وإن كان علينا فى نفس الوقت أن نكون على حذر من موقفه ..

وأثناء هذه المفاوضات سنحت لى الفرصة لزيارة الزويتية ..

وهناك التقيت بصديق أحمد حسنين رحمه الله وكانت تربطنى به صلة قديمة ..

كان مثلى فى ريعان الشباب ، وقد تحدثنا طويلا عن الحالة .. وكان هو الذى قام بتقديمى الى رئيس الوفد الانجليزى ..

إننى لا أذكر اسمه وإن كنت أذكر اسم رئيس الوفد الايطالى . . وكان اسمه الكولونيل ديفيت . .

ولما كنت أريد أن أتعرف على ما يجرى وراء كواليس هذه المفاوضات السرية ، فقد كنت أقضى ساعات طويلة فى كل يوم من الأيام التى قضيتها فى الزويتية فى السير على شاطىء البحر مع أعضاء البعثة الانجليزية . . أو مع صديق المرحوم أحمد حسنين (باشا) . .

* * *

وفى تلك الأيام كانت حالتى فى ظاهرها كحالة أى جندى من الجنود الذين كانوا يقيمون فى هذه المنطقة . .

الملابس من التيل الكاكى ، وليس لى هندام مقبول . . وكنت أشد حزاما حول وسطى ، وأحمل على كتفى بندقية ألمانية ، وكيسين معبأين بالرصاص . . وكنت أضع فى قدمى أحد نعال البدو ، بينما كان يتدلى من فوق رأسى قطعة من القماش الكاكى لتغطى قفاى من وهج أشعة الشمس ! !

هكذا كان مظهرى أشبه بقاطع طريق منى بجندى نظامى !

وفى أحد الأيام أخذ أحمد حسنين (باشا) يحدثنى بصراحة ، وكان على جانب كبير من الذكاء والكياسة . .

قال لى : إن الحالة التى أصبح عليها الموقف لا يمكن أن تنتهى وأنه يحسن بى أن أعود الى دراستى فى جامعة لندن . .

كما قال لى : إنه على استعداد لتذليل كل الصعاب أمامى . . وأن فى وسعة أن يحصل لى عفو من السلطات الانجليزية . .

ولم يعجبنى حديثه ، فبادرت أقول له :

ـ أنا خرجت من مصر لأموت أو أعود إليها كأحسن الفاتحين ، بعد أن نطرد الانجليز منها . .

قال الرجل ، وهو يكاد يصرخ فى أذنى :

ـ هذا هو المستحيل ، ولا فائدة من هذه المحاولات العقيمة !

قلت له بالحرف الواحد :

ـ لقد قاتلت قوة صغيرة منا قوات كبيرة من الانجليز ، ولو كان لنا فى تلك المعركة أربعة أو خمسة آلاف جندى مدربين بما يلزمهم من أسلحة وذخائر وتجهيزات لكنا قد انتصرنا ولأمكننا أن نزحف على القاهرة لتحريرها !

قال : أنت مغرور .. ولا فائدة من نصحك ..

ثم سكت رحمه الله .. ورفض أن يواصل معى الحديث .

ولكنى لم أكن مغرورا كما تصور فقد كان اعتقادى يقينا بأنه لو كان لنا أربعة أو خمسة آلاف جندى مزودون بالأسلحة والمهمات لأمكننا تحرير نيل مصر ..

وكانت آمالى لا تزال قوية فى أن تحمل الينا الغواصات كل ما يمكن أن نحتاج اليه من مهمات وذخائر لتجهيز قواتنا وتدريبها استعدادا للمعركة الفاصلة ضد قوات الانجليز التى تحتل بلادنا .

ولم أكن فى تلك اللحظة قد أدركت أننا قد بلغنا فعلا درجة من البؤس بحيث لم يكن فى وسعنا أن نصل الى منطقة الحدود المصرية مرة أخرى ؟

* * *

المهم .. طالت المفاوضات بين السيد إدريس والبريطانيين والايطاليين .. وكانت سرية جدا ..

وشعرت مع مرور الوقت بأن وجودى فى الزويتية غير مرغوب فيه ، وكان أن رجعت إلى إجدابية حيث قدمت لنورى باشا تقريرا عن ملاحظاتى حول هذه المفاوضات ..

وكان فى رأيى .. أن السيد ادريس يسعى الى ممالأة الانجليز والايطاليين ، وان كان يعيش بمشاعره وقلبه فى نفس الوقت معنا ..

ولم أكن أعرف فى تلك اللحظة أنه كان يسعى للقيام بنفس الدور الذى قام به الشريف حسين فى مكة فى نفس الأيام ضد الأتراك !

وكان هذا يعنى تطورا خطيرا فى اتجاهات السيد ادريس السنوسى !

وقد اتضح لنا هذا التطور تماما بعد رجوع الوفدين الانجليزى والايطالى الى بلديهما ،

فقد كان من السهل علينا أن ندرك أن التفاهم قد تم بين السيد ادريس والانجليز والايطاليين . .

وتكشف أول أثر لهذا التفاهم على أثر عودته الى اجدابية . فقد بادر باعداد قائمة بأسماء الملتفين حول نورى باشا من الضباط والأعيان وشيوخ القبائل للتخلص منهم . .

وأراد السيد ادريس أن يشتت هؤلاء الأعوان . فأخذ يكلف كلا منهم بمهمة بعيدة . .

وكلف نورى باشا فى نفس الوقت بالاشراف على إنشاء خط للتليفون بين اجدابية والمخيلى على أن يكون مقره على ما أذكر فى ناحية اسمها (بئر المداح) فى قلب الصحراء . .

وكنت أنا الوحيد الذى لم يسند اليه السيد ادريس أى مهمة . فقد أراد كما فهمت تكليفى بالأعمال الكتابية التى كان يحتاج اليها . .

ومع مرور الأيام تأكد لنا أن الانجليز والايطاليين كانوا وراء هذا التخطيط الذى بدأ السيد ادريس فى تنفيذه . .

وقيل . . إن الوفد الانجليزى كان قد طلب اليه المبادرة بالقبض على المتطوعين المصريين والعمل على تسليمهم الى السلطات الانجليزية فى السلوم . . ولكنه رفض . .

وكنت أنا نفسى واحدا من هؤلاء المصريين الذين أراد الانجليز القبض عليهم . . !

ومن الغريب . . أن السيد ادريس . قد تصور أنه يستطيع أن يغرر بنورى باشا . فقد أرسل اليه القائمة التى أعدها . وكان مكتوبا أمام اسم كل واحد منها المهمة التى أراد له أن يقوم بها . .

وعندما عرفنا بتلك القائمة كان وقعها علينا شديدا . .

ولم ننتظر وبادرنا بعقد اجتماع تبادلنا فيه الرأى . وبعدها قررنا عدم تنفيذ تعليمات السيد ادريس . .

وفى نفس الوقت أخذنا فى تحصين البيت الذى كان يسكن فيه نورى باشا مع ضباطه بعد أن أختزنا بداخله كميات كبيرة من الذخائر والمؤن استعدادا للمقاومة . .
وذهبت أثناء الليل لمقابلة السيد ادريس السنوسى . حيث أبلغته قرار نورى باشا .

ومن معه بالبقاء فى إجدابية .. وأوضحت له مخاوفى مما قد يسفر عنه هذا الموقف المفاجئ ..

وأثار انتباهى أن السيد ادريس لم يتصلب فى موقفه ..

قال : اذن نرجىء الموضوع . على أن يتم تنفيذ القرار على مراحل .. وبالتدريج ..

وأظن أن بعض زعماء قبائل القواقير الليبية كان لهم أثر فى تهدئة الموقف الذى تأزم فجأة بين نورى باشا وأعوانه من ناحية وبين السيد ادريس السنوسى من ناحية أخرى فى تلك الأيام .. !

* * *

بقينا على حالنا فى إجدابية ننتظر ما يمكن أن يفعله القدر بنا ..

وفى تلك الأيام انزلت غواصة ألمانية بارونا ألمانيا اسمه البارون فون تاودن مورد على شاطئ البحر .

وكان هذا البارون يصطحب معه ترجمانا ويحمل هدايا ثمينة من الامبراطور غليوم امبراطور ألمانيا إلى السيد ادريس وعائلته السنوسية ..

ولما وصل رسول الامبراطور إلى إجدابية التقى بنورى باشا وأخبره بأن الغواصة قامت بانزال الشيخ سليمان البارونى باشا عند شاطئ البحر فى مصراته ، وأنها انزلت معه بعض الأموال والذخائر ومدفعين من النوع الذى يمكن استخدامه فى الحرب ضد المصفحات !

والشيخ سليمان البارونى .. كان عضوا فى مجلس الأعيان العثمانى .. وكان فى نفس الوقت زعيما لطائفة الأباضية ..

ومع تقديم الهدايا إلى السيد ادريس ارتفع شأننا مرة أخرى .. وعادت العلاقات بين الدولة العثمانية والسيد ادريس ، وإن ظلت حالة المجاعة كما هى فقد كانت المبالغ التى جاءت بها الغواصة محدودة ، ولم تكن تكفى لانقاذ الحالة الاقتصادية فى البلاد ..

وفى نفس الوقت كانت أسعار السلع الضرورية قد ارتفعت بصورة خيالية لصعوبة الحصول عليها ولشدة الحصار الذى كان الانجليز والايطاليون والفرنسيون يفرضونه على أراضى ليبيا ..

وهذا الحصار هو الذى كان يهددنا دائما بالخطر !!

الفصل الحادى عشر

محطة لاسلكى ألمانية في جوف الصحراء !

وهنا يجب أن أقف قليلا أمام قصة الاستعمار البريطانى والايطالى فى ليبيا..

ان ايطاليا ظلت تمهد لغزو ليبيا منذ أواخر القرن التاسع عشر..

وكان أن أوفدت اليها مجموعة من البعثات التبشيرية التى بدأت بفتح المدارس المجانية وإقامة المستشفيات والملاجئ الصحية..

إنها لم تكن بعثات تبشيرية بالمعنى الصحيح بقدر ما كان عملها الأساسى هو دراسة الأرض ورسم الخرائط استعدادا للغزو..

وفى سنة ١٩٠٥ أنشأت ايطاليا فى ليبيا فرعا لبنك روما..

وكانت مهمة هذا البنك أن يقوم باغتصاب الأراضى الزراعية بنفس الأساليب التى كانت البنوك الأجنبية تستخدمها فى مصر لاغتصاب الأراضى الزراعية..

كان عليه أن يقرض أصحاب الأراضى.. ثم يسلب هذه الأراضى منهم..

وفى نفس الوقت أخذت الصحافة الإيطالية تمهد للغزو المسلح بالتحدث عن أهمية مشروعات الإصلاح فى ليبيا بعد فشل الادارة العثمانية..

وكانت تتحدث عن أهمية استغلال ثروة ليبيا المعدنية والزراعية..

وتأثر الشعب الإيطالى بما كانت تنشره الصحف الايطالية عن ليبيا، بحيث أصبح الايطاليون ينظرون إليها على أنها أرض الميعاد..

وتغنى الشعراء الايطاليون بجمال ليبيا، وانتشرت فى تلك الأيام أغنية (تريبو ليتانيا بيلا) أى (طرابلس الجميلة)..

وأخذت ايطاليا فى نفس الوقت تمهد لغزو ليبيا بالتقرب إلى فرنسا..

وكان ان اعترفت ايطاليا رسميا فى سنة ١٨٩٦ بالحماية الفرنسية على تونس..

وأهم من ذلك عقدت ايطاليا مع فرنسا معاهدة لتنظيم الملاحة التجارية فى البحر الأبيض ، ثم عقدت معها معاهدة أخرى فى سنة ١٩٠٠ توافق فيها فرنسا على اطلاق يد ايطاليا فى ليبيا . .

وهذه المعاهدة جددت فى سنة ١٩٠٢ . .

وأدركت الدولة العثمانية الخطر الذى يهدد ليبيا ، فبادرت بتعزيز قواتها فى ليبيا إلا أنها ما لبثت أن سحبت بعض هذه القوات لاستخدامها فى قمع الثورة التى نشبت فى تلك الأيام فى اليمن . .

ومرت عدة سنوات ، ثم أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ ، وكانت حجتها أن تركيا تقوم بتعزيز قواتها فى ليبيا . .

ولما كانت القوات العثمانية الموجودة فى ليبيا فى تلك الأيام تعانى من الوهن والضعف وعدم الاستعداد للحرب ، فقد وقع عبء مقاومة الغزاة الايطاليين على الشعب الليبى وحده . .

وكانت معارك حامية خسر فيها الايطاليون الآلاف من جنودهم ، حتى إذا ما اندلعت الحرب البلقانية ـ التى تركت دراستى فى لندن لأشارك المجاهدين المسلمين القتال فيها ـ اضطرت تركيا لأن تعقد صلحها المشهور مع ايطاليا . . وتم توقيع اتفاقية ذلك الصلح فى (أوشى) فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٢ . .

وكان هذا الصلح بمثابة تسليم ليبيا من الدولة العثمانية إلى الايطاليين ، وان كان الأتراك قد اعترفوا فى اتفاقية الصلح باستقلال الشعب الليبى استقلالا داخليا . . وبحقهم فى تعيين نائب للسلطان فى ليبيا على أن تكون مدة تعيينه خمس سنوات ، وأن يتقاضى راتبه ، هو ومن معه من موظفين من خزانة ليبيا .

وحقهم أيضا فى تعيين قاض شرعى على أن يتقاضى راتبه من خزانة الدولة التركية فى استانبول !

* * *

والثابت تاريخيا أيضا أن أنور باشا وزير الحربية العثمانية ، قد قام على أثر توقيع هذه الاتفاقية بزيارة السيد أحمد الشريف السنوسى ، فى واحة جغبوب التى كان يقيم فيها وأنه قد حمل اليه رسالة من السلطان العثمانى يسند فيها أمر الأمة الليبية اليه . .

وعرفت ايطاليا بزيارة أنور باشا فأخذت تتحرك بسرعة . وكان أن أصدر ملك ايطاليا منشورا لأهل ليبيا يؤكد لهم خضوعهم التام للسيادة الايطالية . ويعدهم فيه بالمحافظة على الشعائر الدينية مع السماح لهم بالدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة باعتباره خليفة للمسلمين فى تلك الأيام . .

ورد شعب ليبيا على منشور ملك ايطاليا باعلان الجهاد والحرب على الايطاليين !.

وكانت معارك أبلى فيها المجاهدون بلاء حسنا ، وهم يذودون عن أرض وطنهم . .

وأصيب الايطاليون بخسائر فادحة ، بحيث أخذت ايطاليا تسعى للسلام . .

وكان أن لجأت إلى بعض أصدقاء السيد أحمد الشريف السنوسى لاقناعه بالصلح

ومن هؤلاء الخديو عباس حلمى الذى أوفد فى سنة ١٩١٣ مبعوثا خاصا للسيد أحمد الشريف السنوسى فى الجبل الأخضر للتوسط بينه وبين الايطاليين . .

ولم تفلح تلك الوساطة فى عقد الصلح بين المجاهدين الليبيين وايطاليا . .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى أرادت تركيا وألمانيا أن تفتحا جبهة غربية فى الأراضى الليبية لتخفيف الضغط على الجبهة الشرقية فى سيناء ، على أثر قيام القوات التركية بمهاجمة قناة السويس . . وكان ان كتب أنور باشا وزير الحربية العثمانية رسالة إلى السيد أحمد الشريف السنوسى يطلب اليه فيها أن تقوم قوات المجاهدين الليبيين بمناوشة الانجليز فى السلوم . . وابلغه ان شقيقه (نورى باشا) قد اسندت اليه قيادة هذه الجبهة الغربية الجديدة .

والثابت تاريخيا . . ان السيد أحمد الشريف السنوسى لم يكن موافقا على مواجهة قوات الانجليز ، الا أن معارضته لم تسمر طويلا على أثر احتلال قوات المجاهدين الليبيين لمدينتى السلوم ومرسى مطروح فى سنة ١٩١٥ .

ومما سمعته فى تلك الأيام . . أن السلطات الانجليزية طلبت إلى السلطان حسين كامل ان يتوسط لدى السيد أحمد الشريف السنوسى لاقناعه بعدم التورط فى مشروعات الأتراك والألمان ، وأن يطلب إليه التزام الحياد . .

وتنفيذا لرغبة السلطات الانجليزية ، أوفد السلطان حسين وفدا خاصا إلى ليبيا يحمل ثلاث رسائل إلى السيد أحمد الشريف السنوسى . . وكانت واحدة منها من السلطان

حسين كامل .. وكانت الثانية من مكماهون .. أما الثالثة فكانت من الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال البريطانى فى مصر ..

وفى تلك الأيام كانت ليبيا كلها تلتف حول السيد أحمد الشريف السنوسى نائب السلطان العثمانى بمقتضى الفرمان السلطانى الذى حمله اليه (أنور باشا) وزير الحربية العثمانية عندما قام بزيارته فى جغبوب ..

ولا أريد أن أقول انى وصلت إلى ليبيا فى تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ الصراع بين القوى العالمية التى جرفها الصدام فى الحرب العالمية الأولى ..

وكانت مفاجأة عندما قرر السيد أحمد الشريف السنوسى أن يعتزل ليخلفه ابن أخيه السيد ادريس السنوسى ..

وعلى أثر اعتزاله قامت غواصة المانية بحمله من شواطئ ليبيا إلى الآستانة ليعيش فى ضيافة الدولة العثمانية .

وعندما اتخذ السيد ادريس السنوسى اجدابية مقرا له كان أول ما فعله هو أن طلب من نورى باشا مغادرة البلاد ..

وأرادت الدولة العثمانية أن تدعم مركزها فى ليبيا ، فقامت فى أواخر سنة ١٩١٦ بتعيين سليمان البارونى عضو مجلس الأعيان العثمانى واليا وقومندانا لليبيا .. وكان العثمانيون يطلقون عليها اسم ولايات طرابلس الغرب ..

* * *

المهم .. سافر أحمد الشريف السنوسى إلى الآستانة ليعيش فيها وترك وراءه واحدا من أشقائه ، وهو السيد هلال السنوسى ..

كان رجلا من خيرة المجاهدين ، وكان هو الذى حمل المترددين من السنوسية على اجتياز الحدود المصرية لمحاربة الانجليز ..

وعندما استقر بنا الحال فى اجدابية التى اتخذها السيد ادريس السنوسى مركزا له ، لم يدخر السيد هلال السنوسى جهدا فى مساندتنا والوقوف إلى جانبنا ..

وكانت تربط الرجل صلة نسب ببيت اسمه (القبار) .. وهو واحد من البيوت الكبيرة فى قبيلة (القواقير) التى اشتهرت بضراوتها وقوة نفوذها فى المنطقة حول اجدابية ..

واستطاع الرجل بنفوذه أن يجذب هذه القبيلة للوقوف إلى جانبنا فى مواجهة المؤامرات التى كنا نتعرض لها فى كل يوم..

وعرف السيد ادريس السنوسى بموقفه معنا فعمل على إبعاده عن اجدابية..

وكان ان كلفه بمهمة فى واحدة (جالو) فى أقصى جنوب الصحراء الليبية وطلب اليه أن يقيم فيها..

وأراد الرجل اكرامى عند سفره، فأهدانى حصانه..

كان حصانا أحمر اللون، وقد أعجبت به كثيرا، ولكننى لم ألبث أن شعرت بأن هذا الحصان قد أصبح حملا ثقيلا على..

كنت عاجزا تماما عن إطعامه..

ولم يكن فى وسعى فى نفس الوقت أن أتخلص منه باعتباره هدية من السيد هلال السنوسى شقيق السيد أحمد الشريف السنوسى..

ولم ينقذنى من ورطتى.. سوى مهمة كلفت بها للسفر مع البارون الألمانى إلى واحة جالو للبحث عن مكان مناسب لإقامة محطة لاسلكية المانية فى قلب الصحراء..

وكانت مهمتى.. أن أرافق البارون الألمانى فى هذه الرحلة وأن أساعده فى التفاهم مع شيوخ القبائل وأعيانها فى المنطقة..

وكانت فرصة مناسبة لى حتى أتخلى من الجواد الذى لم يكن فى وسعى التخلص منه..

* * *

أعددنا بسرعة قافلة من الجمال لحمل زادنا وأمتعتنا وقرب الماء..

وجاء برفقتنا ترجمان البارون الذى أنزلته معه الغواصة الألمانية.. وكان كما فهمت شابا مسلما من مواليد جزيرة كريت..

وأذكر أننا بدأنا رحلتنا من إجدابية عند غروب الشمس..

وتصور البارون.. أننا سنواصل رحلتنا طوال الليل.. ولذلك كم كانت دهشته عندما أمرت بتوقف القافلة بعد نصف ساعة من سيرها للمبيت على مقربة من المنطقة التى تحركنا من عندها..

ولما سألنى عن السبب فى توقف القافلة عن السير، أفهمته أنها عادة البدو.. وخاصة إذا كانوا فى سفر طويل..

قلت له : انهم يعملون دائما على أن تكون أولى مراحل الرحلة قصيرة حتى يتسنى لهم المبيت فى مكان قريب ليتذكر كل واحد منهم بطريقة عملية ما قد يكون قد نسى حمله وليسهل عليهم تدارك ما فاتهم، وهم على مقربة من أهاليهم.. ثم يصبحوا مبكرين ليتسأنفوا رحلتهم الطويلة..

ويطلق البدو على أول محطة للمبيت.. اسم (التنجيزة) !

ولا أعرف لماذا لم يعجب هذا التفسير البارون الألمانى..

أخذ يتبرم وهو يقول.. ان فى ذلك مضيعة للوقت..

وتحركنا فى ساعة مبكرة من الصباح.. واستمر سيرنا حتى الظهر، وعندما أمرت بتوقف القافلة.. ازداد تبرمه..

وكانت المنطقة تمتلئ بالكلأ.. وكانت فرصة مناسبة لأن نطلق الابل حتى ترعى.

وقد بقينا فى مكاننا حتى إذا ما اقتربت الشمس من الغروب، أمرت برفع أحمالنا ومواصلة الرحلة أثناء الليل..

وبعد قليل صادفنا شيئًا من الكلأ فنزلنا مرة أخرى حيث أطلقنا الابل لترعى وكان علينا أن نمضى الليلة فى هذه المنطقة، وبعدها واصلنا رحلتنا حتى وصلنا إلى بئر يطلقون عليها اسم بئر (الحسيات) وهذه البئر ماؤها مالح، وان كانت تصلح لسق الابل..

وهكذا ظللنا نسير تارة، ونحط تارة أخرى واضعين فى اعتبارنا مصلحة الابل قبل كل شئ..

وكنت أرى علامات التبرم والغيظ على ملامح البارون كلما وجدنا نتوقف أثناء الرحلة، فكنت أبتسم ولا أقول شيئًا..

وأخذت شكوى البارون تتزايد من سيرنا بغير نظام وبلا مواعيد محددة.. أى بلا جدول زمنى ثابت لمراحل التوقف والسير فى الرحلة..

وتصور البارون أننى سبب هذه الفوضى فأخذ يلاحقنى بنظراته، وهو فى أشد حالات الغيظ..

وحدث عندما وصلنا إلى بئر أخرى اسمها بئر الرسم وهى بئر أشد ملوحة من بئر الحسيات أن فقد البارون سيطرته على أعصابه بمجرد أن سمعنى أصدر التعليمات بتوقف القافلة عند البئر . .

قال لى بعجرفة متناهية . . انه يرفض الانصياع لتعليماتى . . وطلب عدم توقف القافلة إلا فى ساعة معينة . . لا أذكرها بالضبط . .

وحاولت اقناع البارون ، ولكنه أصر على رأيه ، ورفض أن يقتنع . .

ولم يكن فى وسعى إلا أن أطاوعه على رأيه . . حتى إذا ما حان الموعد الذى أصر عليه تطلعت إليه . . وأنا أقول له . . للأسف لا يصلح هذا المكان لكى ترعى فيه الحيوانات !

وحاولت إفهامه خطأ تفكيره ، ولكنه كان متعجرفا للغاية . وقد فوجئت به يقول لى :

ـ أنا قومندان هذه القافلة ، وعليك أن تتبع أوامرى . .

وطبعا لم أعبأ له . . وان كنت قد قلت له :

ـ اسمع . . لو كنت أريد أن أخضع لأمثالك لما رأيتنى فى هذه الحال ، وما كنت أثور على الانجليز فى القاهرة لأطيعك أنت فى هذه الصحراء الجرداء ، وقد جردت نفسى من كل شئ إلا عزة نفسى !

ولا أظن أننى تفوهت معه بعد ذلك بكلمة واحدة لمدة يومين كاملين !

* * *

وأثارت أحاديث البدو الذين كانوا معنا انتباهى . . فقد كانوا يتطلعون إلى ما كان يمكن أن يوزعه عليهم البارون الألمانى من هدايا وهبات وكان من السهل عليهم أن يعرفوا مدى جهله بأحوال الصحراء بينما كنت على العكس منه أبدو شديد العطف عليهم وعلى الابل . .

كنت أعرف ان الجمل عند البدو حيوان مقدس ومحبوب . . وأثناء الرحلة رأيت أكثر من مرة صاحب أحد الجمال ، وهو ينزل ابنه الصغير من فوق الجمل ، ويقول له !

ـ سر على قدميك . أليس هذا الحيوان من لحم ودم !

وكانت الجمال مستأجرة من أصحابها الذين جاءوا معنا لقيادتها ، فلما وثقت من

طـاعتهم لى ، تركت البارون على ما كان عليه من عنجهية ، وكان يركب فوق هجينه ، ويتقدم القافلة بعدة مئات من الأمتار . . وعندما وصلنا إلى منطقة تنتشر فيها المراعى التى تثير لعاب الحيوان وأصحابه ، أمرت بتوقف القافلة والنزول فى الأرض . .

ونظر البارون خلفه ليجد أننا قد حططنا رحالنا ، وأخـذنا نشـعل النار لاعداد الطعـام بينما كانت الابل ترعى فى المنطقة التى حولنا . .

ولم يتمالك البارون نفسه ، فثار وأزبد ، ثم أرسل ترجمانه الينا ليأمرنا باستئناف السير . .

والتف البدو حولى ليسألونى رأيى . فقلت لهم :

ـ انى أتحمل كل المسئولية أمام السيد ادريس السـنوسى . . أما هذا الرجـل الرومى ، فهو لا يعرف شيئا عن طبيعة الحياة فى الصحراء . .

والرومى . . هو الاسم الذى كان البدو يطلقـونه على أى أجنبى يصـادفونه مهما كانت جنسيته . .

ولما عاد الترجمان إلى البارون ليخبره باصرارنا على التوقف فى تلك المنطقـة التى تنتشر فيها المراعى ، غضب جدا ، ورجع إلينا ساخطا . .

وكان صبرى أنا أيضا قد نفد ، فلم أتمالك نفسى ، وبادرت أقول له :

ـ يجب أن تعرف تماما انك فى هذه الرحلة تحت إمرتى . . إن المسألة ليس فيهـا كسـل أو فوضى كما تتصور . . ولكننى وحدى الذى استطيع أن أقدر ما يمكن عمله . .

ولما قام مترجمه بنقل كلامى اليه حاول أن يقول شيئا ، وكان فى أشـد حـالات الهياج ، ولم انتظر وبادرت أقول له :

ـ إذا كنت تريد سـلامتك فى هذه الرحلة فعليك أن تخضـع لأوامرى حـتى نعـود من رحلتنا . .

واضطر البارون إلى السكوت على مضض !

* * *

هدأت العـاصفة بين البارون وبينى فترة من الوقت ، وان بقيت على اصرارى فى نفس الوقت على تلقينه درسا لا ينساه حتى يخفف من عنجهيته .

وقد ظللت أتحين الفرصة حتى وصلت القافلة إلى منطقة يطلقون عليها اسم (بئر مرق) .. وكنا قد سرنا لمدة خمسة أيام من إجدابية فى قفر مجدب ـ معطش ..

وكان الصيف شديد الحر ..

ومع وصولنا إلى تلك المنطقة استطلعت رأى البدو ..

قلت لهم : ماذا لو سرنا شطرا من النهار والليل كله ، وبعض اليوم التالى فى رحلة واحدة حتى نصل إلى واحة (أوجله) ..

وهذه الواحة يعرفها الأعراب ويطلقون عليها اسم (الجنة) ، فقد اشتهرت بالظلال والمياه العذبة ، وبالتمر الوفير ..

وأخذت أشوق البدو الذين يسوقون الابل وأنا أشحذ عزيمتهم حتى وافقوا على رأيى ..

كانت مباراة بينى وبين البارون المتعجرف ..

وكنت أريده أن يعرف اننى استطيع الاستمرار فى ركوب الابل طول هذه المسافة وهو لا يستطيع ذلك ..

وأذكر أننا تناولنا عشاءنا فى منطقة (بئر مرق) وبعدها تحركنا لنسير معظم الليل ، ولم يكن البارون يدرى ما يدور فى خاطرى ..

وعند أواخر الليل نزلنا قليلا ، وبعدها استأنفنا التحرك بالقافلة طول الليل حتى صباح اليوم التالى ..

وقبل الظهر وصلنا إلى واحة (أوجلة) .. فلما حططنا رحالنا تلفت ناحية البارون لأراه فى حالة يرثى لها من شدة التعب والاجهاد ..

ولا أريد أن أقول .. اننى رثيت لحاله عندما أخبرنى الترجمان بأن فخذى البارون قد أصيبتنا بالتسلخ من طول ركوبه فوق الهجين

وانتهزت الفرصة وتوجهت إلى البارون لأقول له وأنا ابتسم :

ـ إن أحوال الصحراء غريبة ، فهى التى تنفذ إرادتها ، ولا سبيل للناس فى تحكيم ارادتهم فيها . فهم مضطرون أن ينزلوا حيث يوجد الماء والكلأ ، وأن يشدوا رحالهم

وينهكوا أنفسهم، حيث تقسو عليهم الطبيعة..

وتهالك الرجل فى مكانه.. وكان واضحا أنه قد بدأ يستسلم لقدره..

وانتهزت الفرصة، وقمت بتسلق نخلة كانت إلى جوارنا..

كان التمر يتدلى منها مما يثير اللعاب لالتهامه..

وقد قمت باقتطاف كمية من هذا التمر، ثم قدمته إلى البارون كهدية متواضعة فى قلب الصحراء.

وتغيرت أسارير الرجل وهو يتقبل هديتى.. ثم أعطانى بعض السجائر الفاخرة..

وكان الصلح بينى وبين البارون!

* * *

وواحة أوجلة تقع فى قلب الأراضى الصحراوية الجرداء التى تمتد حولها إلى مسافات طويلة..

وينتمى سكان هذه الواحة إلى بقايا سلالات الشعوب البربرية القديمة التى كانت تقطن شمال أفريقيا..

وكما يقولون.. لم تجد هذه السلالات البربرية القديمة مكانا تعيش فيه سواء فى برقة كلها.. أو فى الأرض التى تمتد من حدود مصر حتى منطقة فزان.. أى لمسيرة أكثر من شهرين، الا فى هذه الواحة..

ولا يزال أهل هذه الواحة يحتفظون بتقاليد وعادات البربر القديمة.. كما أنهم يحتفظون حتى الآن برطانة البربر المنقرضة!

* * *

ويوجد فى هذه الواحة قبر الصحابى المشهور سيدنا عبدالله بن سعد بن أبى سرح الذى كان واليا على مصر وما بعدها غربا فى عهد سيدنا عثمان ابن عفان.

أو هذا ما يقوله على الأقل الأعراب فى برقه وأهالى الواحة..

وانتهزت الفرصة، وقمت بزيارة قبر الصحابى المشهور، وقرأت الفاتحة على روحه..

وقد شاهدت عند القبر لوحة كان مكتوبا عليها شئ من تاريخه ..

ولما سألت عن هذه اللوحة ، قالوا لى .. ان الذى وضعها أمام القبر هو العالم المشهور السيد محمد على السنوسى ..

* * *

المهم .. وصلنا أخيرا إلى جالو ، وهى واحة كبيرة ينتسب سكانها إلى قبيلة سليم ..

وقد اشتهر أهالى هذه الواحة بالتجارة بين الشرق والغرب عبر الصحراء الغربية ، ولهم خبرة كبيرة بمسالك هذه الصحراء الشاسعة الأطراف ..

وفى هذه الواحة يكثر النخيل والفواكه وآبار المياه العذبة ..

وعند وصولنا إلى الواحة قام المرحوم السيد هلال السنوسى باستقبالنا بالترحاب ..

وكان هو الذى استضافنا ، وقد قضينا معه عدة أيام ..

وتنقلنا بين أطراف الواحة ليختار البارون فون تاودن مكانا لمحطة اللاسلكى التى طلب الألمان اقامتها فى جوف الصحراء !

الفصل الثاني عشر

.. واندلعت الثورة في طرابلس الغرب

تصورت أن العلاقات بيني وبين البارون الألماني قد تحسنت .. ولم اكن أعرف بعد نجاحنا أنه لا يزال يضمر في نفسه توجسا مني ..

ولا أعتقد أن احتكاكا قد وقع بيني وبينه أثناء رحلة عودتنا إلى اجدابية .. الا أن العلاقة بيننا ظلت في تقديري علاقة بين عقلين مختلفين كل الاختلاف ..

كنت في نظره أمثل الفوضى والهمجية ..

وكان هو من وجهة نظري يمثل الاسراف في اتباع النظام ، والاصرار على تطبيقه بطريقة عسكرية ، وبلا أدنى روية أو تفكير ..

وقد انتظر البارون حتى وصلنا إلى اجدابية ، ثم شكا إلى نوري باشا .. مما أطلق عليه اسم .. سوء معاملتي له ..

قال له .. انني كنت أعامله بقسوة ، وعدم احترام ..

واقترح على نوري باشا معاقبتي ..

واخبرني نوري باشا بشكوى البارون ، فأفهمته كيف أنه لم يستطع فهم ظروف البادية ، كما قلت له .. انه رجل متعجرف للغاية ، وأنه لم يستطع أن يدرك أنني لا أدين بالطاعة لأحد غير خالق ..

وضحك نوري باشا .. واعتبر الموضوع منتهيا ..

وذهب البارون أيضا إلى السيد ادريس السنوسي وشكاني اليه ..

ودعاني السيد ادريس لمقابلته ، فلما ذهبت اليه أخذ يظهر اسفه لسوء معاملتي للبارون الألماني ، ثم طلب إلي أن اعتذر له عن هذه المعاملة ..

ولم أوافق طبعا ، ورددت على السيد ادريس بقولي :

- ياسيدي .. لاأستطيع أن أتصور ، وقد وهبت نفسي للموت ، وقبلت أسوأ أنواع

الحياة ، أننى سأعتذر فى يوم ما لأوربى فى الصحراء .. وأنا أفضل أن اسلم نفسى لاعدائى الانجليز أو الايطاليين على أن اعتذر أو أهان هنا من أجل مثل هذا الرجل ..

فلما رأى السيد ادريس أن لا سبيل الى أرضاء الرجل عن طريق ، أهمل الموضوع تماما ..

وبقى البارون فى أجدابية عدة أسابيع فقد كان عليه أن يرسل رسالة من السيد ادريس السنوسى إلى ألمانيا بواسطة إحدى الغواصات .

وأخذ السيد ادريس يستعد فى نفس الوقت للسفر إلى منطقة الحدود المصرية للاشتراك فى اجتماع آخر مع الوفدين الانجليزى والايطالى ..

وأثار ما سمعناه عن اتصالاته المرتقبة مع هذين الوفدين دهشتنا .. فقد كان يتأهب لاستئناف مفاوضاته مع الانجليز والايطاليين .. فى الوقت الذى كان يستضيف فيه البارون الألمانى الذى حمل اليه هدايا الامبراطور غليوم .

وفى تلك الأيام كان النفوذ الحقيق للسنوسيين يمتد من الحدود المصرية شرقا الى منطقة اسمها « المقطاع » غربا .. وكانت أراضى هذه المنطقة تكاد تكون فاصلا طبيعيا بين سكان منطقة طرابلس الغرب وسكان منطقة برقة ..

وكان أهل منطقة طرابلس الغرب المنتشرون من غرب منطقة المقطاع حتى حدود تونس ضد السنوسية ، وان كان من بينهم بعض القبائل والمناطق التى ظلت تدين لهم بالولاء والطاعة .

* * *

ولكن فجأة ، وبينما السيد ادريس يستعد لرحلته الى منطقة الحدود المصرية ، أن أخذ الموقف يضطرب فى غرب برقة .. وفى المنطقة حول سرت .

وشبت ثورة سنة ١٩١٥ فى طرابلس ..

واستطاع الثوار العرب مع اندلاع هذه الثورة أن يسيطروا على مساحات شاسعة من الأراضى ..

وكانت الأخبار تتوافد علينا فى كل يوم ، لتقول إن كميات هائلة من البنادق والمدافع قد ذهبت إلى أيدى هؤلاء الثوار العرب .. وأن آلاف الأسرى من الإيطاليين ، قد وقعوا فى أيديهم ..

وكان هذا يعنى .. أن هؤلاء الثوار العرب قد أصبحوا أقوياء وقادرين على ضرب الايطاليين ، والانتصار عليهم .

وعلى العكس . . كانت قبائل برقة والجبل الاخضر ومنطقة الحدود الشرقية المتاخمة لحدود مصر ، قد انهكتها الحروب الطويلة ضد الانجليز والايطاليين . .

ومع هذه الثورة . . ظهر فى كل ركن من أركان طرابلس زعيم عربى يشار اليه بالبنان . .

وحدث أن اختلف هؤلاء الزعماء فيما بينهم . .

وكان أن امتدت يد كل منهم إلى مناطق نفوذ غيره . .

وفى تلك الايام . وكان للسيد أحمد الشريف السنوسى قوات فى طرابلس يقودها شقيقه السيد صفى الدين السنوسى فادعى هو أيضا الملك لنفسه . .

وكان الصدام بينه وبين رمضان السويحلى زعيم مصراته الذى لعب دورا هاما فيما بعد فى تاريخ منطقة طرابلس الغرب . .

واستطاع رمضان السويحلى ، أن يتغلب عليه وأن يسيطر على المنطقة الساحلية من الخمس الى سرت . .

واضطر السيد صفى الدين السنوسى لأن يخرج من البلاد . .

وفى مصراته قام رمضان السويحلى بشنق بعض السنوسيين . .

وكان ذلك هو السبب فى الصدام الذى وقع بينه وبين عشائر طرهونة التى كانت تميل الى السنوسيين . .

وفى منطقة الحدود التونسية . اشتركت قبائل الزنتان والرحبان والربانية والمحاميد فى النزاع . .

* * *

كانت هذه الاخبار تصل الينا فى أجدابية ، فنشد شعر رءوسنا من الغيظ والألم . .

وكان فى رأيى أن هذه الثورة التى اندلعت فى غرب طرابلس ، لا يمكن أن تفيدنا فى معركتنا ضد الانجليز . .

وتصورت يومها أن من واجبنا أن نعمل على توحيد الصفوف بين الثورة عندنا . . والثورة فى منطقة طرابلس الغرب . .

ولكن المنطقة كلها تحولت الى حرب أهلية ، فقد أخذ الزعماء يحارب بعضهم البعض . . وكان عليهم أن يحاربوا الايطاليين فى نفس الوقت . .

وتصور السيد إدريس ـ وأنا على يقين من أن هذا ما كان يراود فكره فى تلك الأيام ـ

أنه بعقد هدنة بينه وبين الانجليز والايطاليين، يستطيع أن ينتقم من أعدائه فى غرب طرابلس..

وكان أن أرسل قوة من الجنود والبدو تحت قيادة مجموعة من الرجال الذين اشتهروا بالبسالة المتناهية، وأذكر منهم عبد العاطى البرم وابراهيم الفيل، وصالح لطبوشى وغيرهم..

وكانت مهمة هذه القوة احتلال مدينة سرت واخضاعها لنفوذ السيد ادريس..

وحدث أن تحركت هذه القوة لتنفيذ مهمتها فى نفس الوقت الذى عادت فيه نفس الغواصة التى حملت البارون الألمانى إلينا، لينزل منها الشيخ سليمان البارونى باشا، أمام شواطىء مصراته..

وكان الرجل يحمل كما سبق أن أشرت، نقودا وأسلحة وذخائر..

كما كان يحمل أيضا مدفعين من النوع الذى يستخدم فى الحرب ضد المصفحات..

وقالت الأخبار.. إن سليمان البارونى باشا قد استقبل فى مصراته استقبالا حافلا..

وانتهز رمضان السويحلى الفرصة ليرفع الراية العثمانية على البلاد التى كانت واقعة تحت نفوذه..

ولما عرف بما اتجهت اليه نية السيد ادريس السنوسى لاحتلال « سرت » قام بحشد اتباعه لمحاربة السنوسيين..

وفى نفس الوقت تسلم من البارونى باشا ما حمله معه من مدافع وذخائر، وزود بها جيشه..

ولم يتمالك السيد ادريس السنوسى نفسه عندما عرف بهذه الأخبار فى أجدابية فأخذ يحتج لدى نورى باشا على تدخل الدولة العثمانية وانضمامها الى خصوم السنوسيين..

وكان السيد ادريس يعتبر الشيخ سليمان البارونى خصما شخصيا له فقد سبق أن اعتقله لمدة سنة فى ناحية السلوم، وقام بابعاده اليها!

* * *

وأصبح موقفنا حرجا للغاية فى ذلك الوقت فقد كنا نعيش فى كنف السيد ادريس السنوسى فى أجدابية، وكنا نعمل فى نفس الوقت لمصلحة الدولة العثمانية..

وكان السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسية نفسه يعش فى تلك الأيام فى الاستانة بعد أن حملته اليها احدى الغواصات الالمانية..

وفى اعتقادى أن السيد ادريس السنوسى قد أخذ ينظر الى موقف الدولة العثمانية

بالريبة والشك ، فقد كان آخر ما يتصوره أن يكون رسولها الى منطقة غرب طرابلس هو ألد أعدائه الشيخ سليمان البارونى نفسه . .

وكما عرفت فيما بعد كان نورى باشا قد أرسل تقريرا سريا الى وزارة الحربية العثمانية ، حملته الى الاستانة واحدة من الغواصات الالمانية . .

وفى هذا التقرير أفهم وزارة الحربية العثمانية صراحة بما كان يراوده من شكوك حول موقف السنوسيين ، وعن مخاوفه من أن يعقدوا الصلح بينهم وبين الانجليز . . وبينهم وبين الايطاليين أيضا . .

ولا أريد ان أقول ان نورى باشا كان هو صاحب فكرة تقوية منطقة طرابلس الغرب لتكون مركزا لحركتنا بدلا من المناطق الشرقية التى كانت واقعة تحت نفوذ السيد ادريس السنوسى !

وبالتالى . . لم نندهش كثيرا عندما عرفنا بنزول الشيخ سليمان البارونى عند شواطىء مدينة مصراته !

وعندما نشبت الحرب بين رمضان السويحلى والسنوسيين كان علينا ان نفعل شيئا . .

وكان أن ذهبت الى السيد ادريس اقترح عليه أن يتجه نورى باشا الى الغرب ليتوسط فى وقف القتال بين رمضان السويحلى والسنوسيين .

قلت له . . ان هدفنا جميعا واحد . . وهو الجهاد فى سبيل الله . . وواجب علينا أن نضع حدا لهذه الحرب ، وخاصة أن جميع الاطراف فيها يدينون بالصداقة والولاء للدولة العثمانية . .

ووافق السيد ادريس على اقتراحى ، وهو يقول لى :

- إن نورى باشا هو خير رجل ليقوم بهذه الوساطة . .

وبعث فى نفس الوقت الى قواده فى ناحية سرت يأمرهم بتلق نصح نورى باشا وإرشاداته .

* * *

كان السيد ادريس على موعد مع الوفدين البريطانى والايطالى . . ولكن تدهور الموقف فى منطقة سرت ، والحرب بين قواته وبين قوات رمضان السويحلى اضطرته لأن يؤجل تحديد موقفه بالضبط .

وفى رأيى أنه لم يقبل هذه الوساطة الا سعيا وراء تهدئة الموقف فى الغرب . . كما كان يعمل هو نفسه فى سبيل تهدئته فى ناحية الشرق . . وكان فى تصوره أن تهدئة الموقف فى

الجبهتين الشرقية والغربية يمكن أن يمنحه فسحة من الوقت لتحديد الاتجاه الذى يمكن أن يسير فيه..

وفى رأيى أنه كان على استعداد للتحالف مع الشيطان نفسه من أجل إنقاذ نفسه وجماعة السنوسيين من أتباعه..

ومن هنا كان ترحيبه باقتراحى أن يقوم نورى باشا بالوساطة بينه وبين رمضان السويحلى كبيرا فقد كان يريد تهدئة الموقف فى منطقة سرت بأى ثمن!..

* * *

قرر نورى باشا إصطحابى معه فى مهمته الجديدة كما وقع اختياره على ضابط تركى اسمه عاكف بك وعدد من الاعراب والخدم..

وقد بادرنا باعداد قافلة صغيرة تحركت بنا فى سهول برقة البيضاء حتى وصلنا الى منطقة يطلقون عليها اسم الفارغ.. إنها منطقة يقولون إنها كانت مجرى نهر قديم جفت مياهه منذ عدة قرون، ولذلك أطلقوا عليها هذا الاسم.

وفى هذه المنطقة، اقمنا خيمتنا الصغيرة ثم جمعنا كومة من الحطب، وأشعلنا النار فيها..

كان ذلك فى أواخر الخريف، وأوائل الشتاء فى عام ١٩١٦، ولن انسى فى حياتى ماحدث فى تلك الليلة، فما كدنا نوقد النار، ونبدأ فى تهيئة الطعام حتى فوجئنا بالسيول، وهى تندفع فى اتجاهنا من كل الاتجاهات.. وغمرت المياه متاعنا، فاسرعنا الى نقله الى مكان آخر بسرعة..

وأخذت الامطار تهطل علينا بغزارة..

وهكذا قضينا ليلتنا، ونحن نحتال لتجفيف الحطب وابقاء النار مشتعلة تحت الخيمة..

وفى آخر الليل صفت السماء، فبادرت بحفر حفرة مستطيلة فى الأرض ثم أوقدت بداخلها نارا لتدفىء الحفرة، وبعدها أزحت النار، ثم لففت نفسى ببطانيتين ورقدت فى هذه الحفرة، حتى أيقظنى البرد القارس..

ولم يكن رفقائى أحسن حالا منى، ولذلك ما كادت الشمس تشرق حتى بادرنا بالرحيل فى طريقنا الى سرت..

وأثناء رحلتنا مررنا بموقع على شاطىء البحر.. كان يمتلىء بالماء العذب وبه أشجار كثيرة..

أننى لا أذكر اسمه.. وأظنه «سلطان»..

وصلنا الى سرت لننزل ضيوفا على قواد القوة السنوسية . .

كانوا جميعا من اصدقائنا ومعارفنا . .

وكنت أنا نفسى أعرف ميولهم ، وأعرف مدى كراهيتهم للصلح مع الايطاليين . .

قالوا لنا . . انهم قد حققوا انتصارات مبينة فى المعارك التى دارت بينهم وبين قبائل الغرب . .

ولما سألنا عن قوات رمضان السويحلى قالوا إنها اضطرت للانسحاب الى ناحية اسمها « الهيشة » على مسيرة ثلاثة ايام فى الشمال الغربى من سرت !

ولم يكن أمامنا الا أن نطلب الى هؤلاء القواد أن يلزموا مواقعهم فى سرت ، وأن يكفوا عن الهجوم حتى يتسنى لنا الاتصال بالجانب الآخر ، وعقد الصلح بين الطرفين . .

وبعدها تحركنا فى طريقنا الى معسكر قوات رمضان السويحلى . . وكم كان حزنى شديدا وأنا أشاهد آثار الحرب بين المسلمين على طول الطريق . .

كانت جثث القتلى مبعثرة فى كل مكان ، وقد نهشتها الحيوانات . .

وأمسكت رأسى بيدى وأنا أصيح :

ـ لماذا يارب هذا كله ، وقد كان المسلمون من قبل صفا واحدا وهم يقاتلون الايطاليين على نفس الأرض ! . .

* * *

وصلنا الى منطقة « الهيشة » التى انسحبت اليها قوات رمضان السويحلى بعد انهزامها عند سرت . .

كان يقودها ضابط ليبى إسمه اليوزباشى السيد حسن . .

وهذا الضابط تربى فى الأستانة حيث التحق بالجيش العثمانى ، ثم عاد الى بلاده ليحارب الايطاليين . .

وعرف الضابط بمهمتنا فرحب بنا ، وكان استقباله لنورى باشا بالغ الحفاوة . .

وقام نورى باشا باقناعه ، بأن يلزم مكانه حتى يتسنى لنا مقابلة زعيمه رمضان السويحلى ، والاتفاق معه على عقد الهدنة بينه وبين السنوسيين !

* * *

تركنا « الهيشة » فى اتجاه مصراته . .

وكان هجينى قد أصيب بهزال شديد وكان أن اخذ يتلكأ فى سيره ، ولذلك سبقنى

نورى باشا فى دخول مدينة مصراته بعدة ساعات . .

ولما لحقت به وجدته يتمشى على الرصيف أمام أحد المنازل ، وكانت الدموع تملأ عينيه . .

ولما سألته عما حدث ؟ . . قال لى وهو فى أشد حالات الضيق والتبرم :

- هؤلاء الناس قد أهانونى . . وهذا الرجل الذى يسير خلفنا هو وكيل رمضان السويحلى فى هذه البلاد . . تصور أنه يقول أننا نقيم عند السنوسيين ، وأننا جئنا لنفسد على أهل مصراته أمرهم ، ولننشر الدسائس فى بلادهم ! . .

وأدركت أن مهمتنا ستبوء بالفشل !



■ صورة نادرة للمرحوم عبد الرحمن عزام وهو يقف فوق برج الغواصة الألمانية التي حملته من شاطىء ليبيا إلى إيطاليا قبل أن يواصل رحلته إلى فيينا، ومنها إلى إستانبول .. ويظهر معه في الصورة قائد الغواصة الألمانية، ومجموعة من الضباط الأتراك الذين رافقوه في رحلته بالغواصة الألمانية..

الفصـل الثـالث عشـر

رجل الصحراء لا يعرف المشي على الخشب الباركيه . !

كان على نورى باشا أن يلتقى مع رمضان السويحلى للتفاهم معه على عقد الصلح بينه وبين السنوسيين ، وكان أن اضطررنا أكثر من مرة للتوجه اليه عند الحدود التونسية . .

ومرضت فى تلك الأيام بالملاريا ، وهزلت لكثرة اسفارى معه . .

وكان أن اقترح نورى باشا على أن أسافر للعلاج فى فيينا ، على أن أتوجه بعد ذلك الى الاستانة لأشرح تفاصيل الموقف بنفسى لشقيقه أنور باشا ، ولوزارة الحربية العثمانية . .

ورحبت بالفكرة ، فقد خطر ببالى ، أننى قد استطيع الالتحاق بالجيش المقاتل فى سوريا تحت قيادة جمال باشا ضد الانجليز . .

كان هذا هو هدفى الاساسى الذى هربت من مصر لتحقيقه ، ولم يكن خروجى للحرب ضد الايطاليين الا محاولة عارضة للتعبير عما كان يملأ نفسى من كراهية وحقد ضد قوى الاستعمار والمستعمرين . .

وأعد نورى باشا ترتيبات سفرى بسرعة على غواصة ألمانية اسمها « بولا » وقد حملتنى هذه الغواصة من أمام شواطىء مصراته فى شهر أغسطس ١٩١٧ الى النمسا . .

وقد بقيت فى فيينا حتى تماثلت للشفاء ثم سافرت إلى الاستانة . .

وهكذا وصلت الى تركيا ، وكان معى خطاب من نورى باشا يقدمنى فيه إلى جمال باشا . . وكان رأيى قد استقر على الالتحاق بجيش الشام . .

وكان جمال باشا فى دمشق فانتظرته فى الأستانة حتى عاد إليها ، ثم ذهبت اليه وسلمته الخطاب . .

وشكرنى الرجل ، ثم أثنى على وهو يقول لى إنه يأسف كثيرا لأن المصريين لم يقوموا بواجبهم عند مهاجمته ، قناة السويس ، كما قال أنه كان يتوقع أن تنشب الثورة فى مصر عندما وصلت جيوشه التركية الى شاطىء القناه لأن مثل هذه الثورة كان يمكن أن تنقذ مصر من الانجليز . .

وابتسمت وأنا أقول له : ان فخامتكم لا تعرفون الظروف الداخلية فى مصر فهى بلد أصبح مجردا تماما من السلاح ، ويحتله العدو ويتحكم فيه . .

وأثارنى جمال باشا عندما رد على بقوله :

- كل هذا كلام فارغ ، فقد رأيت بعينى كيف لم يعمل المصريون على دفع ثمن حريتهم .. انهم رفضوا التضحية بشىء !

ولم أتمالك نفسى من الانفعال ، وبادرت أقول له :

- كلا ياسيدى بل انهم يضحون ، وقد امتلأت بهم السجون ، وفر إليكم كل من استطاع الفرار منهم ، وقد كان المصريو ن على استعداد لثورة دموية لكنكم جئتم إليهم بقوة قليلة ، وقد طرقتم الباب ولما خرج المصريون ليروا من الطارق على الباب ، لم يجدوا أحدا ، فقد كنتم قد تراجعتم الى سوريا ..

ثم استطردت أقول له : ان كل الذى رآه المصريون فى القاهرة ، هو الأسرى والزوارق التى كنتم تريدون استخدامها فى عبور القناة ولم يكن فى وسع المصريين إلا أن يستكينوا ولو فعلوا غير ذلك لأصابهم ما أصاب الأرمن ..

وأمسك جمال باشا برأسه ، ثم أطرق قليلا وقد ظهر عليه التبرم ، ولكنه سرعان ماتمالك نفسه فقال لى :

- أنت غضبت لقومك ، ولكننى أعرف على أى حال أنك وأمثالك قد أديتم واجبكم ولذلك شكرا لكم .. واذا كنت تريد فعلا أن تلحق بجيشى فى سوريا فأنا أرحب بك وسأكون مسرورا !

ولم يكن فى وسعى إلا أن أشكر جمال باشا ثم استأذنته فى الانصراف ..

وبينما كنت أتراجع للانسحاب من الحجرة زلت قدمى على الخشب الباركيه ، فسقطت على الأرض ..

وأسرع جمال باشا لمساعدتى على النهوض من مكانى وهو يقهقه بالضحك ، ثم أخذ يربت على كتفى وهو يقول لى :

- إن رجل الصحراء لا يعرف المشى على الخشب الباركيه !

فابتسمت خجلا ، ثم حييته ، وانصرفت !

* * *

كنت فى الحقيقة أشعر بالخجل من سخرية جمال باشا بالمصريين ، وعندما خرجت من الحجرة صممت على ألا أرى وجهه مرة أخرى ..

ومرت عدة ايام أخذت اتجول أثناءها فى الأستانة وقد خلا ذهنى مؤقتا من هموم الحرب والسياسة ...

ولكن فجأة دعانى أنور باشا وزير الحربية لمقابلته.

ولما ذهبت اليه كلفنى بالسفر فورا إلى برلين ثم إلى استكهولم لحضور مؤتمر يعقده الاشتراكيون هناك للدفاع عن قضية طرابلس الغرب.

وكانت وزارة الحربية العثمانية قد اختارت مندوبا عن كل دولة اسلامية للاشتراك فى هذا المؤتمر الذى كان يهدف أساسا للدعاية ضد الحلفاء..

وسافرت بعد أن اتخذت إدارة التشكيلات المخصوصة فى وزارة الحربية العثمانية إجراءات سفرنا..

وكان من بين أعضاء الوفود التى كلف بالسفر الى المؤتمر.. الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور أحمد فؤاد عن مصر، والامير شكيب أرسلان عن سوريا والشيخ الشريف التونسى عن تونس والجزائر والشيخ القبانى عن مراكش. وهو الاسم الذى كانت تشتهر به المغرب أيام الدولة العثمانية.

والشيخ القبانى كان يعمل حتى وفاته شيخا لتكية المغاربة فى القاهرة!

ولما وصلنا الى برلين أحاطنا الألمان بالحفاوة والاحترام وأذكر أنهم أنزلونا فى فندق اسمه «أيدك»..

وجاءت بعض الأنباء التى تشير الى احتمال تأجيل موعد انعقاد مؤتمر استكهولم..

وكان أن أمضينا أياما ممتعة فى برلين، وقد التقيت أثناءها بعدد من الأصدقاء المصريين الاعزاء..

كانوا يصدرون مجلة يطلقون عليها اسم.. «العالم الاسلامى» وأذكر منهم عبد الملك حمزة واسماعيل كامل وعوض البحراوى ومحمد على المهندس..

وفى بيوت هؤلاء الاصدقاء المصريين أكلنا أطباق الملوخية والفول المدمس والطعمية..

وكانت أول مرة اشعر فيها بالجو المصرى الذى حرمت منه طويلا..

وفى برلين التقيت بالمرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى والدكتور منصور رفعت وأثارنى ما سمعته فى تلك الأيام عن الخلافات بين رجال الحزب الوطنى، وأرادت الصدف أن اقوم بدور الوسيط.. أى حمامة السلام بينهم، ولكننى للاسف الشديد لم أوفق فى مهمتى!

وكان سبب هذا الخلاف أن بعضهم كان يرى عدم التعاون مع الخديو عباس حلمى، بينما يرى البعض التعاون معه..

كان فريد بك ومنصور رفعت يشكوان منه دائما بينما كان الشيخ عبد العزيز جاويش يرى التعاون معه..

وكان فى رأيى أن الوقت لم يكن مناسبا لمثل هذا الخلاف !

* * *

وفى تلك الأيام كانت الاتصالات مستمرة بيننا وبين بعض رجال القسم الشرقى فى وزارة الخارجية الالمانية ..

واقترح على بعضهم كتابة رسالة عن افريقيا ولما رحبت بالفكرة ، جاءوا إلى بسكرتيرة حسناء لمساعدتى فى كتابة هذه الرسالة على الآلة الكاتبة ..

وقد كببت على العمل حتى انتهيت من كتابة كتاب كامل زودته بالكثير من المعلومات عن المغرب العربى ..

وضمنت هذا الكتاب الكثير من مشاهداتى عن القبائل وعاداتها وأحوالها الإجتماعية وعن الطرق الصوفية ومشايخها إلى غير ذلك من الأمور ..

ولا أريد أن أقول إن هذا الكتاب كان أول كتاب من نوعه يطبع باللغة الألمانية وقد تولت وزارة الخارجية الألمانية طبعه على نفقتها !

وأذكر فى تلك الأيام اننى كنت اتحدث باللغة الانجليزية مع سكرتيرتى الخاصة فى قطار مزدحم بالناس عندما رأيت رجلا يشق الطريق ثم يقف أمامى وهو يحدثنى باللغة الألمانية بعنف . وكان يشير بيديه ناحيتى مهددا ..

ولما كنت لم أفهم سببا لغضبه ، فقد التفت ناحية سكرتيرتى وسألتها :

ـ ماذا يقول ؟

قالت إنه غضب لاننا نتكلم باللغة الانجليزية ، وقد قال انه لا يريد ان يسمع لغة أعداء بلاده !

وهنا طلبت اليها أن تقول له .. إن الأعداء الذين يشير إليهم هم أعداء الألمان من مدة لا تزيد على أربع سنوات ، ولكنهم أعداء مصر منذ أكثر من ٤٠ سنة ..

ولم يفهم الرجل ما كنت أعنيه ، ولما أدركت ذلك طلبت إليها ان تقول له أيضا :

ـ إن المانيا قد تنتهى مع هؤلاء الاعداء بصلح ، أما نحن فسنستمر فى الحرب ضدهم بلا صلح أو هدنة طول حياتنا وانا نفسى أقاتلهم متطوعا وسأظل أقاتلهم حتى أموت وأن عليه أن يتطوع مثلى لقتالهم بدلا من أن يلقى بتهديداته فى الهواء .

فلما نقلت السكرتيرة كلامى اليه ، فوجىء بالجمهور الذى كان يستمع الى المشادة بينى وبينه ينقلب ساخطا عليه ..

واضطر الرجل لأن يعتذر وهو ينسحب بعيدا عنا !

وحدث أيضا . . أن وصل إلى برلين وفد تركى كان فى طريقه إلى برست ليتوفسك للدخول فى مباحثات مع زعماء الثورة الروسية . .

وكان من بين اعضاء هذا الوفد صديق عزيز لى هو المرحوم حسين بك الذى صار فيما بعد رئيسا لوزراء الدولة العثمانية . .

ولما كان الرجل من أكبر رجالات تركيا ، ذهبت لمقابلته مع عدد من الاخوة المصريين الذين كانوا يعيشون فى المانيا ، وكان معنا الامير شكيب وارسلان . .

كنا نريد إقناعه بإثارة قضية مصر اثناء اجتماعاته مع الثوار الروس . .

ووافق السياسى التركى القديم . .

وفى نفس الوقت قام الأمير شكيب ارسلان والشيخ عبد العزيز جاويش باتصالات أخرى مع بقية أعضاء الوفد التركى ومنهم عزت باشا ووصفى باشا . .

وحصل الاثنان على موافقة الوفد بعرض قضية مصر أثناء اجتماعات الأتراك مع وفد الثورة الروسية !

ولكن حدث عندما ذهب وفد الأتراك إلى برست ليتوفسك ، وعقدت الاجتماعات مع بتروفسكى وغيره من الثوار الروس وكان الألمان والنمساويون يشتركون أيضا فى تلك الاجتماعات ، أن تصلب الألمان والنمساويون بشدة فى موقفهم ، وكان أن رفضوا الاعتدال فى عقد صلح شريف مع الروس .

والتقيت فى تلك الأيام بالشيخ الشريف التونسى وكان معروفا عنه حدة مزاجه وعصبيته . .

وأخذ الرجل يحدثنى وهو فى أشد حالات الهياج عما حدث أثناء إجتماعات مؤتمر « برست ليتوفسك » . .

وكان فى رأيه أن هذا التصلب قد يثير شعور الرأى العام العالمى ضد الألمان كما أنه قد يدفع الروس للشعور بالكراهية تجاههم .

ولا أظن انى أعطيت لهذا الكلام وزنا ، فقد كنت قلقا بفكرى خشية ألا يتمكن الوفد التركى من إثارة قضية مصر أمام المؤتمر . .

ومرت عدة أيام . . ثم جاءنى الشيخ التونسى بصورة برقية قال إنه أرسل ١٦ نسخة منها الى جميع رؤساء الدول والحكومات ومن بينهم الامبراطور غليوم وامبراطور النمسا وسلطان تركيا وملك بلغاريا . .

كانت برقية ينصحهم فيها بالاعتدال والتسامح وعقد صلح شريف غير مهين للروس ، لأن مثل هذا الصلح الشريف سيكون أدعى لاستقرار السلام وأقرب الى الحق . .

كان هذا رأيه . . ولا أريد أن أقول إن هذا الشيخ كان صورة من كفاح شبابنا الذى خرج مجاهدا فى سبيل الحق . .

وأنا نفسى لم أدرك صدق فراسته الا فيما بعد . . رحمه الله . .

المهم . . بقينا فى برلين ننتظر نتائج مؤتمر (برست ليتوفسك) . . وتحققت هواجسى عندما عرفت أن الوفد العثمانى لم يتفوه بكلمة واحدة عن قضية مصر . .

وانتظرنا حتى عاد الوفد التركى إلى برلين ثم ذهبنا الى رؤوف بك لكى نعاتبه . .

ووعد الرجل بأن يتدارك الموقف عندما تستأنف المفاوضات . .

ولم نقتنع وبادرنا بعقد اجتماع سرى قررنا فيه إرسال مذكرة الى لينين نطلب اليه فيها باسم مبادىء الحرية التى كان يدعو اليها تأييد روسيا لاستقلال مصر . .

وكانت هذه المذكرة التى أرسلناها الى الزعيم السوفيتى لينين أول اتصال بين الحركة الوطنية فى مصر والثورة البلشفية فى روسيا .

وكانت المفاجأة عندما بادر لينين بتلبية طلباتنا بمجرد أن وصلت إليه هذه المذكرة . .

فقد اذاع بيانا على العالم كله من محطته اللاسلكية أعلن فيه أن الثورة الروسية تعتبر استقلال مصر حقا تعمل له ولا تعترف بغيره . .

وتصوروا مشاعرنا عندما عرفنا بهذا البيان فى برلين !

* * *

ومرت عدة أيام ثم جاءنى ضابط من السفارة العثمانية ليقول لى . . ان وزارة الحربية العثمانية تطلب عودتى على أول قطار يبرح برلين إلى الاستانة ، وان على أن أسافر فى نفس الليلة . .

وحاولت أن أعتذر وانا أقول له إن هذا غير ممكن ، إلا أنه أخذ يصر على بإلحاح لتنفيذ تعليمات حكومته ، وانتهت المناقشة عندما وقف الضابط فى مكانه ، ثم ضرب كعبى حذائه بقوة ، ثم قال لى بحزم بعد أن رفع يده يحييى :

ـ اعتبر هذا الطلب أمرا عسكريا . .

وتصورت أن وراء هذا الاستدعاء أمرا خطيرا ولذلك بادرت بالذهاب إلى صديق الأمير شكيب وأخبرته بما أخذ يساور نفسى من هواجس .

قلت له . . يحتمل أن يكون قد بلغهم شىء عن مشاعرنا التى كانت تزداد سخطا عليهم ، وأننا نتحدث كثيرا عن سوء تصرفاتهم . .

وهذا صحيح ، فقد كنا فى أشد حالات السخط على سياسة الحكومة التركية بسبب

ما كنا نسمعه عن الجرائم البشعة والمذابح المنكرة التى ارتكبها جمال باشا فى الشام، وفى بلاد العرب..

وكان بعضنا يقارن بين الاحتلال التركى للبلاد العربية، واحتلال الانجليز والفرنسيين..

وأذكر انه عندما سقطت القدس.. أن كان وقع الخبر علينا شديدا للغاية بحيث أخذ الأمير شكيب ارسلان يردد قول المتنبى:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ∴ وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى.. ∴ صديقا موافيا أو عدوا مداجيا

وهكذا اراد الأمير أن يعبر بهذين البيتين عما كان يخامر نفوسنا من الشك فى صداقة الاتراك فى تلك الأيام..

ولما كنت قد أفضيت بالكثير من آرائى الى بعض أصدقائى الالمان، فقد خشيت أن يكون بعضهم قد نقل الى الاتراك ما كنت أردده من أفكار بالدرجة التى جعلتنى أرتاب فى طلب عودتى مسرعا الى الأستانة..

وعرف الأمير شكيب أرسلان بهواجسى، فذهب الى السفير العثمانى فى برلين وكان اسمه حقى باشا يستوضح منه الحقيقة..

ولما قال له حقى باشا انه لا يدرى عن الموضوع شيئا.. طلب اليه أن يبرق الى وزارة الحربية العثمانية للسماح لى بقضاء فترة قصيرة فى برلين للعلاج..!

ومرت عدة أيام.. وكنت قد تباطأت فى تنفيذ الأمر بالسفر الى استانبول عندما وصلت الى السفارة العثمانية فى برلين برقية أخرى تقول:

- قولوا لعبد الرحمن إن أخاه نورى قد وصل الى استانبول وهو الذى يريده ويستطيع العودة متى أتم علاجه..

ولم انتظر وبادرت بالسفر فى أول قطار..

***

وكان بعض أصدقائى قد نصحونى قبل أن أغادر برلين أن أستغل امتيازاتى كضابط فخرى بالجيش العثمانى بأن آخذ معى مقدارا من الكينين.

قالوا لى أنك تستطيع أن تبيعه فى الأستانة بعشرة أمثال ثمنه فى برلين.

وكان أن ملأت حقيبة كاملة من الكينين، ثم حملتها معى..

كما قمت بشراء بعض المصوغات الذهبية بما تبق معى من نقود لأبيعها أيضا..

وعندما وصلنا الى الأستانة عرض بعضهم على أضعاف ثمن الكينين والمصوغات الذهبية التى حملتها معى ولكن جهلى بالتجارة دفعنى للطمع فى مزيد من الربح.. وكنت كلما عثرت على راغب فى الشراء طلبت منه ثمنا أزيد من عرضه..

وكانت النتيجة عندما اضطررت للسفر من تركيا.. أننى تركت بضاعتى وديعة عند صديق لى اسمه الدكتور فؤاد..

وهرب هذا الصديق من الأستانة على أثر توقيع الهدنة، تاركا بضاعتى فيها لتصبح نهبا لمن يعثر عليها..!

وكانت أول مرة أعمل فيها بالتجارة وأن كانت محاولتى للعمل فيها لم تفلح.

الفصل الرابع عشر

نبوءة عراف يهودي منعتني من الزواج في تركيا

اتصلت بنورى باشا لأعرف منه خبرا أحزننى كثيرا . . قال لى إن صديق الدكتور دسوقى . . وهو شاب مصرى كان متطوعا للجهاد معنا فى الحرب ضد الانجليز، قد قتل بعد أن تركت الصحراء، وحملتنى الغواصة الالمانية الى النمسا، ومنها الى الاستانة.

وكانت وزارة الحربية العثمانية قد عملت على عودة السيد أحمد الشريف السنوسى الى برقة ليتدارك الموقف بعد أن تضاعفت الشكوك حول موقف السيد ادريس، واتجاهاته لعقد الصلح مع الانجليز والايطاليين، وعاد السيد أحمد الشريف الى ليبيا ليقيم فى منطقة اسمها سلطان فى الشرق من سرت حتى يكون قريبا من الشاطىء وليتسنى له تسلم بعض ما كانت تلقيه الغواصات من مساعدات عسكرية ومالية . .

وكان نورى باشا قد أرسل اليه على أثر وصوله الى منطقة الشاطىء قافلة تضم الدكتور سيد دسوقى وعددا من الجنود من أهالى برقة . .

ولكن حدث اثناء رحلة القافلة أن وقع اعتداء عليها أودى بجميع افرادها . .

وقيل وقتها إن عصابة من الاشقياء هى التى هاجمت القافلة ولكن تبين فيما بعد أن الأعتداء كان مدبرا من رمضان السويحلى للحيلولة دون حصول السيد أحمد الشريف السنوسى على التعزيزات العسكرية .

وأغرورقت عيناى بالدموع، وأنا أسمع تفاصيل قصة مصرع صديق الجهاد الدكتور دسوقى فقد كان بطلا وقد ذهب ضحية الفتن المحلية . .

وقال لى نورى باشا . . إنه تأثر كثيرا عندما عرف بالحادث وقد قام بتشييع جثمانه فى احتفال عسكرى . . وتم دفنه فى مكان معروف بداخل سور مصراته . .

ولا أريد أن أقول . . إن شعورا غريبا انتابنى بعد أن سمعت كل هذه التفاصيل للعودة الى طرابلس والانتقام لمقتل صديق المجاهد البطل !

وفى الأستانة قابلت أنور باشا وزير الحربية العثمانية لأجده قد أعد خطة عمل كاملة بالنسبة للموقف فى طرابلس . .

لقد أخذ يحدثنى لمدة تزيد على الساعتين عما كان يراوده من أفكار وأحلام . .

كانت مطامعه وآماله كبيرة . .

وكان من السهل على أن أدرك انه من هؤلاء الرجال الذين يحبون المشاريع الضخمة . .

قال لى . . انه يحلم بحركة واسعة ضد الانجليز والفرنسيين وممتلكاتهم الأفريقية .

وكان من أحلامه . . أن يتم للجيوش التركية الاستيلاء على أواسط آسيا عبر جبال القوقاز وبحر قزوين . .

وكما قال لى . . لقد اختار عمه خليل بك وأخاه نورى باشا للإشراف على تنفيذ مخططاته ووضع تحت قيادتهما جيش الشرق الذى كان الاتراك يطلقون عليه فى تلك الأيام اسم (اسلام أوردوس) أى الجيش الإسلامى . .

وقاطعت انور باشا . . وهو يحدثنى عن مشروعاته فى شمال أفريقيا وأنا أقول له :

ـ انى أود أن يكون ميدان جهادى ضد الانجليز الذين اغتصبوا بلادى . . وأخشى الا تسمح الحالة فى طرابلس بحركة جديدة فى منطقة الحدود المصرية الغربية مرة أخرى . .

ورد أنور باشا على بقوله :

ـ ان اهتمامى بمصر أكثر من أى شى آخر ولذلك سأعمل على تنفيذ ، مشروعات طرابلس للوصول بجيش الشرق الى مصر !

واطرق أنور باشا برهة ثم استطرد يقول لى :

ـ انى اخترت لكم بعد بحث طويل أميرا يصلح للمغامرة معكم فى افريقيا ، وهو الأمير عثمان فؤاد حفيد السلطان مراد ، فعليك أن تقابله ، وأن تجمل له صورة الحياة فى طرابلس وأن تمنيه بالنزهة والرغد والحياة الشائقة وأن تشجعه بكل الوسائل حتى يقبل القيام بالمغامرة معكم !

* * *

اصطحبنى نورى باشا فى نفس اليوم الى الامير عثمان فوّاد، وقام بتقديمى اليه..

كان شابا وسيما، وكان يرتدى الملابس العسكرية

وكما فهمت.. كان خطيبا لواحدة من الأميرات المصريات.. وهى ابنة الأمير محمد عباس حليم..

ونصحنى نورى باشا بأن أكثر من التردد على الامير حتى أوثق الصلة بينى وبينه..

قال لى.. ان انور باشا يريد أن تكون الصلة بينك وبينه وثيقة للغاية..

وكان الشريف عبد المجيد حيدر ابن الشريف حيدر باشا متزوجا من أخت الأمير عثمان فوّاد.. وقد لفت اهتمامى حماسه للمغامرة التى كان الأمير مقبلا عليها فقد كان يشجعه ويدفعه إلى قبولها..

وكان من السهل على أن أدرك أنه يقوم بهذه المهمة بايعاز من أنور باشا نفسه!

والشريف حيدر هو الذى عينته الدولة العثمانية فى تلك الأيام، شريفا لمكة مكان الشريف حسين الذى أعلن العصيان على الدولة العثمانية، وتحالف مع الانجليز..

واضطر الشريف حيدر لأن ينضم الى الجيش التركى فى الشام، على أمل أن يتمكن من استرداد مكة التى أصبح شريفا لها..

المهم.. استطعنا إقناع الأمير عثمان فوّاد بالقيام بالمغامرة المطلوبة منه فى ليبيا، ولما عرف انور باشا بذلك أمرنا بالاستعداد للسفر..

وتلقيت فى تلك الاثناء مجموعة من الاوسمة والنياشين كان نورى باشا قد طلب الى شقيقه أنور باشا وزير الحربية اهداءها الى.. وهى وسام الهلال الحديدى وقد منحوه لى كما قالوا فى براءته للشجاعة التى أبديتها فى قتال الانجليز.. ونيشان العثمانى الخامس لمجهوداتى فى بعض الاعمال المدنية التى قمت بها فى برقة ونيشان العثمانى الرابع لما بذلت من جهد فى عقد الصلح بين القبائل فى طرابلس.. ووسام العثمانى الرابع المسيف لجهودى العسكرية فى الحرب ضد الطليان..

* * *

بدأنا الاستعداد للسفر الى طرابلس..

ولكن مشكلة شخصية للغاية كانت تشغل بالى ، فقد كانت تراودنى فكرة خطبة فتاة من أحد البيوت التركية العريقة ، وخطر لى أن اوسط الأمير عثمان فؤاد لدى أهلها . . ولكننى خجلت من مفاتحته فى الموضوع . .

وعرف صديق الامير شكيب أرسلان بما كان يراودنى من آمال لخطبة هذه الفتاة ، فاصطحب صديقا لنا اسمه محيى الدين بك وقام بالتوسط لى عند أهل الفتاة . .

وكانت مفاجأة عندما قال أهل الفتاة انهم يوافقون على خطبتى إلى الأخت الكبرى للفتاة لا إلى الفتاة نفسها

ولم أيأس ، وطلبت اليهما أن يعاودا المحاولة ، ولما كنت مضطرا للسفر على عجل ، فقد وكلت محيى الدين بك للقيام باجراءات الخطبة ، وتركت له مبلغا من المال لشراء ما يلزم تقديمة كهدية للعروس اثناء غيابى . .

كان اعتقادى ان رحلتى الى طرابلس لن تطول هذه المرة ، وكان تصورى ان الأمير شكيب ارسلان ومحيى الدين بك سيفلحان فى وساطتهما وأننى سأستطيع بعد عودتى الى الاستانة ان اتزوج الفتاة . .

ولكن حدث قبل سفرنا بيومين ان اصطحبنى صديق الى عراف يهودى كان يعيش فى الاستانة . .

وتبادر الى ذهنى ان أسأل العراف اليهودى عن رأيه فى مشكلتى . .

قلت له : هل سأتزوج فلانة ؟

قال : لا أظن أن هذا سيحدث ، لأن هناك صعوبات كثيرة تمنع هذا الزواج . .

فلما سألته : ومتى أعود الى الاستانة ؟

قال لى : انى أراك تعبر البحر الى بلاد قاسية وستطول غربتك فى هذه البلاد كثيرا . .

وابتسمت . . وأنا أقول لنفسى . . كذب المنجمون ولو صدقوا . .

ولكن نبوءة الرجل اليهودى تحققت ، فقد طال غيابى عن الاستانة بعد أن سافرت منها تلك المرة عشر سنوات كاملة . .

وتلاشت مع غيبتى ومع طول هذه السنين فكرة زواجى من الفتاة !

ركبنا القطار من الاستانة . . الامير فؤاد عثمان ورئيس اركان حربه . . والقائمقام عبد الرحمن نافذ بك وأنا . . وكانت صفتى الرسمية التى رافقت بها الامير هى كما يقولون باللغة التركية (أفريقيا عوروب لارى قومندان بلنى تساورى) أى مستشار قيادة القوات الافريقية .

وكان معنا فى القطار ـ مصادفة ـ أمير مصرى شاب هو الامير عمر حليم بن الصدر الأعظم عباس حليم . . وخالدة . . الكاتبة التركية المشهورة فى تلك الأيام . .

وحملنا القطار الى فيينا ، حيث نزلنا فى فندق اسمه برستول . .

وفى هذا الفندق قضينا عدة أسابيع قام أثناءها رئيس اركان حرب الامير بالاتصال بوزارة الحربية النمساوية لاعداد ترتيبات نقلنا الى طرابلس بواسطة احدى الغواصات الالمانية . .

وأثار انتباهى أثناء زيارتى لفيينا كثرة عدد لابسى الطرابيش الذين كنت أشاهدهم فى الشوارع . .

وفى بادىء الامر تصورت أن أصحاب تلك الطرابيش من المسلمين ثم تبين لى أنهم من اليهود . .

وكما فهمت . . كانت القوات التركية قد حاربت بشجاعة الى جانب القوات النمساوية لصد القوات الروسية فى غاليسيا ، وامتلأت مستشفيات فيينا بجرحى الاتراك . . واخذ الشعب النمساوى يعطف على هؤلاء الجنود المسلمين .

وكان أن أصبحت للمسلمين فى نفوس النمساويين منزلة خاصة بالدرجة التى جعلت أهل فيينا يقيمون الاحتفالات والمهرجانات للحفاوة بكل من يمت للدولة العثمانية بصلة . .

واستغل اليهود مشاعر الشعب النمساوى وحفاوته بالاتراك ، بأن لبسوا الطرابيش ثم خرجوا يتجولون بها فى الشوارع . حتى ينالوا نصيبا من هذه الحفاوة . .

وعلى الرغم من كل ماكنا نجد من مظاهر التكريم والحفاوة ، فإن النمسا كانت فى تلك الايام فى حالة حرب . وكان علينا أن نتسلم الخبز من الفندق الذى كنا نقيم فيه بايصال . .

ولم يكن عيبا أن نذهب الى المطعم ، ثم نخرج من جيوبنا ما كنا نحمله من الخبز لنأكله !

تركنا فيينا الى برلين .. وكان القصر الامبراطورى النمساوى قد عرض على الامير عثمان فؤاد أن يصطحب معه الى افريقيا أحد الامراء من أقارب الامبراطورة زيتا .. وهو الامير (براجانزا : الذى كان قبل ذلك وليا لعهد البرتغال ..

قالوا له .. ان الامير البرتغالى مريض .. وهو فى حاجة للاستشفاء فى الصحراء ..

ووافق الامير عثمان فؤاد على أن يصطحب الامير البرتغالى معنا ..

وفى برلين .. اتصل الامير ورئيس أركان حربه بوزارتى الحربية والبحرية الالمانية لوضع الترتيبات النهائية لرحلتنا الى ليبيا ..

وأنتهزت الفرصة فقمت بمقابلة بعض أعضاء الحزب الوطنى الذين كانوا ما يزالون يعيشون فى المانيا .. ومنهم سمعت لأول مرة أن الموقف العسكرى قد أخذ يتدهور نتيجة للحصار الذى كان الحلفاء يضربونه على المانيا ..

وأخذ رأسى يمتلىء بالهواجس .. وخاصة بعد أن سمعت نفس الكلام أيضا من واحد من المسئولين فى ادارة الشئون الشرقية بوزارة الخارجية الألمانية ..

إن اسمه البارون فازندبرج .. وكنت قد ذهبت لمقابلته فى مكتبه ..

واثناء حديثى معه .. صارحنى الرجل بخطورة الموقف ، وهو يحاول أن يربط بين حصار الحلفاء على المانيا ، وتطورات الموقف العسكرى !

وكان على أن أدرك أن علينا أن نواجه ظروفا صعبة فى طرابلس وان مهمتنا لن تكون سهلة !

* * *

حملتنا غواصة المانية الى ليبيا

وكان الامير براجانزا البرتغالى قد انضم الينا .

وفى تلك الايام كان الشيخ سليمان البارونى باشا يعمل واليا باسم سلطان تركيا على منطقة طرابلس ..

وكانوا يطلقون عليه اسم والى وقومندان طرابلس وملحقاتها ..

وكنت اعرف قبل مغادرتى الاستانة ان عودة نورى باشا الى الاستانة كانت قد تركت فراغا كبيرا فى جبهة القتال ..

وانه كان قبل سفره قد خلف مكانه اليوزباشى أركان حرب محمد نشأت لتولى قيادة جبهة مصراته وضواحيها..

وأسند قيادة الجبهة الغربية الى ضابط آخر.. هو اسحاق باشا وكان يتخذ من الزاوية الغربية مركزا لقيادته..

ومع وصولنا إلى الشاطىء الليبى قرر الأمير عثمان فؤاد أن يتخذ من مصراته مقرا لقيادته..

وهناك أقبلت الوفود على الامير العثمانى من مختلف انحاء طرابلس لتقديم فروض الاخلاص والولاء له.. وللدولة العثمانية..

ومرت عدة أيام.. ثم تقرر أن يقوم الامير برحلة الى الحدود التونسية ليمر بمراكز العشائر وليتفقد جبهات الحرب..

كان عليه أن يقوى عزائم الناس، وان يضاعف ثقتهم فى النصر.

وأخذ الامير ينتقل من منطقة الى أخرى..

وكان الاهالى يستقبلونه بالحفاوة والابتهاج..

واستغرقت الرحلة عدة أسابيع ثم عاد الامير الى مركز قيادته فى مصراته..

* * *

أخذت الامور تسير سيرا حسنا وكان تدريب القوات النظامية وتجهيزها على أشده.

وتوافد علينا الكثيرون للتطوع للقتال.

وكان نورى باشا قد أنشأ قبل عودته الى الأستانة مدرسة لتدريب صف الضباط على استعمال المدافع والمدافع الرشاشة، وقذف القنابل، وغير ذلك من الاعمال والفنون العسكرية التى تحتاج الى تدريب أدق من التدريب العادى للمتطوعين..

ومع عودتنا الى ليبيا أخذت هذه المدرسة - وكان يطلق عليها اسم (مكتب صف الضباط) - فى تخريج الافواج المتعاقبة من الشباب العرب المدربين للحرب..

وعادت الروح من جديد الى جبهة القتال فى ليبيا..

وفى نفس الوقت كانت ايطاليا قد أوقفت عملياتها العسكرية ضد قواتنا بعد أن

أدركت أن تطورات الموقف فى جبهة القتال، مع استعداداتنا الجديدة، لم تعد مناسبة للخوض معنا فى عمليات عسكرية..

وكان أن قام الايطاليون بتحصين مواقعهم الدفاعية واكتفوا بمناوشتنا بالطائرات..

لقد اعتمدوا عليها فى الحرب ضدنا، وكان واضحا انهم قد وضعوا كل همهم فيها بالدرجة التى جعلتهم - لا يتركوننا يوما دون أن يغيروا بها على مواقعنا..

وانتشرت على اثر قيام الطائرات بالقاء مجموعة من القنابل الضخمة على مواقعنا اشاعات تقول.. ان الانجليز قد قاموا بمد حلفائهم الايطاليين بعدد من القنابل لاستخدامها فى الحرب ضدنا..

لم نكن قد شاهدنا مثيلا لهذه القنابل من قبل

وأذكر أن واحدة من هذه القنابل قد سقطت فى مصراته دون أن تنفجر..

كان ارتفاعها حوالى المتر ونصف المتر.. ولم نجرؤ يومها على وزن هذه القنبلة خوفا من انفجارها أثناء عملية وزنها!

ولكن ضخامة القنبلة كان يوحى لكل من شاهدها بأنها تزن عدة قناطير!

الفصل الخامس عشر

قاعدة لاستقبال الغواصات عند سيف عبد الرازق

لم تتوقف غارات الطائرات الايطالية على مواقعنا..

وكنا نطلق نيران مدافعنا الرشاشة على هذه الطائرات لابعادها عن هذه المواقع.

وفى احد الايام قذف البحر بطائرة برية محطمة الى شواطئنا

وخرج من حطام الطائرة اثنان من الطيارين، فقام رجالنا بأسرهما ثم جىء الى مصراتة حيث قمت بنفسى باستجوابهما..

قالا.. انهما خرجا من مالطة للقيام بمهمة استطلاعية فوق البحر ولكنهما ضلا الطريق، وعندما فرغ وقود الطائرة اضطرا للنزول فى الماء.. وقذفت الامواج بالطائرة الى الشاطىء فتحطمت..

ولم يكن فى وسعى اثناء استجوابهما ان أتبين منهما صحة الاشاعات التى كانت تتردد فى تلك الايام عن اشتراك الطائرات الانجليزية مع الطيارين الإيطاليين فى ضرب مواقعنا على الشواطىء بقنابل الطائرات.

وتقرر أن نحتفظ بهما أسيرين فى ايدينا..

وكان أن خصص لهما مسكن لاقامتهما تحت الحراسة..

وبعد قليل ظهر انهما ماهران فى لعبة البريدج فكانا يدعوان فى اكثر الليالى للسهر مع الامير عثمان فؤاد وزميله البرتغالى والتنافس معهما فى لعب الورق..

وكان الأميران يحبان بعض المشروبات الروحية فقد كانا يتناولانها خفية، وقد وجدا فى الاسيرين زميلين يجيدان شرب الويسكى، ولا يبوحان بالسر..

وكان أحد الاسيرين انجليزيا.. أما الثانى فكان كنديا، وقد ظلا الى نهاية الحرب فى هذا الاسر اللذيذ، وكان تسريحهما بعد الهدنة عندما تقرر اطلاق سراحهما ليقوما بابلاغ

انجلترا . . والعالم كله قرارنا باعلان أول جمهورية على الارض العربية . . وهى الجمهورية الطرابلسية !

* * *

بقينا فى حالة انزعاج شديد بسبب تتابع الغارات الجوية على مواقعنا . .

ولم تكن عندنا صفارات انذار ولذلك قمنا بانشاء نقط للمراقبة على امتداد الشواطىء ، وعملنا على تزويد كل نقطة بخط تليفون ، وبعدد من المراقبين . .

وكان على هؤلاء المراقبين بمجرد ان يشاهدوا احدى الطائرات أن يتصلوا بمعسكراتنا بالتليفون لابلاغها أمر هذه الطائرات .

وكان على عامل التليفون عندما يتلق هذه الاشارات ان يدق جرسا يعرف به أهل المنطقة حول المعسكر أن هناك غارة جوية . .

وكان علينا بمجرد أن نسمع هذا الجرس ان نهرع إلى مجموعة من الخنادق أعددناها خصيصا للاحتماء من الغارات الجوية . .

ومع مرور الايام اخذ الاهالى لا يعيرون أجراس الانذار اهتماما . . ولكن نظام الالتجاء الى الخنادق ظل متبعا فى المراكز الهامة لاسيما فى مصراتة . . وفى الزاوية الغربية . .

وكانت مصراته كما سبق ان قلت هى مركز قيادة الامير العثمانى عثمان فؤاد . .

أما الزاوية الغربية . . فقد كانت مقرا لقيادة اسحاق باشا قائد الجبهة الغربية . . وكانت هذه الجبهة تمتد من مدينة طرابلس حتى الحدود التونسية . .

ولكن أثر هذه الغارات الجوية . . كان من الوجهة العملية ضعيفا جدا فهى على ما كانت عليه من شراسة ، وبالرغم من آلاف القنابل التى قامت الطائرات بالقائها علينا ، لم تدمر الا عددا قليلا جدا من المساكن . .

وكانت النتيجة ان خف الذعر الذى كان يستولى على الناس بسبب هذه الغارات الجوية . .

وأصبحت رؤية الطائرة . . ورؤية القنابل وهى تهوى على الارض من المناظر الطبيعية للغاية .

وكانت من عادة بعضهم عندما تظهر الطائرات المغيرة ان يستلقوا على ظهورهم على الارض ، ثم يأخذوا فى الفرجة عليها . . وحاول بعض المسلحين من رجالنا اصابة بعض الطائرات المغيرة باطلاق المدافع الرشاشة عليها . . وأحيانا بالتصويب عليها بالبنادق . . ولكن أحدا منهم لم يوفق فى اسقاط واحدة من هذه الطائرات عندما اشتدت غارات الطائرات الحربية علينا فى عام ١٩١٨ .

نسيت أن أذكر انه قد ذهب ضحية هذه الغارات الجوية ضابط مصرى كان متطوعا للحرب معنا . .

انى لا أذكر الآن اسمه رحمه الله . . وان كنت اذكر انه كان محبوبا للغاية من الجميع . . وكان معروفا بالشجاعة !

* * *

وفى تلك الايام . . صار وصول الغواصات لتحمل الى الامير الاموال والذخائر والاسلحة اكثر انتظاما مما كان عليه من قبل . .

وكنا قد اتخذنا من منطقة اشتهرت باسم سيدى عبد الرازق . . وهى تبعد نحو ٣٠ كيلو مترا عن مصراته مستودعا للمواد الحربية التى كانت الغواصات تحملها الينا . .

وتقع هذه المنطقة فى قلب المناطق الجبلية التى تنتشر فيها المغارات الطبيعية وكان من السهل علينا تحويل هذه المغارات الى مخازن ومستودعات لمهماتنا العسكرية !

وكانت الامواج تقذف إلى الشاطىء بين الآونة والاخرى بعض حطام البواخر التى كانت الغواصات الالمانية تغرقها فى طريق وصولها إلى سيدى عبد الرازق . .

وكان بعض الاهالى يلازمون الشواطىء لاصطياد مايمكن ان تجلبه الامواج اليهم من حطام هذه البواخر . .

وكان من بين ما تقذف به الامواج احيانا الى الشاطىء نساء ورجال واطفال من ركاب هذه البواخر . .

ومن هؤلاء سيدة فى مقتبل العمر جاء بها الاهالى الينا فى مصراته وعند استجوابها ، تبين انها ايطالية وانها كانت تعمل مدرسة فى احدى المدارس وقد قامت غواصة باغراق الباخرة التى كانت تسافر عليها ، فغرق معظم ركابها . . اما هى فقد ظل الموج يتلاعب

بزورق النجاة الذى ركبته لمدة يومين كاملين حتى ساقها الريح الى شواطىء خليج سرت.. وكان ان نجت من الموت غرقا!

* * *

وفى تلك الايام.. كانت بعض القبائل الجزائرية.. ومنها قبائل الطوارق المشهورة قد قامت بالهجوم على الفرنسيين فى جنوب الجزائر.

ولم تكن مفاجاة عندما جاءت الينا رسالة عاجلة من وزارة الحربية العثمانية تقول أن من رأى الالمان ان نفتح جبهة جديدة مع الفرنسيين أيضا.. وأن يكون فتح هذه الجبهة بالهجوم من ناحية فزان..

وصحيح أن استعداداتنا للحرب ضد الايطاليين كانت تجرى على قدم وساق الا اننا لم تكن قد وضعنا فى اعتبارنا فتح هذه الجبهة التى اقترحها الالمان كما فهمنا على الدولة العثمانية.. .

وكان على ان اقوم بتفقد الحالة فى منطقة الحدود التونسية قبل ان نتخذ قرارنا فى هذا الشأن.

ولم انتظر وبادرت بالقيام برحلة الى هذ المنطقة، استغرقت عدة أيام.

ولم يكن فى وسعى بعد عودتى الى مصراته إلا أن ابين للامير عثمان فؤاد ولرئيس اركان حربه عبد الرحمن نافذ بك وجهة نظرى بصراحة..

قلت لهما.. اننى ارى خطورة فى فتح الجبهة الجديدة ضد الفرنسيين واقترحت ان نطلب من الألمان كميات وفيرة من الاسلحة والذخائر والاموال وما يلزم الحرب على أن يتم تشوين كل ما يصل الينا منها فى الجبل قبل الشروع فى أى عمل ضد الفرنسيين.

واقتنع الاثنان برأيى، وقام الامير عثمان فؤاد بابلاغه الى الاستانة!

وفى نفس الوقت أوفدنا بعض الرسل الى قبائل الطوارق فى جنوب الجزائر عند فزان..

كنا نريد ان ننسق بين عملنا وعملهم فى الحرب ضد الفرنسيين..

وتحمس زعماء هذه القبائل للتعاون معنا وأوفدوا الينا بعض مبعوثيهم ليعرضوا علينا

استعداد قبائلهم لمناصرة الدولة العثمانية اذا ما قامت قواتنا بالهجوم على الفرنسيين فى جنوب الجزائر عند فزان..

وبقى هؤلاء الرجال معنا، واشتركوا فى الحرب والجهاد الى جانب قواتنا حتى النهاية؟

وكان واحد من هؤلاء الرجال يعرف التنجيم، فاستدعيته فى ذات ليلة الى خيمتى فى معسكر كنت اقيم فيه فى الجنوب من مدينة طرابلس، ثم طلبت اليه أن يجيبنى عما يمكن أن أوجهه اليه من أسئلة..

وكانت دهشتى عندما رحب الرجل بالاجابة على اسئلتى واشترط أن يحدد بنفسه الليلة التى يجيب فيها على أسئلتى..

فلما سألته عن الليلة التى يختارها قال:

- يمكن أن يكون ذلك فى يوم الاثنين القادم!.

وجاء الرجل فى يوم الاثنين كما اتفقنا، وكان يحمل معه كيسا به بعض النوى وقطعة فحم.. وقطعة أخرى من الطباشير..

وناولنى الرجل نواة بعد أن أخرجها من الكيس، وهو يقول لى:

- أهمس اليها بأسئلتك..!

وسألت النواة بصوت خافت حتى لايسمعه الرجل..

قلت لها: هل سندخل مدينة طرابلس؟

وأخذ الرجل النواة ليرسم عليها علامة بالطباشير ثم قام بوضعها فى الكيس.. وأخذ يهزه بعنف..

وبعدها أخرج النوى الذى كان بداخل الكيس، وقام بنثره على الارض..

كنت أتابعه فى صمت.. وشاهدته، وهو يمد يده الى النواة التى وضع عليها علامة بطباشيره..

ثم رأيته، وهو يحملق فيها بدقة..

وكانت مفاجأة مثيرة عندما سمعت الرجل، وهو يكرر على نفس السؤال الذى كنت قد وجهته الى النواة..

كنت على يقين من أنه لم يسمعنى عندما وجهت اليها هذا السؤال..

وازدادت دهشتى، عندما أخذ الرجل يصف لى مدينة طرابلس وصفا دقيقا..

وبعدها لمعت عينا الرجل ببريق عجيب، ثم التفت ناحيتى، وهو يقول:

ـ ستدخل هذه المدينة ظافرا من هذه الناحية فى مقدمة جيش كبير..

وأشار الرجل الى الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة ثم أخذ يصف لى مقدمة هذا الجيش..

ولن تصدقوا.. لقد وصف لى رمضان السويحلى وزملاءه من قادة الجهاد واحدا واحدا..

وبعدها استطرد يقول لى:

ـ سيستقبلكم بباب المدينة رجلان من الاشراف لهما وجهان اسودان، وسيدخلان بكما الى البلاد يتبعكم جيش كبير..

وأطرق الرجل قليلا.. قبل أن يقول لى:

ـ توجد فى هذه البلاد امرأة عجوز.. وأنا أراها تمسك بأطراف ثوبك وهى تصرخ: هذا نصيبى لن أتركه!

كانت نبوءة غريبة.. ولاأظن أننى صدقت الرجل، فقد كان فى رأيى حتى تلك اللحظة.. ان دخولنا مدينة طرابلس فاتحين أمر مستحيل..

ولاحظ الرجل استخفافى بما كان يقول فبادر يقول لى:

ـ هل تريد أن أعين لك الوقت ايضا؟

قلت له مازحا: ولم لا؟..

قال: اسأل هذه النواة.. وأنا أرد عليك..

ولم يكن أمامى الا أن استمر معه فى نفس اللعبة، وكان أن أمسكت بالنواة وهمست أسألها عن الموعد الذى تحدده لدخولنا الى مدينة طرابلس..

وأخذ الرجل يتمعن فى النواة بعد أن أعدتها اليه، ثم التفت الى وهو يقول:

- اسمع.. ان دخولكم الى مدينة طرابلس سيكون بعد أكثر من ثلاثة أشهر وأقل من ستة!

ولن تصدقوا.. اننا دخلنا فعلا مدينة طرابلس بألف وخمسمائة فارس فى نفس الموعد الذى حدده الرجل!

الفصل السادس عشر

عطفت على السنوسى فتحرج موقفى !

كانت المنطقة التى تمتد فى الشرق من فزان هى المنطقة الوحيدة التى استعصت الى حد ما على نفوذ الدولة العثمانية .. وكان السبب ثأرا قديما بين أحد شيوخ القبائل التى تعيش فى هذه المنطقة والدولة العثمانية ..

كان هذا الشيخ واسمه الشيخ سيف النصر بن سيف النصر شيخا لمشايخ قبائل اولاد سليمان التى تعيش فى هذه المنطقة ..

كان شيخا فى الثمانين من عمره ، وكان الأهالى والقبائل التى تعيش فى المنطقة تحت سيطرته ونفوذه ..

وكان الرجل داهية عركته الأيام ، وكان واسع الحيلة شديد البطش وقد اشتهر باسم .. ذئب الصحراء ..

وكنت قد سمعت أثناء جولاتى فى جوف الصحراء حكايات مثيرة عن الخصومات المزمنة التى كانت تنتشر بين القبائل ..

كان لكل قبيلة ثأر لاتنساه

ومما كانوا يروونه .. انه حدث مرة أن جماعة من البدو قد ركبوا سفينة شراعية لتنقلهم من شواطىء طرابلس الى جزيرة مالطة ..

وأثناء الرحلة فى البحر شاهد أحد البحارة واحدا من هؤلاء البدو وهو يحاول أن يخرق قاع السفينة حتى تغرق ، ولما سألوه .. لماذا تعرض السفينة بما عليها من بضائع وركاب لخطر الغرق فى البحر .. قال .. انه من قبيلة الرفعيات .. وقد أثار انتباهه أثناء الرحلة أن معظم ركاب السفينة من قبيلة (أورشب فانه) التى بينها وبين قبيلته ثأر قديم ، فبادر بمحاولة خرق قاع السفينة حتى يغرقها بمن فيها ..

ولما قيل له .. ان بعض ركاب السفينة ينتمون لقبيلته .. وكان ممكنا أن يغرق هو أيضا مع السفينة .. قال :

ـ لابأس .. أن أغرق انتقاما من القبيلة الاخرى .. ولابأس أيضا ان يغرق الذين تحملهم السفينة من أهل قبيلتي لأنهم قليلون !

* * *

انقضى صيف عام ١٩١٨ دون حوادث .. وان بقيت بعض المناوشات التى كانت تقع بيننا وبين الايطاليين فى الجبهة الغربية من آن لآخر

وكان الجيش الذى يقوده اسحاق باشا قائد الجبهة الغربية قد قوى واشتدت المنافسة بينه وبين رمضان السويحلى الذى كان حريصا على أن تبقى الذخائر والمواد العسكرية التى كانت تحملها الغواصات فى منطقة نفوذه .. والا يرسل منها الى الجبهة الغربية الا بما تقتضيه الضرورة .. أما اسحاق باشا فكان من رأيه أن ترسل المعدات العسكرية والذخائر الى مقر قيادته فى الزاوية الغربية لدعم جبهته باعتبارها أهم ميادين الحرب .

ومع اشتداد المنافسة بين الاثنين ، أخذ اسحاق باشا ينظر بالريبة الى رمضان ، بالدرجة التى جعلته يفكر فى اعداد حملة عسكرية لضربه والقضاء عليه ..

وكان فى رأيه .. ان التخلص من رمضان يمكن أن يساعد الدولة العثمانية على الانفراد بحكم طرابلس دون أن تضطر للعمل بسياسة ارضاء زعماء العشائر الذين كانوا ينازعونها السلطة ، ومنهم رمضان ..

ولكن رمضان السويحلى ، كان قد أصبح قوة تهدد فعلا نفوذ الدولة العثمانية .. وقد اضطر الامير عثمان فؤاد أن يتدخل فى الوقت المناسب عندما اصطدم الرجلان حتى يمنع الحرب بينهما ..

وكان اسحاق باشا قد استنفر قواته ليحركها للحرب ضد رمضان ، لولا تدخل الامير العثمانى انقاذا للموقف !

وتقرر اعادة اسحاق باشا الى الاستانة ليعود الهدوء الى الجبهة الغربية التى كانت تمتد الى الحدود التونسية ..

وتلاشت تدريجيا آثار الفتن التى كانت مستحكمة فى البلاد عندما جئنا لأول مرة مع نورى باشا الى هذه المنطقة ..

وأخذ نفوذ الدولة العثمانية يمتد فى مختلف أنحاء طرابلس ، وان بقيت بعض المناطق

القليلة فى جنوب سرت وشرق فزان لايصل اليها هذا النفوذ..

وكان على أن أبدى اهتماما خاصا بوفود الطوارق التى كانت تتوافد علينا فى مصراته فى تلك الايام..

وكان رأيى أن الدولة العثمانية يمكن أن تمد نفوذها بالتحالف مع هؤلاء الطوارق الى ماوراء الصحراء..

* * *

كان الطوارق يعيشون على الفطرة فى جوف الصحراء الكبرى.. وكانوا كما عرفتهم يشبهون فى جميع مظاهرهم أعراب قبائل البدو التى عرفناها فى حياتنا فى الصحراء..

وأذكر حديثا دار بينى وبين واحد من المغاربة كان يعيش مهاجرا مع أهله فى قلب الصحراء مع قبائل الطوارق..

كان قد جاء إلينا فى مصراته مع أحد جماعات الطوارق التى كانت تتوافد علينا..

وكنت قد فهمت منه وهو يحدثنى عن حياته فى قلب الصحراء مع قبائل الطوارق أنه غائب عن أهله وزوجته وأولاده منذ عدة أشهر.. ولذلك بادرت أسأله:

ـ لماذا لاترجع الى أهلك بعد هذه المدة الطويلة؟

قال الرجل:

ـ وكيف أعود اليهم، وأنا لم أغنم شيئا أرجع به اليهم.

قلت له:

ـ ولكن كيف يمكن أن يعيش اهلك وزوجتك وأولادك بدونك، وهم غرباء عن قبائل الطوارق التى يعيشون بينها!..

قال الرجل:

ـ اننى لاأخشى عليهم شيئا مادمت غائبا فهم يقيمون الى جوار قوم كرماء.

ثم استطرد يقول لى:

ـ لقد اعتاد الطوارق أن يعيشوا معا، فاذا رجع أحدهم بمغنم من نهب أو غزو

أو تجارة ، قسم ما حصل عليه بين أهله وجيرانه . . وأنا استحى أن أدخل عليهم من غير مغنم . .

قلت له : وماذا ستفعل ؟

ـ على أن انتظر حتى يفتح الله على باب الرزق فأعود وبيدى مايمكن أن أوزعه بين أهلى وجيرانى . .

كانت أول مرة أسمع فيها عن مثل هذه الصورة الرائعة لتقاليد الحياة عند قبائل الطوارق فى قلب الصحراء . .

وابتسمت وأنا أقول لنفسى :

ـ انها أروع صور الاشتراكية الانسانية التى عرفها الانسان منذ آلاف السنين . . وقد توارثتها هذه القبائل التى تعيش فى قلب الصحراء أبا عن جد !

وفى قلب الصحراء يطلق بعضهم على قبائل الطوارق اسم (الملثمون) والسبب هو اللثام الذى يضعونه على وجوههم . . فهم يغطون به رءوسهم بحيث لا يظهر من وجوههم الا عيونهم . .

واذا حدث أن سقط اللثام عن وجه أحدهم أسرع باعادته الى مكانه تماما كما تفعل المرأة المحجبة عندما يسقط الحجاب عن وجهها ، فتبادر فى خجل واستحياء لاعادته الى مكانه !

واشتهرت قبائل الطوارق بالصبر على مشاق الاسفار فى قلب الصحراء وبمقاومة الشدائد بشجاعة وجلد لانظير لهما . . ومن عادتهم عندما يخرجون للغزو أو الصيد فى قلب الصحراء ، أن يخرجوا على هجينهم . . أى على جمالهم دون أن يثقلوها بالماء أو المتاع حتى يتسنى لهم الاغارة على اعدائهم من مسافات بعيدة .

وهم يسيرون أحيانا لبضعة أسابيع ، دون أن يحمل الواحد منهم على جمله أكثر من حصته من (الزميطة) وهو الاسم الذى يطلقونه على الشعير الذين يقومون بتحميصه ثم طحنه . . وقليل من التمر والماء . .

ومن عاداتهم أيضا التى سمعت عنها . . أنهم يلجأون اذا ما جاعوا إلى ابلهم ، فيفصدونها ، ثم يتلقون دمها فى أوعية من النحاس . .

وهذا الدم يقومون بطبخه على النار ثم يأكلونه .. !

وهم أحيانا يشقون سنام الابل، ويقتطعون منها الشحم، ثم يخيطون مكانه.

ومن عاداتهم تخزين هذا الشحم ليأكلوه اذا ما اضطرتهم ظروف الصحراء القاسية لذلك !

وتشتهر ابل الطوارق مثلهم بالسرعة والتحمل والصبر على الجوع والعطش !

* * *

وأترك قبائل الطوارق الى مشكلة أخرى واجهتنا على أثر عودتنا الى ليبيا.

كان السيد أحمد الشريف السنوسى لايزال يقيم فى منطقة سلطان فى شرق (سرت) .. وكان علينا تنفيذا للتعليمات التى كنا نحملها من الاستانة أن نمده بما كان يحتاج اليه لدعم قواته بما كانت تحمله الينا الغواصات الالمانية ولكن حادث اعتداء أنصار السويحلى على القافلة التى ذهب ضحيتها صديقنا الشهيد المصرى الدكتور دسوقى، كان قد ترك آثارا سيئة فى نفس السيد أحمد الشريف السنوسى ..

وكان أن تحول الخلاف بينهما الى عداوة ..

وأخذ رمضان السويحلى يعارض بشدة فى امداد السيد احمد الشريف السنوسى بما كان يحتاج اليه فى منطقة سلطان ..

وأدت هذه المعارضة الى مشاكل خطيرة بينه وبين الامير عثمان فؤاد مما اضطر الامير العثمانى للاتفاق مع السيد أحمد على أن يتحرك بمركزه شرقا ليستقر فى ناحية العقيلة.

وطلب فى نفس الوقت الى الاستانة أن تعمل على مده بالغواصات رأسا فى قاعدته الجديدة ..

ولكن حدث بعد أن تم انتقال السيد أحمد الى العقيلة أن وجد نفسه فى مركز أسوأ مما كان عليه، فقد أصبح محاصرا بين ابن عمه السيد ادريس السنوسى فى الشرق .. وبين رمضان السويحلى فى الغرب ..

وكان كلاهما خصما له ..

واضطر الرجل لأن يبقى فى مكانه لايستطيع حراكا ..

ولم يعد له أى عمل على شاطئ البحر . .

ومع مرور الايام أخذ الرجل يعانى صعوبات كثيرة فى تموين رجاله وجنوده . .

وهنا يهمنى أن أقول . . اننى كنت شديد العطف على السيد أحمد الشريف السنوسى . . أولا لتأكدى من اخلاصه ووطنيته . . وثانيا : لكثرة ماعاناه من شقاء ومتاعب وهو يجاهد فى سبيل بلاده . . وثالثا : لأن معظم المصريين الذين خرجوا مثلى للجهاد فى سبيل بلادهم عن طريق الصحراء الغربية كانوا قد تطوعوا للقتال معه . .

وكان قائد قواته هو صديق المجاهد المرحوم محمد صالح حرب !

كان هذا شعورى تجاه الرجل ، وقد حاولت مخلصا أن أساعده فى حل مشكلة تزويده بكل ماكان يحتاج اليه مما تحمله الغواصات الالمانية الينا . .

ولكن رمضان السويحلى كان يقف دائما لجميع محاولاتى بالمرصاد .

وكان موقفى فى تلك الأيام فى أشد حالات الحرج . . أولا لتصور رمضان السويحلى أننى سأنتقم منه يوما للمذبحة التى دبرها وذهب ضحيتها صديق المرحوم الدكتور دسوقى . . وكان أن أخذ يراقب كل حركة تبدو منى ، ويفسرها أسوأ تفسير . . وثانيا لما عرفته من أن الاتراك لايطمئنون كثيرا للسيد أحمد الشريف السنوسى ، برغم ماكان يظهره من ولاء لهم . . فقد كانوا يقولون عنه . . انه رجل عنيد ولا يمكن أن يصبح آلة طيعة فى أيديهم . .

ولم يمنعنى ماكنت أشعر به من حرج من أن أحاول أن أفعل شيئا لمساعدة الرجل الذى أفنى حياته من أجل القضية التى آمن بها . . وهى قضية بلاده !

* * *

نسيت أن أقول أن سليمان البارونى عندما عين واليا لطرابلس كان قد اتخذ مركزا له فى فندق بنى عشير فى مدينة مصراتة . .

وأخذ أعيان البلاد ووفود القبائل يتوافدون عليه على أثر عودته من الاستانة لتهنئته . .

ومع توليه مهام منصبه الجديد أرسل الى قناصل أمريكا واليونان وهولندا وأسبانيا مذكرة يقول لكل واحد منهم :

ـ المرجو من جنابكم أن تخبروا دولتكم بما سيأتى :

نزلت على ساحل مصراتة قادما من دار الخلافة العثمانية الاسلامية حاملا الفرمان السلطانى العالى الشأن المتضمن تقليدى ولاية طرابلس وقيادة جنودها الاسلامية، فدخلت مصراتة تتقدمنا الراية العثمانية المقدسة، واستقبلنا الأهالى كبارا وصغارا، ثم وصلت زليتين وساحل الخمس فى مواكب لم يسبق لها نظير، وهناك جاءتنا الوفود من أطراف الولاية جميعها من فزان الى زواره وبحضورهم عقدت الصلح بين ترهونة ومصراتة فى نصف ساعة، وتقدمت الى مركز ترهونة ثم العزيزية ورفعت الراية العثمانية المنصورة بيدى على قلعة استحكام سيدى رمضان فى احتفال عظيم وانطلاق المدافع، ثم دخلت جنزور..

وفى يوم ١٣ صفر سنة ١٣٥٥ تم قراءة الفرمان العالى الشأن باحتفال عظيم على النحو الذى ستقرأونه فى صورة الاعلان الملفوف مع هذا، ومازال الطيار الطليانى يزعج النساء والفقراء المشتغلين بالحرث ويرمى القنابل الكبيرة عليهم..

سليمان البارونى

كانت تلك المذكرة بمثابة إعلان رسمى من الوالى الجديد بتوليه مهام منصبه الجديد واليا لمنطقة طرابلس الغرب وقومندانا لها أى قائدا لقواتها العسكرية..

ومع هذا الاعلان الرسمى قام سليمان البارونى بارسال نسخة من فرمان تعيينه فى هذا المنصب الجديد لكل واحد من هؤلاء القناصل الاجانب..

وانتظمت فى تلك الأيام حركة النقل بالغواصات بين سواحل الدولة العثمانية ومصراتة..

وعندما كان السيد احمد الشريف السنوسى فى الاستانة كان سليمان البارونى يبعث اليه بالرسائل ليستنير برأيه فى الكثير من المشاكل..

ولم يكن السيد أحمد الشريف السنوسى يبخل عليه بالرأى أو المشورة..

وأطلعنى سليمان البارونى مرة على واحدة من رسائل السيد أحمد الشريف اليه..

كانت تقول بالحرف الواحد:

- انه من عبد ربه مملوك أستاذه، ونائب أمير المؤمنين فى أفريقيا ووزيرها أحمد الشريف السنوسى..

حضرة صاحب العطوفة المحترم والى وقومندان طرابلس الغرب سليمان البارونى أدام الله علاه وأبقاه . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومرضاته . .

أما بعد ـ فقد وصل كتابكم الكريم يحمل تهانيكم بما تفضل به على شخصى الضعيف مولانا الخليفة الأعظم أيد الله سلطانه ، وإنى أشكركم من كل قلبى على حسن ودادكم وكريم سجاياكم ، وانى انتهز هذه الفرصة فأزف لكم عبارة التهانى والتبريك بما ولاكم اياه جلالةالسلطان الأعظم من ولاية طرابلس فنعم الرأى الذى أحلكم هذا المقام ، ومازلتم حائزين لثقة مولانا أمير المؤمنين ووفقكم الله لخدمة الدولة والله على الوجه الأكمل ، وأن يتم الاصلاح المرغوب فيه على أيديكم . .

وسرنا ما ذكرتموه من حصر العدو فى استحكاماته والتضييق عليه زاده الله ضيقا وأعانكم على التخلص منه . .

أما ما ذكرتموه من أمر العدو فى الجبهة الشرقية ، فلا أخالكم لاتعرف من ذلك مالا يعرفه غيرك من انى لو استطعت لقضيت عليهم ، وطهرت الأرض منهم اليوم قبل باكر وتعرف أيضا أنه ماتمكن مما تمكن منه الا بعد حركتنا نحو مصر ، ولولاها لكنا قذفنا به اليوم فى البحر ، وماكان له أثر ولا خبر . ولكن تلك الحركة ، ولو أنها أفادت الدولة والملة من وجوه كثيرة وشغلنا بها أكبر عدو لمقام الخلافة ، فإنها كانت سببا لنفوذ الطليان الذى لا يتألم منه أحد أكثر مما اتألم منه ، ولو أن لى قوة ماتأخرت يوما عن مناوأته ، ولكن ماذا أفعل وأنا صفر اليدين من كل شئ بعد هذا الجهاد والحمد لله .

أما أنتم فعلى الاستعداد التام بتتابع الغواصات لكم أمام عدو واحد اسأل الله أن ينصركم عليه . ونحن مع عدم كل شيء حتى ستر عورات العساكر أمام ثلاث قوات مستعدة لاقل حركة تبدو منا فلو لم نقابلها بقوة مثلها واستعداد كاستعدادها ، ربما وصل أذاها حتى جبهتكم . .

وفى الختام تقبلوا احتراماتى وتسليماتى وبلغوها لكافة اللائذين بالمقام واخوانكم المجاهدين الأبطال ، ودمتم والسلام . .

ذو القعدة سنة ١٣٣٥ هـ

أحمد الشريف

كانت هذه الرسالة بمثابة تقرير لتطورات الموقف فى منطقة طرابلس الغرب . .

وقد شعرت ، وأنا أقرأ كل كلمة فيها وكأن هده الرسالة كانت موجهة الى . .

وكان واضحا من كلماتها . . أن الرجل الذى حمل مسئولية الجهاد على كتفيه عدة سنوات يعيش فى الاستانة ، بينما كان قلبه وفكره مع المجاهدين الذين واصلوا الحرب من بعده ضد قوات الاستعماريين الانجليزى والايطالى .

الفصل السابع عشر

اقترحت مواجهة هزيمة تركيا باعلان الجمهورية فى طرابلس

كان البارون فون تاودن مور الالمانى قد انضم الينا فى مصراتة فعملت على اقناعه بأن ألمانيا قد تجد فى السيد أحمد الشريف السنوسى مؤيدا لمشروعاتها فى افريقيا.

قلت له.. ان الرجل اشتهر بخصومته البغيضة للانجليز من ناحية.. وللطليان من ناحية أخرى..

وحدثته عن رغبته فى الجهاد ضد الفرنسيين الذين كانوا يحتلون الجزائر، وهى مسقط رأس جده السيد محمد على السنوسى..

وكان هدفى من هذا الحديث أن أثير اهتمام الالمان بالرجل، وقد تصورت ان فى وسعى اقناعهم بأن تقوم الغواصات الالمانية بتزويده بما يحتاج اليه مباشرة فى العقيلة.. ولو خفية عن الاتراك.

وجاء الى مصراتة فى تلك الأيام صديقى المرحوم محمد صالح حرب يحمل رسالة هامة من السيد أحمد الشريف السنوسى الى الامير عثمان فؤاد.

كان يطلب اليه ان تقوم احدى الغواصات الألمانية بنقله الى الاستانة ليقابل أنور باشا وزير الحربية العثمانية لبحث تطورات الموقف. وبعدها اما أن يرجع مزودا بما يساعده على استرداد نفوذه فى طرابلس، واما أن يستريح فى الاستانة الى نهاية الحرب..

وكان المرحوم محمد صالح حرب فى أشد حالات النقمة على قتلة المرحوم الدكتور دسوقى، ومن كان معه، ولذلك عملت كل مافى وسعى لاخفاء مشاعره حتى لاأثير رمضان السويحلى عليه..

وانتهزت الفرصة لأجمع بينه وبين رمضان وبعض أعيان مصراتة..

ولا أريد أن أقول اننى جاهدت كثيرا حتى يعود المرحوم محمد صالح حرب سالما الى مقر السيد أحمد بناحية العقيلة!.

وكان تخوفى كله من أن يتربص به أنصار السويحلى فى طريق عودته باعتباره قائد قوات السنوسى .

* * *

عاد المرحوم محمد صالح حرب وأمكن فى نفس الوقت اقناع الامير عثمان فؤاد ورئيس أركان حربه بالعمل على انقاذ السيد أحمد من الوضع السيىء الذى أصبحت عليه قواته .

وكان أن تقرر العمل على نقله بواسطة احدى الغواصات الى الاستانة وساعدنا البارون تاودن فى عملية اقناع الامير العثمانى للسماح له بالسفر .

وكان فى تصور الالمان أن فى وسعهم اقناع السيد احمد بزيارة برلين فى طريقه إلى الاستانة ، وكان إعتقادهم أن استقبال القيصر له يمكن أن يقابل بترحيب من المسلمين بالاضافة الى تقوية نفوذ الالمان فى شمال افريقيا . .

وكان أن وضعت وزارة الحربية الالمانية تحت تصرف السيد أحمد غواصة قامت بنقله هو وقائد قواته المرحوم محمد صالح حرب الى أوربا .

واتفق على أن تبقى قواته فى منطقة العقيلة فى انتظار عودته ، على أن تتلقى من القيادة العثمانية فى مصراتة مايمكن أن تجود به عليها مما كانت تنقله الغواصات الالمانية اليها . .

أخيرا تفرقت هذه القوات وقد التحق بعض أفرادها بالسيد ادريس السنوسى . . وجاء آخرون الى مصراتة . .

وعندما اقترح الالمان على السيد أحمد الشريف السنوسى القيام بزيارة برلين ومقابلة القيصر فى طريقه الى الاستانة لم يوافق وقال لهم إنه يفضل أن يزور الخليفة فى الاستانة أولا . . وأن عليه أن يواصل رحلته بعد نزوله على الشاطئ الاوربى الى تركيا مباشرة . .

ومما سمعته من ربان الغواصة التى نقلت السيد أحمد الى أوربا عندما قابلته مرة أثناء احدى رحلات غواصته الى مصراتة . . أنه قد دهش كثيرا لشجاعة الرجل وتجلده وتقواه . فقد كان يراه قائما للصلاة فى حجرته الضيقة داخل الغواصة لساعات طويلة . .

كان ذلك غريبا على قائد الغواصة الالمانى . .

لكنه لم يكن غريبا على الذين عرفوا السيد أحمد . . وعرفوا انه كان متعودا على قضاء

الليل كله فى الصلاة.. وانما كانت عادته اليومية أن يقرأ نصف القرآن أثناء صلاة التراويح..

* * *

قابل السيد أحمد الخليفة محمد رشاد فى الاستانة..

كما استقبله أنور باشا وزير الحربية العثمانية.

واستطاع الرجل أن ينفى كل ماكان يتردد حوله من اشاعات..

وكان أن حصل على وعد بأن تعمل الدولة العثمانية على شد أزره ومده بالرجال والعتاد..

وحدث فى تلك الأيام أن توفى السلطان محمد رشاد. وقد تمت مبايعة السلطان وحيد الدين بالخلافة مكانه.. وكان السيد أحمد هو الذى قلده سيف الخلافة وبذلك ارتفعت مكانته بالدرجة التى كانت كافية لأن تعمل الدولة العثمانية على تحقيق مطالبه ومساعدته فى استرداد نفوذه فى طرابلس..

ولكن انتهاء الحرب لم يلبث أن قضى على جميع آماله..

واضطر الرجل لأن يبقى فى الاناضول عدة سنوات ناصر خلالها حركة كمال أتاتورك.. ثم اضطر لأن يهاجر الى مكة..

وعاش الرجل متنقلا بين مكة والمدينة، ولم أقابله لمدة ٢٦ سنة حتى كان عام ١٩٤٨ عندما عثرت عليه يعيش فى حالة سيئة للغاية فى ناحية أبو قبيس..

ولم يكن منى الا أن جمعت له نحو ١٥٠ جنيها من الذهب من بعض اخوانى أهل الخير، ثم قدمتها اليه..

وكانت علاقتى بجلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود تسمح برجائه والطمع فى بره ولم يكن فى وسعى الا أن أذكر لجلالته أمل المسلمين فى أن يلقى السيد أحمد كل رعاية من جلالته..

ولم يدخر جلالة العاهل السعودى العظيم وسعا فى تقديم كل مساعدة للرجل الذى عاش حياته فى صراع رهيب ضد قوى الاستعمار الانجليزى والايطالى فى بلاده وضد الذين حاربوه من أبناء وطنه.

* * *

وهنا يجب أن أقول كلمة للتاريخ..

كان السيد أحمد الشريف السنوسى مجاهدا عظيما.. وكان رجلا لا يعرف اليأس..

واذكر أننى فى الوقت الذى كنت مشغولا فيه بتوفير ضروريات الحياة له.. كان هو لايزال على آماله العريضة، مؤمنا بأن دوره لم ينته.. كان يقول إن رسالته لم تتم.. وأن عليه أن يستأنف الجهاد لطرد الطليان والفرنسيين من شمال افريقيا..

وكم حاولت اقناعه بالحقيقة.. ولكنه كان رجلا كما قلت لايعرف اليأس، وأظنه كان متأثرا ببعض تنبؤات تلقاها من مشايخه..

كانت تقول له إن دوره آت لاريب فى ذلك..

ولكن الرجل لقى ربه بعد بضع سنوات ودفن فى البقيع بجوار الصحابة والمجاهدين الاولين من المسلمين..

وكانت نهاية الرجل المجاهد البطل.

* * *

اعود مرة اخرى الى مصراته عندما أعلن وفاة السلطان محمد رشاد..

لقد أذيع بها بيان رسمى موجه الى الجيش والاسطول باسم السلطان الجديد محمد وحيد الدين يعلن فيه تربعه على عرش الخلافة العثمانية..

وجاءنا فى مصراته نص هذا البيان (الهمايونى) كما كانوا يطلقون عليه كتبليغ رسمى من أنور باشا وزير الحربية العثمانية فى شمال افريقيا..

وكانت ترجمة هذا البيان من اللغة التركية الى اللغة العربية تقول بالحرف الواحد:

- ترسما لآثار أجدادى العظام، وفى ضريح حامل علم سيدنا رسول الله حضرة أبو أيو الانصارى المبارك تقلدت سيف أمير المؤمنين حضرة عمر الفاروق بيد وزيرى المجاهد فى سبيل الله السيد أحمد الشريف السنوسى، وبهذه المناسبة الحسنة ايضا إننى قد تحمست جدا لما اظهرته نحوى الاركان البحرية وامراء الضباط من المحبة والاخلاص..

ان هذا السيف المقدس الذى نقل الى العثمانيين أوصاف حضرة عمر الكبير قد حمله اجدادنا العظام الذين قادوا جيوشنا الباسلة وأساطيلنا لاعلاء كلمة الله واقتحموا هذه

الممالك القيمة التى نعيش عليها واليوم ايضا ها نحن نحارب فى سبيل الله ، وهذا التراث الذى تركه لنا أجدادنا وديعة لإعلاء شأن العثمانية والمحافظة عليها لأننى عزمت على السير ثابتا فى طريق أسلافى العظماء متوكلا على توفيقاته سبحانه وتعالى وانتم يا ابنائى العساكر الذين تحملتم حتى الآن فى سبيل وطننا المبارك المحن الكثيرة المنطوية على التراحم ستنالون المكافآت المادية والمعنوية عما أحرزناه ولله الحمد على التوفيق ، فاستمروا على تضحياتكم الى أن نصل الى الغاية ، أننى أدعو للعاملين فى قدسية طريق الحق المشروع بالنصر الالهى الموعود .. وأستودعكم الى توفيقات الله الحمدانية فى كل مكان وأسلم عليكم جميعا .

محمد وحيد الدين

***

كانت وفاة الخليفة محمد رشاد وتربع الخليفة الجديد محمد وحيد الدين على عرش الخلافة فى الصيف ..

وفى أوائل الخريف أخذت ترد الينا الانباء عن سوء الحال فى الدولة العثمانية ..

كما ترددت أنباء أخرى كثيرة عن انتشار المجاعة فى دول وسط أوروبا ..

وبين الآونة والاخرى كانت الطائرات الايطالية تقوم بالقاء المنشورات التى تؤكد قرب هزيمة الألمان ، وتحذر الأهالى العرب من التورط مع هؤلاء الألمان وحلفائهم الأتراك ..

وفجأة التقطت محطتنا اللاسلكية خبرا يعلن انهيار المقاومة فى بلغاريا ..

وكان هذا يعنى بداية النهاية للدولة العثمانية وأن الطريق قد أصبح مفتوحا الى الاستانة أمام قوات الحلفاء ..

وبسرعة أخذت أفكر فى احتمالات الموقف ، وكان علينا أن نعد أنفسنا لمواجهة تطورات الامور اذا ما تدهورت الحالة ، واضطرت الدولة العثمانية للتخلى عن حلفائها العرب فى طرابلس . .

وفى تلك الايام كانت علاقتى برمضان السويحلى قد توثقت الى درجة كبيرة ..

كان رجلا مهيبا وله شخصية فذة ..
وكان له نفوذ عجيب على أنصاره وأتباعه ..

ورمضان السويحلى أو رمضان الشتيوى السويحلى كما كان بعض الناس يطلقون عليه

عاش وتربى بزاوية المحجوب بناحية اسمها أم البخور بمدينة مصراته..

كان الابن الأكبر لرجل اشتهر بالفروسية والشجاعة، اسمه الشتيوى بن أحمد السويحلى..

وقد عاش هذا الرجل حتى شهد بعض معارك ابنه البطل وتوفى فى سنة ١٩١٨، وقد دفن فى مدينة طرابلس..

وكان لرمضان اثنان من الاخوة.. أحمد وسعدون وأربع أخوات.. فاطمة وأم السعد وعيشة وحواء..

وتزوج رمضان اثناء المعارك من واحدة من بنات عمه.. وهى فاطمة بنت عمر شقلوف، وقد بقيت على ذمته حتى قتل فى المعارك فتزوجها أخوه سعدون الذى تولى القيادة من بعده.

وأنجب سعدون من زوجة أخيه طفلا وطفلة.. سليمان وقد توفى، ولم يكن عمره تجاوز السنتين فى قلب الصحراء اثناء رحلة عائلات الهاربين الى صحراء الفيوم فى مصر بعد انتهاء المقاومة.. وسكينة وقد توفيت ايضا وهى طفلة بعد وصولها الى مدينة الفيوم وكانت دون الرابعة من عمرها.

* * *

المهم.. كان علينا ان نتدارس الموقف لمواجهة احتمالات المستقبل.

وفى بت رمضان السويحلى.. التقيت مع زعيم قبائل أورفله الشيخ عبد النبى أبو الخير.. وكان رجلا شجاعا وقد اشتهر بالدهاء..

وكان معنا عدد من زعماء القبائل وأنصار رمضان السويحلى عندما جلسنا نفترض كل الاحتمالات ونقلب الموقف من جميع جوانبه.

وكانت الانباء قد أخذت تتكاثر علينا فى مصراته لتشير الى تدهور الموقف، وان هناك احتمالا بأن تتقدم الدولة العثمانية بطلب الهدنة..

وتفجرت المناقشة عندما وجهت سؤالا مباشرا الى الحاضرين..

قلت لهم: لنفرض أن الدولة العثمانية قد انهزمت فى الحرب.. فماذا يمكننا أن نفعل لمواجهة مثل هذا الموقف؟..

كان سؤالى مفاجئا .. وخشيت أن يتبادر الى اذهان الحاضرين أن هزيمة الدولة العثمانية قد وقعت فعلا، ولذلك بادرت أقول لهم.

إنه مجرد افتراض .. وعلينا أن نواجهه ونحن نتدارس كل الاحتمالات ..

والتفت الشيخ عبد النبى ناحيتى، وهو يقول :

ـ ما رأيك انت ؟ ..

قلت له بسرعة : ليس أمامنا الا أن نقيم حكومة عربية يشترك فيها أعيان البلاد تحت رعاية العثمانيين حتى إذا ما وقع مثل هذا الافتراض أمكن للبلاد أن تستمر فى جهادها وأن تطالب بحريتها واستقلالها ..

وعلت الدهشة وجه الحاضرين جميعا.

* * *

كانت أول مرة تطرح فيها فكرة انشاء حكومة عربية لمواصلة الجهاد ..

ووجد رمضان السويحلى فى تنفيذ الفكرة الحل للموقف كله فى حالة انهزام الدولة العثمانية فى الحرب، ولذلك بادر بالترحيب بالفكرة ..

وكان أول من وافق على تنفيذها.

أما الشيخ عبد النبى أبو الخير، فقد تردد قليلا .. ثم راوده شعور الحذر وسوء الظن، وكان من السهل على أن ادرك السبب، فقد تبادر إلى ذهنه إحتمال بأن أكون مدسوسا من العثمانيين للتعرف على ما كان يجول بخاطره هو ورمضان لمواجهة الموقف فى حالة انهزام الدولة العثمانية فى الحرب .. ولذلك لم يتردد فى أن يشير الى رمضان بيده محذرا من الاستمرار فى الكلام ثم أخذ يردد كلاما يؤكد به اخلاصه هو ورمضان للدولة العثمانية، وتعلقهما بها طول حياتهما ..

وكان الشيخ عبد النبى وقتئذ من أعز اصدقاء رمضان ..
وكان أيضا مستشاره وساعده الايمن.
ولكن رمضان كان قد اقتنع باقتراحى فتحمس له، وقرر أن يعمل على تنفيذه.

وكان مولد الجمهورية الطرابلسية .. أول جمهورية عربية تقوم على الارض العربية بمجرد أن أعلن انهزام الدولة العثمانية فى الحرب ..

الفصل الثامن عشر

انتهت الحرب.. فحاول الأمير التركى الهرب فى آخر غواصة

مرت بضعة أسابيع انهارت اثناءها مقاومة الجيوش العثمانية..

وكانت محطتنا اللاسلكية أول من التقط انباء اعلان الهدنة بين الدولة العثمانية والحلفاء..

ولما عرفنا الخبر فى مقر قيادة الامير عثمان فؤاد فى مصراته، قررنا تكتمه..

وانتهزت الطائرات الايطالية الفرصة فأخذت فى القاء كمية هائلة من المنشورات تعلن فيها انتصار الحلفاء واندحار العثمانيين وحلفائهم وعقد الهدنة بين العثمانيين والبلغار.

وكان الاهالى قد اعتادوا على تصديق بلاغاتنا واتهام الايطاليين بالكذب فى بلاغاتهم ومنشوراتهم ولكن اعلان انتهاء الحرب وكان له صدى قوى بالدرجة التى جعلت الأهالى يترددون كثيرا فى تصديق بلاغاتنا.

ولم تفلح محاولتنا لتكتم أخبار الهدنة.

وأصيب الامير العثمانى بانزعاج شديد وكان أول ما تبادر الى خاطره هو أن ينجو بنفسه فى أول غواصة تصل الى الساحل الطرابلسى.. ولكن رئيس أركان حربه عبد الرحمن نافذ كان رجلا عاقلا.. وكنت قد تحدثت اليه من قبل عن أفكارى حول اعلان الجمهورية فى طرابلس..

ولم انتظر. وبادرت بدعوة الجميع الى اجتماع عاجل للتشاور فى الموقف. وفى هذا الاجتماع استقر رأينا على اقامة حكومة أهلية تسلم اليها مقاليد الأمور، واتفقنا على أن يقوم العثمانيون بتسليم كل ما فى أيديهم من أموال وأسلحة وعتاد الى هذه الحكومة، لعلها تستطيع أن تستمر فى المقاومة حتى يتسنى لها أن تعقد صلحا مشرفا يق البلاد غائلة الفتح الاستعمارى والاستيلاء عليها بالقوة..

ومع الموافقة على انشاء هذه الحكومة اقترحت أن تكون هذه الحكومة جمهورية، وأن تبادر باعلان استقلال طرابلس، حتى تضع العالم كله امام الامر الواقع..

وفى تلك الايام كانت تتنازع أمر السلطة فى طرابلس قوى كثيرة..

وكان فى رأيى ان تسليم البلاد الى رجل واحد قد يؤدى الى ايقاظ الفتن والصراعات القبلية التى كانت قد خمدت بصفة مؤقتة فى حرارة الجهاد والحرب ضد الايطاليين..

وكان علينا ان نبحث عن اسلوب مناسب لهذه الجمهورية حتى يكون اعلانها باتفاق الجميع.. فقد كان انتخاب رجل واحد ليكون رئيسا لهذه الجمهورية مشكلة عويصة..

وكان هناك احتمال كبير الا يلقى انتخاب مثل هذا الرجل الرضا والقبول فى بادىء الأمر!

* * *

كان على أن أمهد لإعلان الجمهورية، ولذلك بادرت بالاتصال بالقوى المتصارعة من أعيان البلاد وزعمائها..

ووصلت فى تلك الاثناء غواصة المانية الى الشاطىء الليبى عند منطقة اشتهرت باسم (قصر العرعار).. وهناك من يطلق عليها اسم (عرعارة).. كانت آخر غواصة تصل الينا أثناء الحرب..

وبينما كنت مشغولا باتصالاتى مع أعيان طرابلس، فوجئت بالامير عثمان فؤاد يستدعينى، ثم يطلب الى أن أعد نفسى للسفر معه..

قال لى.. انه يرى ان نغادر ليبيا دون أن نخبر أحدا برحيلنا..
ولما حاولت أن أقول له.. اننى افضل أن ابقى فى مصراته لا تمام مشروع اعلان الجمهورية.. أصر على رأيه وهو يقول لى:

- انك ضابط تحت قيادتى فى الجيش العثمانى، وهذا أمر عسكرى.
وهكذا لم يكن امامى الا أن أوافق علي مرافقته فى محاولته النجاة بنفسه..

* * *

غادرت مصراته مع الامير وتوجهنا الى مكان الغواصة.. فلما وصلنا الى مكانها تبين لنا أنها قد ذهبت، وقد ترك لنا قائدها رسالة يقول فيها أنه سيعود فى اليوم التالى..

واضطررنا للمبيت عند الشاطىء..

ويبدو ان رمضان السويحلى كان قد عرف بنية الأمير فى السفر، فقد بعث الينا فى الصباح من يقول للامير أنه يستودعه الله .. ولكنه يرجو فى نفس الوقت الا يصطحبنى الامير معه ..

ولما أخبرنى الامير بذلك قلت له:

- الحق اننى بين عاملين .. عامل النجاة بنفسى بعد أن أصبح الامل ضعيفا فى خدمة هذه البلاد. وعامل الحياء من النجاة بنفسى بينما يريد السيد رمضان وزملاؤه أن يستمروا فى المقاومة الى آخر رمق فى حياتهم ..

وابتسم الأمير وهو يقول لى:

- إننى أنصحك بأن تذهب معنا ..

وكنا نقف فى تلك الاثناء على الشاطىء .. الأمير وأنا .. والامير برجانزا الالمانى وبعض الضباط الاتراك الذى جاءوا معه من الاستانة ومن بينهم ياوره الخاص شرف الدين ..

وكان معنا أيضا المجاهد سليمان البارونى، الذى ترك مكانه فى طرابلس عندما عرف بما حدث للدولة العثمانية، وجاء الى الأمير فى مصراته ليصطحبه معه الى الاستانة ..

وأثناء هذا الحديث فوجئت بنافذ بك رئيس أركان حرب الأمير وكان يشفق على موقفى، وهو يؤيد نصيحة الأمير ..

لقد التفت ناحيتى وهو يقول لى:

- أننى أقدر إحساسك .. ولكن الموقف أصبح واضحا، وفى رأيى أنه لم يعد هناك أى أمل .. ولا أظن ان هناك أية فائدة من أن تلقى بنفسك الى الموت ..

وجاءنى فى تلك الاثناء رسول آخر من رمضان السويحلى ليخبرنى بأن رمضان يرجو منى ألا أسافر مع الاتراك .. ويقول لى .. انه فى حالة اصرارى على السفر، فان رمضان قد اقسم على أن يعمل على منعى بالقوة حتى أبقى بجواره.

وكانت هذه الرسالة كافية لأن اقرر البقاء حتى أساهم مع رمضان وزملائه فيما كنا قد بدأناه من عمل كبير لإعلان الجمهورية.

* * *

خطر لى فى تلك الاثناء أن أعمل على تعطيل سفر الامير عثمان فؤاد ومن معه، اعتقادا

منى بأن وجودهم فى البلاد يمكن أن يساعد على تكوين الحكومة الوطنية.

وكانت ألمانيا وقتئذ لا تزال تقاتل، ولم تكن قد عقدت الهدنة كحلفائها الآخرين ولذلك اتجهت الى بعض أفراد حاشية الأمير الالمانى وافهمتهم أن العرب قد صمموا على تكوين حكومة أهلية.. وأنهم لن يتوقفوا عن الحرب ضد الطليان وحلفائهم بكل ما استطاعوا من قوة.. وقلت لهم.. أن الحكومة الجديدة ستكون مخلصة لالمانيا..

وعرف الامير الالمانى بذلك، فانتابه الحماس، ثم جاء يسألنى عن صحة ما سمعه من رجال حاشيته وهو يقول لى:

- هل حقيقة ان العرب سيقيمون حكومة وطنية؟.. وهل يمكن لهم أن يستمروا فى المقاومة..؟.

وكان ردى:

- انه ليس امام العرب الا أن يفعلوا ذلك لأن كل واحد من الزعماء العرب يعرف أن التسليم للايطاليين هو بمثابة حكم على نفسه بالاعدام..

ولما وجدت الامير الالمانى قد تحمس للفكرة بادرت أقول له:

- فى رأيى الا يسافر الامير عثمان فى الغواصة، وعليه ان يعود الى مصراته وأن يبادر بدعوة أعيان البلاد الى مؤتمر كبير.. وفى هذا المؤتمر يمكن العمل على التوحيد بينهم، واعلان قيام الحكومة التى نريدها..

وأطرق الامير الالمانى قليلا.. وكان واضحا انه قد اقتنع تماما بفائدة قيام الحكومة الوطنية فى طرابلس.

* * *

وفى اليوم التالى.. عادت الغواصة. فبادر الامير الالمانى بايفاد احد رجال حاشيته الى قائد الغواصة بحجة الاتفاق معه على عملية نقل الامير التركى ومن معه الى أوروبا..

وعاد الرسول بعد فترة من الوقت ليقول أن قائد الغواصة اعتذر بعدم امكانية اخذ أحد معه فى رحلة عودته وانه يطمئن الامير بأنه سيعود مرة أخرى لحمله الى الشاطىء الأوروبى.

وابتسمت عندما سمعت ذلك وادركت ان الأمير الالمانى أوحى الى قائد الغواصة بالاعتذار عن عدم نقل الامير التركى معه بواسطة رسوله..

وان كنت قد عرفت بعد ذلك ان رمضان السويحلى قد لعب هو الآخر، وهو فى مصراته دورا مثيرا فى منع الغواصة من حمل الأمير التركى ومن معه..

كان قد عرف بعزم الأمير على مغادرة مصراته فى محاولة للنجاة بنفسه.. ولم تكن العلاقات فى تلك الآونة بينه وبين الامير على مايرام.. وكانت ظواهر سوء التفاهم وعدم الانسجام بين الاثنين واضحة.. فقد كان رمضان يتهم الامير بأنه لا يطلع أحدا على ماكانت ترسله اليه الاستانة من هدايا، وبأنه كان يحتفظ بها لنفسه.

وأن من بين ما كان الأمير يحتفظ به بدلة تشريفة.. وسيفا من الذهب مرصع بالاحجار الكريمة وقد كتب عليه اسم رمضان الشتيوى..

وبمعنى آخر.. كانت الخلافات بينهما مستمرة سواء فى المحيط الادارى والسياسى أو فى مجال التخطيط العسكرى..

وقد حدث بعد ان غادرنا مصراته فى طريقنا الى مكان الغواصة التى أراد الامير التركى أن ينجو بها بنفسه، ان توقفنا فى منطقة اسمها قصر أحمد..

وكانت توجد عند هذه المنطقة نقطة عسكرية للمراقبة والانذار عند الخطر، وقد قام الامير بالاتصال فى التليفون من هذه النقطة بمأمور سر القيادة وكان اسمه بلال افندى ليطلب اليه ان يرسل فورا ثلاثة جمال الى البيت الذى كان مخصصا لسكناه فى مدينة مصراته، وأن يحملها عدة صناديق قال إنه قد خلفها فى إحدى حجرات البيت..

واعتذر بلال افندى عن عدم تنفيذ تعليمات الأمير وهو يقول له:
- آسف ياجناب البرنس.. لأن قوات رمضان تحاصر الآن البيت وهى تشدد الحراسة حوله..

وأدرك الأمير ان رمضان قد عرف بمحاولته الهرب فثار وأزبد..
وقيل فى تلك الأيام.. ان رمضان استدعى البارون الالمانى. وكان قد تخلف فى مصراته للاشراف على أجهزة الاتصالات اللاسلكية، ثم كلفه أن يطلب الى قائد الغواصة الاعتذار عن عدم حمل الامير التركى معه..

وأنا نفسى لا أستطيع أن أجزم بصحة ما سمعته فى هذا الصدد.. كما ان الفرصة لم تسنح لى بعد عودتنا الى مصراته بعد ذلك لمعرفة حقيقية ما حدث بالضبط.. الا أننى أذكر فعلا أن البارون الالمانى قد لحق بنا فى صباح اليوم التالى.. وكنا كما سبق أن قلت قد بتنا ليلتنا عند الشاطىء فى انتظار عودة الغواصة..

وعندما ظهرت الغواصة تبادل البارون الألمانى معها عدة إشارات ضوئية وبعدها عرفنا أن الغواصة لن تحمل معها أحدا منا..

* * *

لم تفلح محاولة الأمير التركى للهرب بواسطة الغواصة الألمانية.. وكما فهمت كانت الغواصة قد خرجت من ميناء (بولا) فى النمسا. وبعد إبحارها بحوالى ثلاثين ساعة احتلت ايطاليا هذا الميناء.. وكانت حجة قائد الغواصة التى تذرع بها فى اعتذاره للامير.. ان خط الرجعة قد قطع على غواصته بالدرجة التى جعلته فى حالة خطيرة، وجعلت المياه التى يتحرك فيها غير مأمونة..

ولكن الامير اصر على ركوب الغواصة.. قائلا.. انه يريد ان تحمله الغواصة مهما كانت الحالة..

وأصر قائد الغواصة على اعتذاره، وهو يقول:

ـ آسف لا يمكن أن أحملك معى..

ولم يكن فى وسعنا الا أن نعود مرة أخرى الى مصراته، وبصحبتنا الأمير التركى وهو فى حالة يرثى لها من اليأس..

وكان علينا ان نكذب بعض الاشاعات التى انتشرت بسرعة حول محاولة الامير الهرب..

قلنا لهم انهم قد أخطأوا كثيرا عندما تبادر الى ذهن بعض الناس ان الأمير كان يزمع مغادرة البلاد..

واطمأن الامير عندما جاء رمضان السويحلى لزيارته ثم قال له بالحرف الواحد:

ـ أنا.. ومن معى فداك.. ولا يكون عندك أى تفكير.. وأنت مازلت القائد وسنواصل الجهاد تحت قيادتك..

ولم يدرك الأمير ساعتها أن رمضان السويحلى كان يسخر به..

* * *

لم انتظر وبادرت الى العمل بسرعة..

وكان أن ذهبت الى رمضان وأخذت فى مصارحته بخطورة الحالة، الامر الذى يستدعى مواجهة الموقف بسرعة..

قلت له.. انه ليس أمامنا الا سبيل واحد هو أن نجمع الناس على اختلاف شيعهم وأمصارهم للجهاد بمحض رغبتهم واختيارهم.

واستمع رمضان السويحلى الى طويلا.. ثم أخذ يتكلم بحماس عن الحرب ضد الايطاليين..

ان هزيمة الاتراك أو انتصارهم لم يكن يهمه فى شىء.. كما أنه لم يكن يفكر فى الخطر الذى كان يشغل بالنا، وكان كل الذى يثير اهتمامه فى تلك الأيام هو أن يستمر الجهاد..

ولمعت عينا الرجل الصقر ببريق عجيب وهو يقول لى:

ـ عبد الرحمن.. أنا موافق.. وتأكد أننى لن أكون عقبة فى سبيل اتحاد كلمة الشعب..

ولم اتمالك نفسى من الفرحة، فأخذت اصافحه، وانا أهز يده بقوة، ثم قلت له:

ـ هذا عهدى بك دائما يارمضان.. ولا أظن أن أحدا يريد منك أكثر من ذلك!



رشحه عزام ملكا على ليبيا

■ الأمير عثمان فؤاد.. رشحه عبد الرحمن عزام ليكون ملكا على ليبيا وكانت القبائل على استعداد لمبايعته، ولكنه اعتذر. وكان أن اتجه تفكير عزام لإعلان الجمهورية الطرابلسية..

الفصل التاسع عشر

عرضت عرش طرابلس على الأمير العثماني ولكنه لم يوافق على أن يصبح ملكا!

راودتنى فى تلك الايام فكرة اعلان استقلال طرابلس والمناداة بالأمير عثمان فؤاد ملكا على طرابلس..

وكان فى تصورى أن فى وسعى أن أجمع كلمة الناس حوله باعتباره أميرا عثمانيا بدلا من أن يؤدى اختيار أى رجل آخر الى إثارة الفتن، والقلاقل بين القبائل..

ولم انتظر وبادرت بعرض الفكرة على الأمير، فلم يتحمس لها فى بادىء الامر.. كما أنه لم يرفضها. .ما عاودت الحديث معه حول الموضوع فى اليوم الثانى فوجئت به يصرخ فى وجهى قائلا..:

- هذه مهزلة.. وفى رأيى انها لن تؤدى الى نتيجة.. وحاولت اقناعه بوجهة نظرى، الا أنه قاطعنى بحدة وهو يطلب الى عدم إثارة الموضوع معه مرة أخرى..

وكما فهمت.. استطاع بعض مستشاريه من الضباط الاتراك اقناعه بأن موافقته على أن يصبح ملكا على طرابلس لن تؤدى الى نتيجة.. وانها قد تكون سببا فى فقدانه لحقوقه كأمير من أمراء البيت العثمانى.

ولم يكن أمامى بعد أن فشلت فى اقناع الامير بالموافقة على المناداة به ملكا الا أن أرجع مرة أخرى الى فكرة اعلان الجمهورية. وأن أعمل على انتخاب مجلس وطنى لإعلان الجمهورية بواسطة مؤتمر كبير يضم كل من له نفوذ فى البلاد من أعيان وعلماء ورؤساء للقبائل والعشائر..

وذهبت الى عبد الرحمن نافذ بك رئيس أركان حرب الأمير..

قلت له.. ليس أمامنا الا أن نعمل على اعلان الجمهورية فى الأراضى الطرابلسية..

وكانت مناقشة طويلة انتهت بموافقة الرجل على رأيى..

وبسرعة امسكت ورقة وقلما، ثم دفعته للاشتراك معى فى وضع النظام الأساسى للحكومة الجديدة..

ولكن كانت المشكلة .. هى تخوفنا من أن يؤدى اختيار شخص لرئاسة الجمهـورية الى اثارة الفتن بين مختلف الزعامات والقبائل ..

ووجدنا الحل .. عندما اتفقنا على أن تكون رئاسة الجمهـورية لمجلس يطلق عليه اسـم (مجلس الجمهورية) على ان يتكون من أربعة : ويكون هو صـاحب السـلطة التنفيذية .. وعلى أن يقوم هذا المجلس بتعيين قائد عام للجيش وآخر للشرطـة .. وأن تكون له سـلطة تعيين مديرى المصالح المختلفة ، وحكام الاقاليم .

واتفقنا ايضا على انشاء مجلس آخر هو مجلس الشورى ليتولى السلطة التشريعية وليقوم بمساعدة المجلس الجمهورى فى عمله على أن يضم هذا المجلس ثلاثين عضـوا يمثلون مختلف القبائل والعشائر .

وان يتم انتخاب المجلسين بواسطة مؤتمر كبير يضم كل من له نفـوذ فى البلاد من أعيان وعلماء ورؤساء للقبائل والعشائر ..

* * *

أعددنا النظام الأسـاسى للحكومة الجـديدة . ثم أخـذنا فى اختيار اسماء الرجـال الذين رأينا ضرورة مشاركتهم فى العمل ضمانا للوحدة الوطنية ، وحتى يتسنى للجمهورية الجديدة النجاح ..

وكان أن رشحنا أربعة أسماء لعضوية المجلس الجمهـورى .. كما اختـرنا اسماء من رأينا صلاحيتهم لعضوية مجلس الشورى ..

واخترنا القائد العام للجيش والشرطة ومدير المالية وحكام الأقاليم ..

ولا أظن أننا تركنا شخصا دون أن نرضيه بوظيفة أكبر شأنا مما كان هو نفسه يتوقع .. وبمعنى آخر .. أعددنا كل شىء فى سرية كاملة لقيام الجمهورية الجديدة ..

وكان رمضان السويحلى ، على بينه بكل خطوة من خطواتنا ..

كنا نتشاور معـه فى كل كبيرة وصـغيرة .. وكان اختيار أسماء جميع المرشـحين لمناصـب الجمهورية الجديدة بموافقته ..

وكان رأيه معنا فى أن يبقى كل إعدادنا سرا حتى يتسنى لنا اعلان الجمهـورية فى المؤتمر الوطنى الكبير الذى كان علينا تنظيمه ..

* * *

اتفقنا على دعوة الناس للاجتماع فى مؤتمر وطنى كبير فى ناحية اسمها (مسلاته) .. وتقع فى نهاية جبال الاطلس من ناحية الشرق ..

وتوجد فى هذه المنطقة قلعة اسبانية قديمة يرجع تاريخها الى عدة قرون وهى تقع فوق جبل مرتفع .

وكنا قد عرضنا الامر على الامير عثمان فؤاد العثمانى .. قلنا له إننا سنقوم بدعوة الناس الى هذا المؤتمر باسمه .. ولما وافق الأمير على ذلك بادرنا بارسال خطابات الدعوة الى مختلف الجهات بواسطة مبعوثين اخترناهم بدقة وعناية ..

وهكذا تم كل شىء فى سرية وتكتم شديد ..

نمرو ٤٧٨

جناب عضو مجلس شورى الحكومة الطرابلسية السيد عبد الرحمن افندى برغان

صار انتخاب جنابكم عضواً بمجلس شورى لدى الحكومة الطرابلسية بناء عليه فعليكم سرعة قدومكم واثبات وجودكم لاجل حضوركم فى المذاكرة افندم [illegible]

عضو جمهورية الحكومة الطرابلسية

■ واحدة من بطاقات الدعوة التى أرسلت على عجل إلى الأعيان ورؤساء القبائل الذين تم انتخابهم أعضاء فى مجلس الشورى للاشتراك فى الاجتماع الكبير الذى أعلنت فيه الجمهورية ..

وفى اليوم الذى حددناه .. وكان على ماأذكره فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ، التقينا جميعا فى المسجد الكبير المقام عند سفح الجبل الذى تقع فوقه القلعة الأسبانية القديمة ..

ولما اكتمل جمعنا دخل الأمير ومعه خطبة كنا وضعناها من قبل بالاتفاق معه وبعد قيامه بتحية المجتمعين ليتمنى لهم النجاح فيما سيتشاورون فيه ، وما ينتهون اليه ، قال انه سيترك لى شرح الهدف من الاجتماع الكبير ..

وهنا يجب على أن أقول شيئا هاما . . كان معظم الحاضرين يعرفون الهدف من هذا الاجتماع ، وكانوا جميعا من المجاهدين الذين يخشون على حياتهم وعلى أهلهم من فتك الايطاليين بهم فى حالة عودتهم للسيطرة على البلاد . . وبالتالى لم تكن هناك صعوبة فى جمع كلمتهم على ما كنا قد اتفقنا عليه . . كما كان لهيبة الدولة العثمانية ، ونفوذ الأمير العثمانى الذى حضر الاجتماع اثر كبير فى نجاح المؤتمر . .

ويحتمل كثيرا أن يكون بعض الناس قد تصوروا ان اعلان قيام الجمهورية الطرابلسية فى هذا المؤتمر كان مجرد حركة مؤقتة اقتضتها الظروف السياسية والعسكرية حتى يتسنى اعادة النفوذ العثمانى مرة أخرى الى البلاد . . الا أن الواقع يؤكد غير ذلك فقد وافق المؤتمر بالاجماع على قرار اعلان الجمهورية ايمانا من الحاضرين بأنه لم يكن هناك حل آخر للاستمرار فى الجهاد سواه . .

وأذكر اننى قمت فى المسجد خطيبا أبين للحاضرين كيف نهض العرب دون أية مساعدة من الدولة العثمانية أو غيرها ، وكيف أنهم بالصبر والشجاعة استطاعوا أن يطردوا الطليان من بلادهم ، وأن يستولى على ما كان فى أيديهم من أسلحة وذخائر ثم انقلبوا عليهم يحاربونهم بنفس اسلحتهم وذخائرهم ، وكيف أمد الله العرب لما أخلصوا له بسلاح لم يكونوا يحسبون له حسابا جاءتهم به الدولة العثمانية بالمراكب الشراعية والغواصات برغم سيطرة الاعداء على البحار ، ثم أخذت اشرح لهم تفاصيل النظام الجديد الذى أعددناه ، وقلت لهم إن الدولة العثمانية هى التى تقترح هذا النظام عليهم . .

وأعلنت أن الأمير العثمانى سيبادر عند إعلان الجمهورية بوضع كل ما بين يديه من أموال وأسلحة وذخائر ومؤن تحت تصرفها .

* * *

أدرك الحاضرون قوة اتحادهم ، فأخذوا يصفقون مع حرارة كلماتى ، ولم أنتظر وبادرت بوضع مصحف كبير وكتاب البخارى أمام واحد من كبار العلماء كنا قد وجهنا اليه الدعوة للاشتراك فى الاجتماع ، وهو شيخ من « مسلاته » اسمه السيد عبد السلام الأحمر . . ثم طلبت الى الحاضرين أن يتقدموا الواحد بعد الآخر ليضع كل منهم يده فوق المصحف ثم يقسم يمينا كنت أعددته . .

وكان هذا القسم يقول بالحرف الواحد :

أقسم بالله العظيم قابضـا بيدى على هذا القرآن الكريم أن أجعـل نفسى ومالى فداء لوطنى وحكومتى الجمهورية الطرابلسية وأن أكون لعـدوها عدوا ولصـديقها صـديقا ولقانونها الشرعى مطيعا..

ولما كنت أعرف أن بعض هؤلاء المجاهدين لا يعـرفون القـراءة أو الكتابة فقـد وقفـت بجوار الشيخ الكبير أتلو القسـم مع كل واحـد من الحـاضرين، وهو يردد كلماته ورائى، وقد وضع يده على كتاب الله..

وكان رمضان السويحلى أول من أقسم وحلف يمين الولاء للجمهورية الجـديدة ثم تبعـه الآخرون..

وبعد أن تم اعلان قيام الجمهورية الطرابلسية فى الاجتماع، واصلنا مشاوراتنا..

وكان أن وقع اختيار الحاضرون على رمضان السويحلى والشـيخ سـليمان البارونى وأحمد المريض وعبد النبي بلخير ليتكون منهم المجلس الجمهورى..

كما قاموا بانتخاب الأعضاء الثلاثين فى مجلس الشورى..

وقد توالت اجتماعاتنا قبل الظهر وبعده لعدة أيام..

وتقرر فى تلك الاجتماعات اختيار عبد القادر باشا وهو ضابط طرابلسى الأصل حارب مع الجيش العثمانى، وكان قد وصل الينا فى آخـر غواصـة وصـلت الى الشـاطىء الليبى، ليكون قائدا للجيش..

كما اختاروا كعبار بك مديرا للمالية والضابط أحمد بك أبو شادى قائدا للشرطة..

وتم أيضا تعيين حكام الأقاليم المختلفة..

تم اعلان الجمهورية الطرابلسية واستقلال البلاد فى قلب الصحراء، وقد أثار إعلانهـا ضجة فى العالم، لأن أحـدا لم يكن يتصـور أن تخرج هذه الجمهـورية من هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب لتؤكد انتصار شعب ليبيا فى معركته ضد المستعمرين الايطاليين..

وقال بيان إعلان قيام الجمهورية الطرابلسية الذى صدر بتوقيع سـليمان البارونى وأحمد المريض ورمضان الشتيوى وعبد النبى بلخير بالحرف الواحد:

فى الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك الثالث من شـهر صـفر الخـير عام

١٣٣٧ هجرية تحررت الأمة الطرابلسية وقد توجت استقلالها بإعلان حكومتها الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء واشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا فى كل أنحاء البلاد، وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الشورى الطرابلسى وانتخب أعضاء مجلس الجمهورية وافتتح أعماله بتبليغ اغلان الجمهورية الى الدول الكبرى عامة والى الدولة الايطالية خاصة..

وهذه صورة اليمين التى أداها الحاضرون من أعضاء الجمهورية ومجلس الشورى فى الاجتماع العام فى جامع مسلاته:

« أقسم بالله العظيم قابضا بيدى على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسى ومالى فداء لوطنى وحكومتى الجمهورية الطرابلسية وأن أكون لعدوها عدوا ولصديقها صديقا ولقانونها الشرعى مطيعا »..

وإن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة لاستقلالها الذى اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها منذ سبع سنين، وسعيدة بالوصول الى هذه الغاية التى هى أشرف ما تصل اليه الأمم وتهنىء أبناءها بتمام نجاحهم واتحادهم على الثبات التام فى الدفاع عن وطنهم وحكومتهم الجمهورية والتوفيق بيد الله وحده..

١٣ صفر سنة ١٣٣٧ هجرية..

سليمان البارونى ـ أحمد المريض..

رمضان الشيتوى ـ عبد النبى بلخير..

كان بيانا يتكون من عدة أسطر، وكنت قد اعددته من قبل التقاء المؤتمر حتى يتسنى للمجلس الجمهورى إصداره بمجرد إعلان تشكيله..

ومع هذا البيان أصدر المجلس الجمهورى منشورا للقوات المسلحة، وقد تم إبلاغه بالاسم لكل واحد من الضباط الوطنيين..

ويقول هنا المنشور بالحرف الواحد:

الى حضرة الضابط.. فلان.. الوطنى.

بما أن جنابك وطنى صادق ومجاهد فى سبيل الدين والوطن منذ ابتداء الحرب الطرابلسية فاننا ندعوك الى تقديم طاعتك لحكومتك الجمهورية الجديدة، والقيام بما تقلدك

إياه من الخدمة والدفاع عن شرف الوطن العزيز حتى تنال منها شرف الاحترام الرفيع وتبرهن للعالم أنك ابن الوطن العزيز وأحد رجاله الذين سيحفظ التاريخ ذكرهم المجيد..

* * *

هكذا كنا قد أعددنا كل شيء بدقة، بما فى ذلك البلاغات الرسمية التى وجهتها حكومة الجمهورية الجديدة الى الدول العظمى..

ويقول نص البلاغ الذى وجهناه الى الحكومة الايطالية:

الى رئيس الحكومة الايطالية..

١ ـ تفخر الامة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهورى وانتخاب نواب عنها من كافة انحائها لمجلس الحكومة والشورى ولا هدف لها الا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها الاساسية المعروفة كما أنها لا تقصد إلا أن تعيش عيشة هنية مسالمة لجميع الأمم التى لا تحاول غصب حقوقها..

٢ ـ لذلك ندعو الحكومة الايطالية الى الاعتراف بها وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية الى مداومة الحرب الى أن تحقق أملها المشروع..

١٣ صفر سنة ١٣٣٧ هجرية..

ومع هذا البلاغ الرسمى، أرفقت الحكومة ملحقا تضمن الشروط التى وجدتها مناسبة لعقد الصلح مع ايطاليا..

وكانت الشروط كما تضمنها هذا الملحق بالنص الكامل:

١ ـ فى حالة دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة.

٢ ـ لا تقترب السفن الحربية من السواحل غير المحتلة بالعساكر الايطالية.

٣ ـ لا تتجاوز الطائرات حدود الاستحكامات.

٤ ـ لا تقع مخابرة خصوصية مع أى أحد كان لا من جهة المناطق الحربية ولا مع غيرها..

٥ ـ تقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالأهالى من طرف الحكومة الإيطالية كأخذ

وإعطاء البضائع وتوزيع الإعانات على أى صورة وبأى طريقة كانت.

٦ - المخابرات الرسمية والدخول والخروج لا يكون الا من الموقع الذى يصير تعيينه فى منطقة الخمس من طرف الحكومة الطرابلسية..

٧ - الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة فى شئونها وحركاتها تمام الاستقلال وغير مسئولة بأى شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به للحكومة الايطالية فى طرابلس..

٨ - ضباط الترك والالمان والنمسا الموجودون فى داخل طرابلس هم بمنزلة ضيوف الحكومة الطرابلسية ولا تسمح بسفرهم الا بصورة تكفل منفعة وشرف الأمة الطرابلسية وحكومتها الجديدة.

٩ - بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق فى إظهار صوتها للعالم الخارجي وبالخصوص للحكومات الموجودة قناصلها فى طرابلس مثل انجلترا وفرنسا وأمريكا فعلى الحكومة الإيطالية قبول وايصال ما يرسل من الحكومة الطرابلسية إليهم بدون الاطلاع عليه، وأخذ سندات من القناصل المذكورين وإرسالها الى الحكومة الطرابلسية، حتى لا تضطر إلى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة..

* * *

وفى نفس الوقت كان التبليغ الى رئيس الحكومة البريطانية كالتالى:

نتشرف بأن نحيط فخامتكم علما بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها الحكم الجمهورى، وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلنت نتيجة انتخابات مجلس شورى ومجلس جمهوريتنا. وليس بين الأمم من هو جدير بحريته واستقلاله أكثر من الأمة الطرابلسية التى تقاتل إلى الآن ثمانى سنوات ضد غاصب أرضها وحريتها، وأنها لا تشك فى أن إحساساتكم العالية نحو حرية الأمم والحكومات الصغيرة. كما أن غيرتكم على حماية العرب تجبركم على العطف على جمهوريتنا الجديدة الحرة وأننا نؤكد لكم أيضا أن قومنا وضعوا جل آمالهم فى انجلترا حامية حقوق الأمم الصغيرة. فرجاؤنا أن تتفضلوا بوضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومية حتى تنال جمهوريتنا ما يضمن لها سعادة مستقبلة والمرجو قبول عظيم احترامنا..

وقمنا أيضا بإرسال بلاغ شبيه يحمل نفس المعنى الى الحكومة الفرنسية، كما أبلغنا حكومة الولايات المتحدة عن طريق القنصل الأمريكى فى مدينة طرابلس نفس البيان..

الفصل العشرون

.. وأعلنت إيطاليا الحرب على الجمهورية

ومع اعلان الجمهورية ، قام الأمير عثمان فؤاد بصرف مرتب سبعة أشهر مقدما لكل واحد من الضباط الأتراك الذين كانوا معه من النقود التى كانت فى خزانته ثم سلم الخزانة بما تبقى فيها من أموال الى حكومة الجمهورية الجديدة . .

ومرت عدة أيام ثم تلقينا رسالة من طرابلس تقول . . إن مندوبا من الدولة العثمانية اسمه أكرم بك قد وصل اليها من الاستانة فى مهمة لمقابلة الأمير عثمان فؤاد وزعماء البلاد .

وتشاورت الحكومة الجمهورية فى الموقف بمجرد أن عرفت بوصول مندوب الدولة العثمانية ، ثم كلفتنى بالتوجه الى منطقة العزيزية لاستقباله عند قدومه من طرابلس . .

وفى العزيزية رحبت بالرجل ، ثم جلست معه نتحدث عن مهمته
قال لى . . إنه يحمل الى الأمير تعليمات هامة من الاستانة . .

وابتسمت وأنا أقول له :

ـ ألم يصل إلى علمك أن البلاد أصبح لها الآن حكومة جمهورية مستقلة . .

قال الرجل :

ـ وأين ذهب الأمير ؟ . .

قلت له : إنه يقيم فى منطقة أو فلة ضيفا على حكومة الجمهورية ، ولم يعد الأمر بيده . .

وسكت الرجل ، ولم يقل شيئا . .

ولم أنتظر وبادرت أقول له :

ـ نصيحتى أن تسلم ما معك من أوراق إلى الحكومة ، وهى تتصرف فيها . .

ولما تأكد الرجل من تغيير الأوضاع فى البلاد ، أخذ يحدثنى بصراحة عن مهمته . .

قال لى إن التعليمات التى يحملها كتبت تحت ضغط الحلفاء ، وهى تطلب الى الأمير

العثمانى أن يعمل على دعوة جميع المنتسبين للدولة العثمانية لتسليم أنفسهم إلى السلطات الايطالية..

كما تتضمن نصائح إلى الأهالى بعدم المقاومة..

ولم يكن فى وسعى إلا أن أنصح الرجل بأن يتكتم ما يحمله من تعليمات. وأنا أؤكد له بأن تسرب هذه التعليمات الى المسئولين فى الجمهورية قد يعرضه للمسئولية..

* * *

كان علينا أن نقضى الليلة فى العزيزية، قبل أن نعود الى مصراته..

وفى تلك الليلة أخذت أستدرج الرجل فى الحديث، وكأن وحشته قد زالت، فأخذ يكشف لى عن عواطفه نحو العرب.

ولمعت عينا الرجل فجأة ببريق عجيب، ثم قال لى:

ـ إن الايطاليين عندهم حوالى ٨٠ ألف جندى منهم ٥٠ ألفا فى مدينة طرابلس وحدها.. وفى اعتقادى أنهم يحشدون الآن قواتهم لشن هجوم عليكم..

ثم أخذ الرجل يرسم لى على ورقة مواقع احتشاد القوات الايطالية التى شاهدها بنفسه أثناء رحلته من طرابلس الى العزيزية..

ولم أكن أريد أن أعرف منه أكثر من ذلك..

* * *

كانت تعليمات الدولة العثمانية التى حملها أكرم بك إلى الأمير عثمان فؤاد صريحة وواضحة..

وعرف الأمير بتلك التعليمات، فلم ينتظر، وقرر المبادرة بتنفيذها..

وكان أن اتفقنا معه على أن يسلم نفسه ومن معه الى الفرنسيين فى تونس، بدلا من الايطاليين فى طرابلس..

قلنا له.. إن الايطاليين قد يسيئون معاملته، وأن الأحرى به أن يسلم نفسه إلى الفرنسيين حفاظا على كرامته وهيبته كأمير عثمانى..

ووافق الأمير على ذلك..

* * *

وأرسل الأمير رسالة تليفونية الى أعضاء المجلس الجمهورى يودع فيها الشعب الطرابلسى . .

ويقول نص ترجمة هذه الرسالة الى كتبها باللغة التركية :

إن المغفور له الخليفة الأعظم السلطان محمد خان الخامس الذى كان قلبه يخفق كالطير على الممالك العثمانية عندما تفضل بتعيينى قائدا للقوات العثمانية فى طرابلس الغرب ، قد أظهر لى من الاحساسات نحو هذا الوطن مالا استطيع تصويره ولا تبليغه إذ اغرورقت عينا السلطان الكريمتان بالدموع فى تأثر عندما خاطبنى بصوت نابع من صميم قلبه قائلا :

ـ اذهبو فشاركوا أولادى الذين فى طرابلس الغرب مسراتهم وأكدارهم واثبتوا ما للبيت العثمانى من حق على المسلمين من الاحساسات السامية . .

وامتثالا لهذا التوجيه الأبوى الرحيم أسرعت بالمجىء أركض ركضا ، وأنا بدون شك أحمل من المشاعر ما هو فوق العادة ولم تكد تطأ قدمى سواحل طرابلس الغرب الدافئة حتى رأيت وشاهدت بعينى ما فى هذا الوطن من المزايا والبطولات .

إن أسعد الأيام التى عشتها فى الدنيا هى الأيام التى امضيتها فى هذا الوطن المبارك وسوف أحمل ذكريات هذه الساعات الجميلة لآخر عمرى دون أن أنسى دقيقة واحدة . .

يا أعيان طرابلس الغرب وأشرافها وأهاليها المحترمين وأبطالها الكبار

تفرق اليوم بينى وبينكم صدمة أليمة مع الأسف هى الفراق . . الفراق . . لكن صدقونى أن قلبى بل قلب شعوب العالم الاسلامى جميعا معكم ولا تفرق بين الموحدين أى قوة مهما كانت الا القدر طبعا . . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . . وللمعنى الجليل الوارد فى هذه الآية اترككم مطمئنا وإذا صبرنا لتجليات القدرة الالهية (ان الله يحب الصابرين) لعملنا بما جاء فيها موقنين بالنصر الأكيد وإن شاء الله عند وصولى الى مركز الخلافة وتشرفى بالمثول بين يدى سلطاننا سأعرض عليه حقيقة الأوضاع التى تثير القلق بينكم وبين الخلافة

وإنكم أبناء وطن وقوم نجباء لكم مشاعر وأحاسيس عالية ، وبعد أدعو لكم دعاء الواثق بموقفكم وشرعية حقكم وكلى تأثر بثباتكم المتين . كان الله فى عونكم .

الأمير

عثمان فؤاد

وبمجرد أن تلق أعضـاء المجلس الجمهـورى هذه الرسـالة التليفـونية من الأمير بادروا بكتابة رسالة ثم بعثوا بها اليه فى أوفلة :

وكانت هذه الرسالة مؤرخة بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سـنة ١٣٣٧ هجـرية .. وتقـول بالحرف الواحد :

الى حضرة صاحب الدولة والنبل النجيب الأمير فؤاد أفندى .. فى الجبل ..

وصلنا تلغـرافكم المبين لقـرب مفـارقة جنابكم لوطننا العـزيز ، وقد تلى على الهيئة الجمهورية والأعيان الموجودين هنا . وإن ما بذلته الدولة العثمانية نحو العالم الاسـلامى من جهود وما تفضـلت من المعـاملة الأبوية الحنون التى جلبت فى الحقيقـة من روابط القلوب ما حدا بهذه الشعوب المتعددة بالالتفاف حتى آثرت أن تفدى الهلال العثمانى بكل مالديهـا ، وقدمت دماء بنيها معلنة بطولاتها للعالم بينما عملت الدولة العثمانية لمحو التعديات الغـاشمة من هذه الرقعة وقدمت من المسـاعدات الايجـابية من فوق البحـر وتحته وحسـب الظروف الزمنية ما نتركه جانبا اذ تفضلت ومنحت بشـخص دولتكم من البيت المالك والأمر الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ الاسـلامى والذى سـتسجل ذكراه بماء الذهب . أن ما رأيناه منكم من الخدمات الأصـيلة منذ شرفتم هذه الرقعـة بقـدومكم قد غرس فى نفـوس أهالى طرابلس الارتياح الكبير ، وتركهم الآن يخلف لوعة عميقة من الألم لفراقكم ..

لهذا فإن حكومتنا الجمهورية الناشئة ستظل فى معاملاتها المشحونة بالوداد لمقام الخـلافة الأعلى ونطلب منكم بكل فخر أن تعرضوا ذلك على مولانا السلطان أفندم ..

وقام بالتوقيع على هذه الرسالة الشيخ سليمان البارونى عضو المجلس الجمهورى ـ ومحمد سـوف رئيس مجلس الشـورى وعدد كبير من الأعيان ، ثم أرسـلت الى الأمير العثمانى فى أوفلة قبل أن يغادرها فى طريقه إلى تونس ..

* * *

كنت قد استأذنت زعماء الجمهورية فى مرافقة الأمير حتى الحدود التونسية ..

قلت لهم .. إننى سأقوم بتوصيله إلى أقرب نقطة عند الحدود التونسية وبعـدها سـأعود لأواصل العمل فى خدمة الجمهورية ..

ووافق زعماء الجمهورية على ذلك ..

وفى اليوم المحدد تحرك موكب الأمير العثمانى ومن معـه من رجـال حـاشيته والضـباط

الأتراك من مصراته .. وكان الضابط الوحيد الذى رفض أن يصحب الأمير هو اسحاق باشا الذى اخترناه قائدا للجيش ..

قال إن الفرصة لم تسنح له للجهاد مع العرب ضد الايطاليين ، وقد اتخذ قراره بألا يترك البلاد الا مضطرا ، أو أن يموت مع العرب مدافعا عن حريتهم واستقلال أراضيهم ..

وكان موقفا وطنيا رائعا من الضابط العثمانى ..

* * *

المهم .. توجهنا عن طريق بنى وليد الى ترهونة ، ثم إلى غريان حتى وصلنا الى الحدود التونسية بعد مسيرة خمسة أو ستة أيام ..

وهناك ودعت الأمير التركى ومن كانوا معه بحرارة وعدت مرة أخرى الى مصراته ..

وفى مصراته نشرت خبر رحيل الأمير فى صحيفة كنت أصدرها على البالوظة وكان اسمها .. « الرجل الحر » .. وكانت هذه الجريدة هى اللسان الرسمى للجمهورية .

قلت .. إن الأمير التركى رفض أن يستسلم للإيطاليين أعداء البلاد وأنه قام بتسليم نفسه للفرنسيين ..

وقد أردت بهذا الخبر أن أحافظ على ماء وجه الأمير التركى .. والدولة العثمانية .. !

* * *

أخذت الأنباء تتوالى علينا بأن الايطاليين يحشدون قواتهم للهجوم علينا ..

وبدأنا نستعد من جانبنا لمواجهة الموقف .

وفى صباح اليوم الذى بدأ الايطاليون هجومهم علينا ، كنت مع عدد من الزعماء والأعيان فى العزيزية ..

ولم يكن هناك ما يوحى بأن القتال يمكن أن ينشب بيننا وبين الإيطاليين فى ذلك اليوم ..

ولكن فجأة أخذت الأنباء تتوافد علينا .: بأن الايطاليين قد بدأوا مناوشاتهم بإطلاق المدافع فى اتجاه معسكرنا العام ، وكان فى نفس منطقة العزيزية .

وكانت الحرب عندما اتجهت قوة إيطالية الى ناحية معسكر قواتنا العام، وهناك اصطدمت بالجنود والمجاهدين العرب..

ولم أنتظر وبادرت بالقيام عند الظهر ومعي نحو ٢٠ فارسا أذكر من بينهم الحاج صالح بن سلطان وعددا من المجاهدين التونسيين.. وتبعنا كل من استطاع اللحاق بنا من المدربين على القتال لنصل الى جبهة القتال بعد ثلاث ساعات..

وكانت المدفعية تمزق الفضاء مع أصوات انفجار القنابل.. كما كان صوت الرصاص يدوى فى كل مكان بينما كانت سحب الدخان تنعقد فى السماء..

ومن خلال المنظار المكبر رأيت قوة عربية وكانت تتراجع من مواقعها ولما وصلت الى مكاننا قال لى ضابطها، إنه ظل يقاوم حتى خشى أن يحيط به الأعداء، وأنه اضطر لأن يتراجع وهو لا يدرى بما كان يجرى فى بقية جبهة القتال.

وفى تلك المعركة، لم يكن للقوات العربية قائد عام بمعنى الكلمة، فقد كان كل ضابط ممتاز يتولى القيادة فى موقع من مواقع الجبهة..

ولم يكن فى وسعى الا أن أتدخل.. وكان أن طلبت الى هذا الضابط أن يقوم بتنظيم رجاله على أن يعود لملاقاة العدو.. ووعدته بأن نلحق به بعد قليل.

* * *

أخذنا فى تجميع الجنود والفرسان، وقبل المغرب بقليل تمكنا من جمع أكثر من مائتى فارس من بينهم الضابط الشجاع المرحوم ابراهيم عوض الذى كلفته بقيادة هؤلاء الفرسان. ثم اقترحت عليه الدوران حول ميسرة قوات العدو وأنا أقول له:

ـ إذا استطعت بفرسانك دخول «نخل الزاوية» وراء خطوط العدو فإنك تحقق بذلك انتصارا كبيرا.. وعليك أن تصمد فى مكانك لتصبح كشوكة فى عنق قوات الإيطاليين..

ولمعت عينا ابراهيم ببريق عجيب بعد أن أدرك ما كنت أهدف اليه، ثم التفت ناحيتى، وهو يقول متحمسا:

ـ سأفعل المستحيل حتى أحتل بفرسانى الزواية.

وكان هدفى من احتلال هذه المنطقة أن يعرف العدو أن خطوط مواصلاته لم تعد آمنة وبالتالى يتوقف عن التقدم حتى يتسنى وصول النجدات الينا من مصراته..

* * *

تحرك الفرسان بقيادة ابراهيم ، ولكنهم ما كادوا يبتعدون عن مكاننا بنحو ثلاثمائة متر حتى أخذت مدفعية العدو تنطلق فى اتجاهم . .

ورأيت من مكانى قنبلة تثير غبارا كثيفا فظننت أنها قد قضت على إبراهيم ولكن الخيل كانت تركض مندفعة الى الأمام فلم تكترث كثيرا للقنابل التى كانت تنفجر حولها وتحت أرجلها . .

وبقيت أنا ومعى عدد قليل من الفرسان أرسلهم يمينا ويسارا لرد الفارين وتشجيع المجاهدين على القتال . .

وعندما أسدل الليل ستاره كان ابراهيم قد تمكن مع فرسانه من دخول نخل الزواية والسيْطرة عليها . .

وعرفت قوات الأعداء أن قواتنا قد التفت حولها فتوقفت عن التقدم ثم أخذت فى التراجع الى قاعدة هجومها ، وكانت فى المنطقة التى اشتهرت باسم قلعة الرأس الأحمر . .

ومع الليل أخذ المجاهدون يتوافدون علينا فى الظلام . .

وتلاحقت علينا بعد ذلك التقارير عما حدث أثناء المعركة . .

كانت معركة حامية ، وإن كانت خسائرنا لم تكن فادحة . .

وكان ذلك على الرغم من أن قواتنا لم يكن عددها يزيد على الأربعة الاف رجل بينما كانت قوات الاعداء تقدر بنحو ٢٠ ألف رجل . .

وكانت الشكوى عامة من قلة الذخائر . . وكان اجماع المجاهدين على أنه لو كان معهم ما يكفى من الرصاص لهزموا الإيطاليين فى ذلك اليوم . .

وقال بعضهم أن فى رأيه أن تنسحب قواتنا الى ناحية العزيزية حتى يتسنى لنا إعادة تنظيم صفوفنا . .

وكان المجاهد عبد العاطى الجرف موجودا فاختليت به قليلا ، فقد كان فى نظرنا أفضل ما يمكن استشارته فى مثل هذا الموقف ، لشجاعته ولخبرته التامة بحالة الجنود المعنوية . .

ولما استعرضت معه مختلف وجهات النظر التى استمعنا اليها من المقاتلين قال لى الرجل :

ـ اسمع يا عبد الرحمن . . ان الانسحاب هو رأى الجبناء وفى رأيى أنه لو أصبح

الايطاليون ووجدوا أننا قد تركنا مراكزنا وتراجعنا الى العزيزة يشجعهم ذلك على متابعتنا بقواتهم.. أما إذا ما بادرنا بالهجوم عليهم فإنهم سيترددون كثيرا فى مواصلة الهجوم علينا.. وسيكون عندنا الوقت الذى يسمح لنا بجلب النجدة والذخائر التى يحتفظ بها رمضان السويحلى فى مصراته..

قلت: أنا موافق على هذا الرأى.. ثم تركته ورجعت الى قادة المقاتلين حيث أخذت أسفه بكل قوة فكرة الانسحاب الى العزيزية.

واذكر أننى قلت لهم.. إن من لا يجد فى نفسه القدرة على القتال فلينسحب الى العزيزية.. أما أنا فسأتحرك ومعى كل مجاهد شريف عند الفجر لنلتقى بالاعداء..

وتحمس الحاضرون معى ضد فكرة التراجع والانسحاب!

وأذكر من بين هؤلاء الذين تحمسوا للقتال العويضى بك، وكان رجلا شجاعا والشيخ المنصورى الذى هاجم بشدة وعنف فكرة التراجع الى العزيزية..

* * *

تعشينا وبعدها أخذ السنوسى العبلى وعبد العاطى من المجاهدين ينظمان الورديات للتقدم نحو مواقع العدو والاستكشاف..

وفى أواخر الليل كلفت بعض الجماعات بالتقدم من مختلف الاتجاهات حول مواقع الاعداء وطلبت الى هذه الجماعات أن توقد النار فى أماكن تقدمها حتى يتوهم الاعداء استقرار قواتنا فى تلك المناطق.

ومع طلوع الشمس أدرك العدو أننا نحاصر قواته من كل جانب فلم يتحرك من أماكنه كما توقعنا..

وبقيت الدوريات فى الجبهة بينما رجع المجاهدون الى معسكرنا العام يأكلون ويشربون فى خيامهم..

ومر اليوم بطوله بلا قتال ولكن ما كاد النهار ينتهى حتى جاءت الطائرات الايطالية لتغير على مراكزنا بقسوة وضراوة..

* * *

واضطر الجنود للتفرق فى مساحات واسعة من الأرض الرملية . .

وأذكر أنى كنت جالسا مع بعض الضباط فى خيمتى عندما بدأت الغارات الجوية . .

وعندما أخذت الطائرات الايطالية تلقى بقنابلها على معسكرنا ، خرجت من الخيمة لأرى القنابل وهى تنفجر حولنا . .

ولم يكن فى وسعنا إلا أن نرقد على الأرض لعدة ساعات حتى انتهت الغارات الجوية . .

وعندما غابت الشمس كان أزيز الطائرات لا يزال يصم الآذان .

وأخيرا ابتعدت الطائرات فأخذ الجنود يتحركون من أماكنهم . .

ولما بدأنا فى تقدير خسائرنا تبين لنا أن بعض جنود المتراليوز قد جرحوا ، وأن عددا منهم قد استشهدوا ، كما أصيب عدد كبير من الحيوانات . .

وبات المعسكر فى تلك الليلة فى رعب من الطائرات التى توقعنا أن تعود مرة أخرى . .

ولا أريد أن أقول إن هذه الغارة الجوية كانت أسوأ غارة شهدتها طوال تلك السنين التى عشتها مع المجاهدين العرب وهم يقاتلون الانجليز والايطاليين . .

* * *

ومرت بضعة أسابيع لم يحاول العدو لحسن الحظ القيام بأى هجوم على مواقعنا ، واكتفت قواته بما كانت تقوم به من مناوشات هنا وهناك . .

ولكن الطائرات الايطالية استمرت فى ضرب خطوط القتال بالقنابل .

كما أخذت فى ضرب الاهالى وحيواناتهم فى المناطق التى تمتد وراء جبهة الحرب . .

وكان فى تصور الايطاليين أن ما كانوا يقومون به من غارات جوية وحشية على القرى والكفور الآهلة بالسكان يمكن أن يخضع الناس . .

ومع الغارات الجوية لجأ الايطاليون الى القاء المنشورات وكان أن أخذت طائراتهم تقذف بالآلاف منها فوق معسكراتنا ، وفوق المناطق الآهلة بالسكان . .

وفى هذه المنشورات كان الايطاليون يتكلمون كثيرا عن ضعف مركز الجمهورية فى

مواجهة قوة ايطاليا ومركزها ، واستعداداتها للقضاء على أى مقاومة . .

كما كانت تتحدث عن رغبتها فى حقن دماء الشعب وتمدينه وتعمير بلاده . .

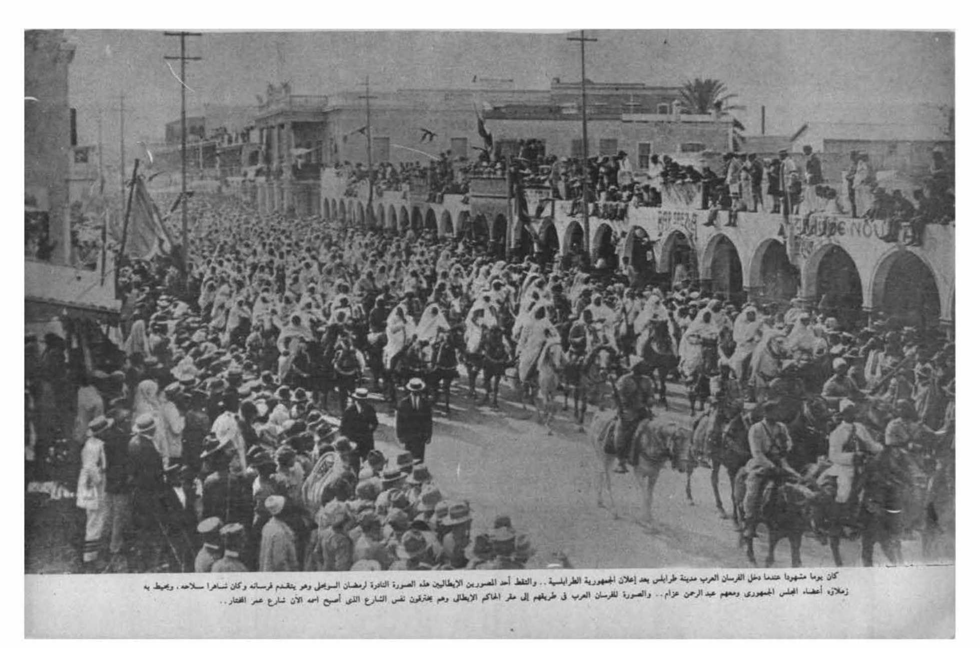
وكان ردنا على الغارات الجوية وهذه المنشورات أن نظمنا فرقا من المتطوعين الفدائيين للقيام بعمليات التخريب وراء خطوط الاعداء وداخل معسكراتهم . .

وأطلقنا على هذه الفرق . . اسم . . الفلاتة

واستطاعت هذه الفرق فى عدة اسابيع أن تثير الرعب فى قلوب الايطاليين . . .

كانت تضرب . . ثم تختفى . .

واهتزت إيطاليا بعنف لشدة الخسائر التى حاقت بقواتها على أرض طرابلس . .



كان يوما مشهودا عندما دخل الفرسان العرب مدينة طرابلس بعد إعلان الجمهورية الطرابلسية .. والتقط أحد المصورين الإيطاليين هذه الصورة النادرة لرمضان السويحلي وهو يتقدم فرسانه وكان شاهرا سلاحه، ويحيط به زملاؤه أعضاء المجلس الجمهورى ومعهم عبدالرحمن عزام .. والصورة للفرسان العرب فى طريقهم إلى مقر الحاكم الإيطالى وهم يخترقون نفس الشارع الذى أصبح اسمه الآن شارع عمر المختار ..

الفصل الواحد والعشرون

.. ودخلنا إلى مدينة طرابلس

وجاء الى مصراته فى تلك الأيام يهودى اسمه « خلف الله ناحوم » وكانت له علاقات طيبة مع رمضان السويحلى ..

قال .. انه موفد من الايطاليين للبحث فى شروط الصلح مع الجمهورية ..

وتحدث الرجل اليهودى مع أحمد المريض بك .. ومع سليمان البارونى بك .. ومع الهادى كعبار بك، وغيرهم من أعيان البلاد الذين كانوا يعرفونه ..

وعرف رمضان السويحلى بك بالوساطة التى يحملها الرجل اليهودى فقال له :

- ان العرب لا يمانعون فى الصلح، ولكن بشرط أن تعترف إيطاليا بالجمهورية الطرابلسية ..

وعاد الرجل الى طرابلس ليبلغ الايطاليين بما قاله رمضان السويحلى عن شروط الصلح معهم ..

ولم يوافق الايطاليون على الاعتراف بالجمهورية ..

وبادروا بالعودة الى ضرب مواقعنا بطائراتهم وبالمناوشات الحربية من جديد.

وحدث فى تلك الأيام. ان فاجأت قوات الايطاليين احدى فرق « الفلاته » أثناء قيامها بعملية فدائية وراء خطوط الاعداء ..

كانت الفرقة تضم نحو ١٠٠ رجل من الفدائيين وقد استماتت افرادها فى القتال ضد القوات الايطالية التى كانت تحاصرهم حتى وصل خبر المعركة التى كانوا يخوضونها بشراسة إلى قواتنا النظامية فبادرت بنجدتهم ..

وأثناء المعركة تصادف ان وجدت احدى وحداتنا نفسها وراء قوات العدو وكانت هذه الوحدة بقيادة المجاهد البطل السنوسى العبلى فلم تنتظر وقامت بإصلاء قوات الايطاليين بنيران عدد من مدافع المترليوز التى كانت معها ..

وتساقط عشرات الايطاليين قتلى برصاص مدافع المترليوز..

وانتشر القتال فى تلك الاثناء ليشمل جميع مناطق الحرب التى كانت تمتد من مدينة طرابلس حتى منطقة الزاوية..

واضطرت قواتهم التى كانت تحاصر وحدة « الفلاتة » للانسحاب..

واصيبت هذه القوات أثناء انسحابها أيضا بخسائر كبيرة..

وكانت نتيجة المعارك انتصارا رائعا مبينا للمجاهدين العرب..

ومرة اخرى طلب الايطاليون الدخول فى مباحثات الصلح.. وكان ان اقترحوا الاجتماع بأعيان البلاد، ولما عرض الأمر على المجلس الجمهورى قال اعضاؤه.. لماذا لا نستمع الى ما يريد ان يقوله الايطاليون..

وقرروا تأليف وفد من الأعيان لمقابلتهم..

* * *

ودارت المفاوضات بيننا وبين الايطاليين..

وأثناء هذه المفاوضات رفض الايطاليون مرة اخرى الاعتراف بالجمهورية..

كما رفضوا الاعتراف بأى حق من حقوق العرب.. وكان كل الذى عرضوه هو السماح للعرب بالاشتراك فى وظائف الادارة.. والوعد بنشر التعليم والعمران ورد الأملاك المصادرة الى أصحابها والعفو العام عن المجاهدين الذين شاركوا فى الحرب ضد الايطاليين..

كان هذا هو كل الذى عرضه الايطاليون فى مقابل عقد الصلح بيننا وبينهم ولما اجتمعنا فى العزيزية للنظر فى نتائج هذه المفاوضات كتبت بخط يدى رد العرب على العرض الإيطالى السخى..

وفى هذا الرد قلت بالحرف الواحد.. ان العفو العام ليس ثمنا للضحايا والدماء التى اريقت فى سبيل الحرية، وهو لا يعوض العرب ثمن اغتصاب أوطانهم.. واننا كنا ننتظر ان يدفع الايطاليون ثمن عفونا عنهم، لأنهم جاءوا الى البلاد فخربوها وظلموا أهلها ولا قيمة للتلويح بالعفو فى نظر قوم تعاهدوا على التضحية فى سبيل حريتهم..

وذكرت ان العرب يريدون السلم ويبغضون سفك الدماء..

وقلت إن الموقف أصبح كما قال الشاعر:

اذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز ان تموت جبانا

كان هذا هو رد العرب، وقد ارسلناه باسم المجلس الجمهورى الى الايطاليين..

واذكر ان الايطاليين استأنفوا المفاوضات بعد أن تلقوا هذا الخطاب بروح اكثر اعتدالا..

وكان هناك رأى بأن يتنازل العرب عن تمسكهم بالجمهورية مقابل اعتراف ايطاليا باستقلال ذاتى للبلاد، على أن يقوم فيها نظام يشبه نظام «الدومنيون» فى جنوب افريقيا..

* * *

كنا نعرف ان حالة البلاد لم تكن تسمح باستمرار القتال الى مالا نهاية أو على الاقل حتى يتسنى لها تحقيق جميع مطالبها، فقد كانت مواردها قد اخذت تنضب شيئا فشيئا.. وكنا فى نفس الوقت أكثر الناس ادراكا بأن اتحاد الزعماء كان قائما على الخوف من فتك العدو بهم الواحد بعد الآخر.. وكنا نعرف أيضا أن بعض هؤلاء الزعماء يسايرون الحركة الوطنية على يأسهم من نتائجها، خوفا من أن ينتقم منهم خصومهم..

كانت هذه هى حالتنا عندما بدأنا المفاوضات.. وفى نفس الوقت لم نكن ندرى شيئا عما كان يعانيه الايطاليون أنفسهم فى بلادهم، ولا عن عصيان جنودهم الذين انهكت الحرب قواهم، ولا عما كانوا يكابدونه من حلفائهم أثناء مفاوضات مؤتمر الصلح فى فرساى..

وعندما قبل الايطاليون فى اجتماع عقدناه للمباحثات مع الايطاليين بالقرب من منطقة العزيزية، اعطاء العرب نوعا من الاستقلال الذاتى وأن يكون لطرابلس مجلس نواب منتخب ومجلس حكومة من أعضاء يختارهم مجلس النواب ليشترك مع الوالى الذى تعينه ايطاليا فى حكم البلاد ومزايا اخرى فرعية. أجمع الزعماء على قبول الصلح وجاء رمضان السويحلى الى العزيزية بنفسه ليعلن موافقته على الصلح..

وليوقع على وثيقة الاتفاق بين الزعماء العرب والايطاليين..

وكان ذلك على ما أذكر فى ابريل سنة ١٩١٩..

وكانت أهم الأسس التى تضمنتها اتفاقية الصلح :

١ ـ تسمى الحكومة .. حكومة القطر الطرابلسى ..

٢ ـ يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسى من بين أعضائه ومن عضوين إيطاليين ينتخبهما الحاكم العام ..

٣ ـ يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطتان الملكية والعسكرية على أن يعين من جانب ملك ايطاليا .. ويحدد القانون جنسية الحاكم فقد يكون عربيا . وقد يكون ايطاليا ..

٤ ـ يسن قوانين البلاد مجلس نواب ينتخبه الأهالى يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتقدمة من سلطات وحقوق وتكون مدته أربع سنوات وكلما جدد انتخابه اختار النواب مجلس الحكومة من بين أعضائه ..

٥ ـ لا تنفق ضرائب البلاد الا فيما وحسبما يقرره مجلس نوابها عن وضعها وتوزيعها وجبايتها ..

٦ ـ لا يطبق من قوانين ايطاليا فى طرابلس الا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسى ويوافق عليه لمصلحة البلاد ..

٧ ـ ينظم من أبناء البلاد جند وطنى بالتطوع حسبما تقتضيه الحاجة وقائده هو الحاكم العام ..

٨ ـ للوطنيين حق التوظف فى الوظائف العالية ملكية وعسكرية وقضائية وصحية وغيرها بالامتحان ..

٩ ـ التعليم الاهلى تحت اشراف الحكومة ..

١٠ ـ اللغة العربية رسمية كالايطالية .

١١ ـ ينتخب الاهالى رؤساء البلديات فى العاصمة والملحقات ..

١٢ ـ يؤلف مجلس شرعى تستأنف اليه الاحكام الشرعية وهو يعين القضاة .

١٣ ـ للطرابلسيين الحائزين على الشهادات العالية الحق فى مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها فى ايطاليا كما فى طرابلس ..

حضرة الوطني الغيور سعادة سليمان بك الباروني المحترم

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . [illegible]

■ بعد إعلان الجمهورية وقع خلاف بين بعض أعضاء المجلس الجمهوري وبين سليمان بك الباروني عضو المجلس ، وقرر سليمان الباروني أن يستقيل ، وطلب أن يعود إلى استانبول ، وتدخل عبد الرحمن عزام وكان قد أوعز إلى بعض الأعيان بالكتابة إليه لتصفية الخلاف . كما كتب إليه رسالة أشاد فيها بمواقفه الوطنية ، وقد وقع على هذه الرسالة بإمضائه كما وقعها معه بعض المجاهدين .

هيئة الإصلاح

[illegible]

١٤ ـ الأوقاف تدار بمعرفة هيئة اسلامية..

١٥ ـ تراعى حرمة الدين والتقاليد الوطنية الحسنة.

الى آخر ما جاء فى اتفاقية الصلح، وكانت تحتوى على أكثر من ٤٠ مادة.

وقد تم توقيع الاتفاقية عند منتصف الليل فى خيمة وضعت فى منطقة محايدة بين الوفدين العربى والايطالى..

وكان أول من وقع على الاتفاقية على ما أذكر هو الشيخ سليمان البارونى عضو المجلس الجمهورى.. والى جانبه قام بالتوقيع عليها رئيس أركان حرب القوات الايطالية.. وقام بالتوقيع رمضان بك الشتيوى وأحمد المريض بك عضو المجلس الجمهورى ثم بقية أعضاء وفد المفاوضات العربى والايطالى..

ومع توقيع اتفاقية الصلح أعلن الشيخ سليمان البارونى اعتزاله العمل فى المجلس الجمهورى ليسافر الى الاستانة حيث عين عضوا فى مجلس الأعيان العثمانى..

* * *

ومع اعلان الصلح أصدر الملك ريتوريو عمانوئيل الثالث ملك ايطاليا قانونا سمى بالقانون الاساسى تضمن بعض ما تم الاتفاق عليه بين العرب والايطاليين..

وفى رأيى ان بعض كبار الزعماء.. مثل رمضان السويحلى بك.. لم يكن يهمهم كثيرا المجادلة فى الجزئيات بل كان كل ما يهمهم هو وقف القتال مع احتفاظهم بكل ما كان فى ايديهم من سلطات واسلحة حتى اذا ما نكث الايطاليون أو أرادوا بهم شرا، قابلوهم بالقوة..

وبالرغم من أننى قد اشتركت فى جلسات المفاوضات باعتبارى مستشارا لبعض أصدقائى أصحاب النفوذ والقوى فى ترهونة ومصراته فاننى لم أوقع على وثيقة الصلح..

وكان الجنرال الايطالى قد طلب منى أن أوقع عليها إلا أننى بادرت بالاعتذار له باللغة الفرنسية وأنا أقول له:

ـ إن مهمتى قد انتهت بهذا الصلح.. وأنا اريد مغادرة هذه البلاد ولا اعتقد أن امضائى يمكن أن يكون له قيمة عملية ما دمت قد اعتزمت الرحيل..

وحاول الجنرال الايطالى اقناعى بالتوقيع على اتفاقية الصلح ولكنى أصررت على موقفى .

* * *

ومع توقيع اتفاقية الصلح طلب المارشال وينصو غاريونى الحاكم العام الايطالى وفدا من العرب لمقابلته فى دار الحكومة بمدينة طرابلس ، فذهبت اليه أنا والشيخ سليمان البارونى والمريض بك .. وكان معنا واحد آخر لا أذكر اسمه ولعله العويضى بك ..

وكان الايطاليون لا يخشون أحدا من الزعماء كما كانوا يخشون رمضان السويحلى بك فقد كان أكبرهم نفوذا وأقواهم جيشا وأكثرهم قدرة على المناورة ..

وحاول الجنرال الإيطالى اقناعه بالتوجه معنا الى طرابلس لمقابلة الحاكم العام الايطالى ولكنه اعتذر فى بادىء الأمر ..

ولما ألح عليه الجنرال الايطالى اشترط أن يكون مصحوبا فى دخوله الى مدينة طرابلس بالزعماء وبقوة مكونة من ١٥٠٠ فارس على الأقل بأسلحتهم ..

وكانت مناقشة طويلة .. انتهت بأن وافق الايطاليون على هذا الشرط ..

وفى اليوم المتفق عله .. توجهنا الى مدينة طرابلس فى موكب يحف بنا الفرسان بأسلحتهم وذخائرهم ..

وكان أن دخلنا الى المدينة يتبعنا الفرسان وهم يركضون بخيولهم العربية الاصيلة ثم توجهنا الى مقر الحاكم الايطالى ، حيث دخلنا من الباب الشرقى الجنوبى .. ولا أريد أن أقول إن دخولنا المدينة كان كما وصفه حمدان المنجم ..

وكان أهل المدينة فى فرح شديد فقد استقبلتنا النساء بالصياح والزغاريد .

وظهرت الحيرة على وجوه الاجانب وخاصة الايطاليين وهم يراقبون دخول فرساننا الى المدينة من النوافذ فقد كانوا يرون جيشا يشبه الجيش الفاتح وهو يدخل بلدا قضى ثمانية أعوام كاملة تحت الاحكام العرفية وكانوا فى نفس الوقت يعرفون أن جيش الايطاليين لم يقهر ..

وكان آخر مايمكن أن يتصوره أى واحد منهم ان يعود العرب الى المدينة فاتحين هكذا ..

وكنت أسير بحصانى الى جوار رمضان السويحلى بك الذى كانت عيناه تتلفتان حوله كعينى الصقر..

ولما ترجلنا أمام قصر الحاكم الايطالى تركت سلاحى فى جرابه الذى كان معلقا فى سرج الحصان.. أما رمضان فقد علق بندقيته فوق كتفه وسار فى اتجاه السلم بينما كان احد رجاله يمشى أمامه ليفسح له الطريق ومن حوله جماعة من أشد رجاله وبنادقهم على أكتافهم..

* * *

دخلنا قصر الحاكم العام.. بينما كانت الخيول بفرسانها المدججين بالسلاح تسد باب القصر وتملأ الشوارع التى كانت تحيط به..

وكان اللقاء مثيرا بين الماريشال غاريونى الحاكم الايطالى العام.. ورجل الجبل رمضان بك..

لقد أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر.. وبعدها تملك الحاكم العام الايطالى نفسه فأخذ يرحب بنا بجفاوة..

وتكلم المارشال غاريونى عن رغبة ايطاليا فى تعمير البلاد وترقيتها وكسب صداقة العرب ومعاونتهم..

ورد عليه رمضان وبعض الأعيان معلنين ترحيبهم بالصداقة والتعاون

وبعدها انصرف المارشال غاريونى.. وبقى معنا مساعديه الذين كانوا قد اشتركوا معنا فى مفاوضات الصلح وبعض كبار الموظفين.

ولكن رمضان لم يبق لحظة بمجرد أن إنسحب الحاكم العام الايطالى من المكان، فقد بادر بمغادرة القصر ثم ركب جواده وأمر الفرسان أن يتبعوه..

وانطلق رجل الصحراء خارجا من المدينة..

الفصل الثانى والعشرون

وزع الإيطاليون الذهب فأثاروا الفتنة بين القبائل

كانت مدينة طرابلس محكمة التحصين وكان يحيطها سور مدعم بالاسمنت المسلح على شكل نصف دائرة . .

وكان طرفا هذا السور ينتهيان عند شاطىء البحر . .

وفى خارج السور كانت هناك أكثر من قلعة أقامها الايطاليون . .

وخلف هذه القلاع كانت تمتد سلسلة من الخنادق والاسلاك الشائكة . .

وعندما نزلنا من قصر الحاكم العام الايطالى الى دار الضيافة نتساءل عن السر فى انصراف رمضان بك السويحلى بسرعة ، فقد كان انصرافه مفاجأة لنا وبدون سابق انذار . .

ولكن دهشتنا لم تدم طويلا ، وخاصة عندما عرفنا أن كل واحد من فرسانه كان يخفى مقادير كبيرة من الذخيرة تحت التبن فى الأكياس التى تأكل منها الخيل وكان الايطاليون قد تأهبوا للطوارىء فوزعوا بعض جنودهم فوق أسطح بعض المنازل . .

وبمعنى آخر كان أقل احتكاك كافيا لإحداث مذبحة دموية فى ذلك اليوم . .

ولم يكن فى وسعنا الا أن نقر بأن رمضان قد أحس بما كان يحيط به من أخطار فبادر بالانصراف ، وأخذ معه فرسانه .

واذكر ان الجنرال الايطالى الذى رأس وفد مفاوضات الصلح كان يقف معنا فى قصر الحاكم العام قد ابدى استياءه من انصراف رمضان . فلم أجد ما أقوله له سوى انه قد خشى أن يطمع رجاله فى النهب فبادر الى سحبهم . .

وقد استطعت بعد جهد كبير اقناع الجنرال بأن انسحاب رمضان لم يكن ينطوى على أى حذر أو تخوف من الايطاليين . .

ولما عرفت أن السلطات الايطالية كانت قد اعدت معسكرا فى خارج اسوار المدينة للفرسان العرب ليتناولوا فيه طعامهم والراحة أرسلت من يلحق برمضان ويخبره بذلك . .

وكان أن أمر رمضان رجاله بالعودة . . أما هو فقد واصل رحلته الى مصراته . . ولم يعد . .

وفى اليوم التالى شكا الايطاليون الينا من أن الفرسان قد أخذوا الأطباق وأدوات الاكل وبعض خيام المعسكر ثم ذهبوا . .

وضحكت عندما سمعت هذه الشكوى ، ولم يكن فى وسعى الا أن أقول للجنرال الايطالى مازحا . .

- أعتقد أنهم ظنوها هدية لهم من الحكومة الايطالية . .

وفى نفس اليوم خرجنا من المدينة ثم توجهنا الى ثكنات الجيش الايطالى وكان معنا بعض أعيان مصراتة للبحث فى موضوع تبادل الأسرى . .

وكان جميع الاسرى الايطاليين فى يد رمضان وحده . .

أما الاسرى العرب عند الايطاليين فقد كان عددهم كثيرا جدا . .

وكان من بين هؤلاء الاسرى أخوا رمضان نفسه . . وهما أحمد السويحلى ومحمد سعدون وكذلك بعض أقاربه وأصحابه . .

كما كان يوجد من بينهم فريق من أعيان برقة . .

وأثناء هذه المفاوضات كان واضحا أن رمضان كان يعمل على تخليص أخويه ، ولذلك لم يكن يعبأ كثيرا فى الحصول من الايطاليين على شىء من نفقات اعاشة الاسرى الايطاليين الذين كانوا عنده وفى تصورى أنه لو كان قد طلب أى مبلغ من المال مقابل نفقات اعاشة هؤلاء الاسرى لما ترددت ايطاليا فى تلك الأيام فى دفعها اليه . . ولكنه لم يطلب أى مقابل لا طلاق سراح هؤلاء الأسرى

وكان ان تمت عملية تبادل الأسرى بلا عقبات . .

* * *

جناب رمضان الشتيوي المحترم

بعد الاهداء السلام قد جئت اليك بالسفينة
الحربية التي وصلت الآن امام مرسى ابي شعيفة
ومعي اخوتك الذين كتبوا لك الجواب الملفوف لهذا
وليس قصدي الا المذاكرة معك قبل مباشرة الحرب
ووقوع البلايا والمحن . وأما كلامي فهو سيكون كلاماً
عادلاً وذلك ان تسأل اذا شئت كل الاهالي
الذين يعرفونني بصفتي مقيماً بالعزيزية وبالساحل
وتسمع منهم بلا شك اني محب صادق لكافة
ابناء البلاد . والمأمول منك ان تقدم غداً (يعني مساء
السبت عند غروب الشمس) الى المحل الذي نزل فيه
الساحل الى البر فاني سأظل بالسفينة هناك وأنت
تقدر تركب فوقها لأجل المذاكرة معي ومع اخوتك .
وأما أمانكم فأنا كافل بشرفي وناموسي ولو يكون في
ذلك عندكم أدنى شك . وعند ختام المذاكرة فلك الحرية
في رجوعك الى البر . واذا لم يصل هذا الجواب
التاسعة الليلة في حينه فنحن راجعون الى طرابلس وننتظر رد
الجواب هنالك مع تعيينك للزمان والمكان لأجل المذاكرة
المذكورة والسلام في ٢٢ ربيع الانور ١٣٣٢

الكولونيل جنتيلوتشي

Gentilucci

■ واحدة من وثائق الجمهورية الطرابلسية ، وهي رسالة بعث بها الكولونيل الإيطالي جنتيلوتش إلى رمضان السويحلي الشتيوي يدعوه فيها للمفاوضة معه بشأن الإفراج عن إخوة رمضان ، وكانت السلطات الإيطالية قد اعتقلتهم وأودعتهم السجن للضغط عليه بعد أن أعلن الحرب على الإيطاليين . .

ومع اصدار الملك بتوريو عمانوئيل الثالث ملك ايطاليا القانون الاساسى اذاع الحاكم الايطالى بيانا رسميا كان بمثابة الاعلان للنظام الجديد للحكم فى طرابلس..

وأثار انتباهى فى مقدمة هذا البيان ما جاء فيها بأنه اعلان الى شعوب طرابلس الغرب..

ولعلنى كنت أول من أدرك ان الايطاليين قد استخدموا كلمة شعوب فى هذا البيان لتكون مسمارا فى نعش وحدة شعب طرابلس..

ولعلها كانت أيضا ذريعتهم لا ثارة الفرقة والخلافات فيما بعد فى صفوف أهل ليبيا..

المهم.. صدر القانون الاساسى..

وكان أن أخذت البلاد شيئا من مقومات الحرية والحكم الوطنى..

ومع الافراج عن الأسرى العرب عاد بعض اهالى مصراتة الذين كانت السلطات الايطالية قد اجبرتهم على النزوح عنها أثناء عمليات الانسحاب الأول من شاطىء مصراتة..

ثم أخذت تتكشف للمجاهدين مع تنفيذ اتفاقية الصلح بعض الشروط الخطيرة فى الاتفاقية..

فقد كان من شروطها مثلا ان يكون جمرك مصراته فى ايديهم.. أى تحت اشراف الايطاليين..

كما كان من شروطها أن يكون عندهم ضابط برتبة ميجر فى نفس مدينة مصراتة..

وأن يكون مع هذا الضابط عشرة أنفار من أجل الاشراف على أجهزة التلغراف المركزية.

وكان من بين هذه الشروط أيضا.. أن يكون لهم.. أى للايطاليين نقطة عسكرية فى مصراته على أن تتكون من مائتى عسكرى ما بين نفر وصف ضابط.. وضابط

كانت الاتفاقية شأن أى اتفاقية تبرمها دولة صغيرة مع دولة مستعمرة قوية..

ولكن ما كان يبعث الرضا عند المجاهدين هو بند آخر فى الاتفاقية يسمح بأن يكون الجيش الوطنى كله من أنفار وضباط من أهل البلاد على أن تتحمل الحكومة الوطنية

نفقات ملابس هذا الجيش ومرتبات ضباطه وجنوده . . وبشرط أن تتضمن تنظيمات الجيش ضابطا واحدا ايطاليا برتبة كولونيل كمستشار عسكرى للجيش الوطنى . .

وصحيح أن الحكومة الوطنية قد عملت على تنظيم الجيش الوطنى وكتائب المجاهدين الا انها لم تجد غضاضة فى الإبقاء على هذا الكولونيل الايطالى . . وبالرغم من أن رمضان السويحلى كان على يقين من أن هذا الضابط له مهمة اخرى وهى ان يكون جاسوسا على الجيش الوطنى . . الا انه لم يعترض على الايطاليين أثناء المفاوضات عندما أصروا على تعيين هذا الضابط الجاسوس فى الجيش الوطنى . .

ولكنى سرعان ما أدركت أنه عندما وافق على تعيين هذا الضابط كان يضمر فى نفسه شيئا آخرا لمواجهة اصرار الايطاليين .

كانت له أساليبه . .

وقد راودته قبل ان يجف المداد الذى كتبت به اتفاقية الصلح أكثر من فكرة لمحاصرة كل العيون التى أراد الايطاليون استخدامها على طريق الاتفاقية لمتابعة تحركاته . .

واذكر انه بعد أن تم اختيار الضابط الايطالى الذى خصص للعمل فى مدينة مصراته ، ان استقبله رمضان السويحلى بحفاوة ، ثم قام بانزاله فى بيت جميل

وفى الوقت الذى كان يأمر فيه اتباعه بتقديم كافة التسهيلات لهذا الضابط كان رمضان قد أتم محاصرة بيت الضابط بالجواسيس والعيون من بين أتباعه . .

وكانت تعليمات رمضان صريحة وواضحة بأن كل من يدخل على هذا الضابط الايطالى أو يحاول الاتصال به يعاقب عقابا شديدا . .

وتخوف الناس من الاتصال بالرجل ولا سيما أصحاب النفوس المريضة الذى اخذ لعابها يسيل مع بريق الذهب الاجنبى . .

وانتهى الأمر بالضابط الايطالى لان يجد نفسه أسيرا أو معتقلا . .

ولم يكن امامه الا أن يستغيث بحكومته وهو يقول لها :

ـ أنا هنا شبه محاصر ولم يعد فى وسعى أن أبذل نشاطا أو أن اتحرك . .

واضطرت حكومة طرابلس لأن ترسل تعليماتها اليه بان ينسحب من مصراته بعد أن يحمل آلة اللاسلكى التى كانت معه إلى منطقة قصر أحمد . .

وهكذا كانت طريقة رمضان فى مواجهة مثل تلك الأمور بالصبر.. وبالدهاء..

* * *

وكنت فى تلك الأيام قد بقيت فى مدينة طرابلس، ومعى بعض أعيان الصحراء فى بيت استأجرناه..

والتف حولنا أهل المدينة وشبابها.. ولم أنتظر وبادرت باصدار جريدة أطلقت عليها اسم اللواء الطرابلسى..

ولا أريد أن أقول أن انتسابى الى الحزب الوطنى فى تلك الأيام هو الذى أوحى لى باختيار هذا الاسم للجريدة الطرابلسية..

كنت أريده قريبا من اسم جريدة اللواء التى أصدرها الحزب الوطنى فى القاهرة وكانت لسان حاله..

والى جانب هذه الجريدة قمت بافتتاح مدرستين لتعليم الأهالى..

وأثار نشاطى انتباه المسئولين الايطاليين فأخذوا فى تشجيعى..

ولم يدرك أى واحد منهم فى تلك الايام ما كنت أجرى وراءه.. فقد كان هدفى أولا وقبل كل شىء هو تقوية معنويات الشعب والأهالى..

كنت أريد أن ينتشر العلم بسرعة، حتى يستطيع هذا الشعب المسكين أن يرفع رأسه أمام الايطاليين، وأن يتحرر من الهوان الذى عاش فيه سنوات طويلة..

وفى تلك الايام اتخذ الايطاليون بعض الخطوات لا نشاء مجلس النواب وتشكيل أول مجلس للحكومة الوطنية..

واذكر فى تلك الأيام أننى كنت مع الجنرال الايطالى فى مقر الحكومة عندما همس فى أذنى قائلا:

- لماذا لا تطلب بعض المال لمشروعاتك فى الصحافة والتعليم..

وانتفضت فى مكانى وأنا أقول له:

أعتقد أن المدة التى قضيتها هنا كانت كافية لأن تعرفنى جيدا، وأن تؤمن بأننى رجل شريف..

وحاول الجنرال الايطالى أن يقول شيئا ولكننى كنت أسرع منه عندما استطردت أقول له :

ـ سيدى إن أهل طرابلس عندهم الكفاءة والقدرة على تنفيذ المشروعات الاصلاحية والاتفاق عليها . . وأنا آسف لمجرد أن تبادر الى خاطرك أننى أطمع فى أموالكم الايطالية . .

ولم يتمالك الجنرال نفسه بعد الذى سمعه منى ، فأخذ يعتذر لى ، وهو يقول :

ـ أنا آسف لأنك لم تفهمنى جيدا . . فقد كنت أعرض عليك فقط استعدادنا للمعاونة فى الأعمال الاصلاحية العامة .

* * *

تركت الجنرال الايطالى وأنا فى أشد حالات الانفعال والغضب . . وتبادر الى خاطرى فى ذلك اليوم احتمال ان يكون الايطاليون قاموا بمثل هذه المحاولة مع غيرى .

وفى بادىء الأمر استبعدت أن يكون استخدامهم لسلاح المال قد ادى الى أية نتيجة ، فقد كنت على يقين من وطنية المجاهدين الذين جاءوا معنا الى طرابلس ، ومن اخلاصهم للجهاد فى سبيل حرية بلادهم . .

وصحيح ان اشاعات كثيرة ترددت فى تلك الايام عما كان الايطاليون يقومون به لرشوة الاعيان فى غريان وغيرها . . ولا فساد ذمم الضباط والجنود . .

ولكن احدا لم يكن يستطع أن يصدق شيئا من هذه الاشاعات . .

وأنا نفسى قد مر على وقت طويل قبل أن أتحقق من حقيقة ما كان يتردد فى هذا الصدد . .

واستطيع أن أؤكد ان السلطات الايطالية قد لجأت الى سلاح الذهب منذ أول دقيقة بعد توقيع اتفاقية الصلح . .

* * *

نجحت السلطات الايطالية باستخدام سلاح الذهب فى اثارة الفتنة و المنازعات بين الكثيرين من الاعيان وزعماء العشائر . . واستطاعت بأساليبها الاستعمارية أن تسلطهم بعضهم على بعض . .

وأصبحت الحرب الأهلية وشيكة الاندلاع . . وجاءنى فى تلك الأيام من يهمس فى أذنى قائلا . . ان الايطاليين ينتظرون انطلاق الشرارة الأولى بين بعض العشائر ليبادروا

بالقبض على وابعادى عن مدينة طرابلس..

وذهبت الى الشيخ عبد العاطى الجرم.. قائد القوة العربية التى تعسكر فى خارج المدينة أسأله عن حقيقة الموقف.

وقال لى الرجل.. ان الحالة سيئة للغاية. وأنه لا بد لى من الانسحاب الى الشرق..

وفى تلك الايام كان المارشال غاريونى قد نقل من طرابلس، وجاء فى مكانه حاكم ايطالى مدنى وكنت ألتقى بهذا الحاكم الجديد أحيانا.. ودعانى الرجل يوما لتناول العشاء معه والسهرة فى دار التمثيل.

وأثناء السهرة لاحظت أن الرجل يعاملنى بعنجهية وتكبر..

وفى بادىء الأمر تصورت أن كراهيتى للايطاليين هى التى أوحت إليه بذلك ولما انتهت السهرة انصرفت وقد صممت على الخروج من المدينة فى أقرب فرصة..

وعندما وصلت الى البيت تذكرت نصيحة الشيخ عبد العاطى الجرم فأخذت احزم امتعتى.. وكلى تصميم على ترك المدينة فى صباح اليوم التالى..

كان قرارى نهائيا ولما جاء الصباح تسللت من البيت دون أن أخبر رفقائى الذين كانوا يسكنون معى بما عزمت عليه وان كنت قد أوصيت خادمى بأن يجلس أمام الباب ويقول لكل من يسأل عنى.. أننى نائم ومتعب ولا أستطيع مقابلة أحد..

ولم انتظر وبادرت بالتوجه إلى منطقة العزيزية..

وهناك نزلت فى دار الحاج نعناع الزينى.. وكان قائمقام المنطقة.. أى حاكما لها..

كان رجلا معروفا بوطنيته وبولائه للجمهورية منذ أن توقفت الحرب، وعقدت اتفاقية الصلح.. ومنه عرفت أن الايطاليين قد قاموا باصلاح استحكامات سيدى رمضان.. وانهم يعسكرون فيها..

وكانت هذه الاستحكامات تمتد فوق ربوة تشرف على بلدة العزيزية..

ولم أتمالك نفسى من الغيظ لأن اصلاحهم لهذه الاستحكامات كان مخالفا لا تفاقية الصلح التى نصت صراحة على عدم اقامة الاستحكامات فى داخل البلاد أو احتلالها بقوات ايطالية..

وكان واضحا أن الايطاليين قد استطاعوا بسط نفوذهم على داخل البلاد..

وأثناء تجولى فى منطقة العزيزية .. كان من السهل على ان أدرك أن الحالة المعنوية للعرب قد ساءت وأنهم قد نسوا أيام الجهاد بعد أن جنحوا للسلم تاركين الحبل على الغارب للايطاليين بالدرجة التى مكنت ضباط الاتصال الايطاليين من أن يصبحوا الحكام الحقيقيين للبلاد ..

* * *

رأيت من قبيل الاحتياط الا أبيت فى العزيزية ، وكان أن اخبرت الحاج مفتاح الزينى بعزمى على الرحيل .. قلت له أننى أزمع السفر ليلا الى ترهونة ..

وحاول الرجل اقناعى بقضاء الليل فى بيته . على أن أستأنف سفرى فى صباح اليوم التالى ولما وجدنى مصرا على رأيى قال لى : ان الضابط الايطالى عنده سيارات كثيرة وانه يستطيع أن يطلب منه واحدة لتقوم بتوصيلى الى ترهونة ..

ورحبت بالفكرة ليتصل الحاج مفتاح بالضابط الايطالى فى التليفون ويطلب اليه ارسال احدى سياراته لحملى الى ترهونة فوعده بارسالها ..

ولكن السيارة لم تصل ولما طال انتظارنا ذهبت اليه بنفسى وبصحبتى الحاج مفتاح ولما رآنى الضابط الايطالى أخذ يعتذر بحرارة بحجة أن عشرات السيارات التى بين يديه ليس من بينها سيارة واحدة يضمن توصيلى بها سالما الى ترهونة ..

وكانت حجته طبعا واهية .

وحدث بينما كنت أتحدث مع الضابط الايطالى أن لمحت عينى بدوية حسنة القوام وهى تخرج من مسكنه الخاص ..

كانت تتسلل من الباب وهى تتلفت حولها وكانت تبدو كمن تريد ألا يراها أحد ..

وأثار منظر البدوية وهى تتسلل من بيت الضابط الايطالى الالم والمرارة فى نفسى ولما انصرفنا من عند الايطالى بادرت بسؤال الحاج مفتاح عن البدوية ..

فقال لى .. انها زوجة أحد رجال الشرطة ..

قالها بهدوء وبساطة وكأن الأمر لا يهمه من قريب أو بعيد ..

وأدركت ما أصبحت عليه حالة الاهالى فى هذه المنطقة بعد أن وصل اليها الايطاليون فقد كان يكفى أن تقوم امرأة بخدمة ضابط إيطالى حتى يسىء بها الناس الظنون حتى لو كانت خدمتها له بريئة من كل سوء ..

قلت لنفسى ماذا حدث يارب للاهالى العرب ؟

وأخذت أتعجب لتطورات الأمور .. وما كدت أصل الى بيت الحاج مفتاح حتى طلبت

اليه أن يرسل مناديا الى السوق ليدعو الناس للاجتماع..

قلت له.. اننى أريد أن ألقى فيهم كلمة..

واجتمع الناس كالعادة الجارية تلك الأيام ووقفت فيهم خطيبا..

وكانت مفاجأة عندما سمعونى وأنا أقول لهم.. لقد غبت عنكم شهرين أو ثلاثة ثم عدت لأرى قوما غير القوم.. قد نسوا الجهاد وانصرفوا الى الشهوات وذلوا ذلا كبيرا.. وهاهو ذا سيدى رمضان يشرف عليكم من مرقده.. وقد تحكم فيه النصارى دون أن تحتجوا ودون أن ينهض منكم رجل رشيد فيأتى الينا فى المدينة ويخبرنا بما جرى.

وأثار كلامى حماس الناس.. وأخذ بعضهم يدافع عن نفسه رغم موقفه وهم فى عجب لكلامى..

ولم أتمالك نفسى فقد كانت جميع حججهم واهية فبادرت اقول لهم:

ـ لقد ساءت والله حالكم وأنا لم يعد فى وسعى المقام ولذلك قررت أن انصرف اليوم عنكم..

وحاول الأهالى تهدئة ثورتى.. والتف بعضهم حولى لاقناعى بالعدول من قرارى.. ولكن لم أنتظر وبادرت بترك المدينة..

وكانت البدوية الحسناء التى شاهدتها وهى تتسلل من بيت الضابط الايطالى هى السبب.

الفصل الثالث والعشرون

أراد شيخ القبيلة تكريمى فزوجنى ابنته!

نسيت أن أقول.. إننى تزوجت من بدوية حسناء أثناء حياتى فى طرابلس..

كانت ابنة واحد من أكبر مشايخ القبائل فى ناحية غريان..

وكنت قد ذهبت الى الرجل فى مهمة قبل أن تنشب الحرب بيننا وبين الايطاليين..

وأراد شيخ القبيلة تكريمى، فعرض على أن يزوجنى ابنته..

ووافقت بلا تردد..

وكان لهذا الزواج أثر كبير فى اندفاع قبيلة الشيخ الكبير معنا فى الجهاد ضد الايطاليين..

ولا أذكر أننى قد رأيت وجه عروسى الا فى ليلة الزفاف..

وبهذه المناسبة أقيم احتفال كبير اشترك فيه عدد كبير من الاعيان وزعماء العشائر..

ولن أنسى فى حياتى.. أننى أمضيت ١٩ يوما فقط مع عروسى، وبعدها اضطررت للخروج للجهاد مع المقاتلين العرب..

كانت الحرب قد بدأت، وكان على أن أحمل بندقيتى لأقاتل مع المجاهدين..

وكان شعورى عندما خرجت للحرب ضد الايطاليين، أننى أقاتل مع إخوانى المجاهدين دفاعا عن أرضهم العربية.. وعن بيتى الذى تركت فيه عروسى فى غريان.

أما المجاهدون، فقد تزايدت ثقتهم بى، بعد أن تزوجت هذه البدوية ابنة شيخ القبيلة فى غريان..

كنت اسمعهم يقولون.. ان عبد الرحمن عزام أصبح منا بعد أن تزوج من بناتنا..

وهكذا ذهبت الى الحرب وتركت عروسى ورائى..

وأراد القدر أن تمر الأيام دون أن تسمح لى ظروف الجهاد بالعودة الى بيتى فى غريان..

كانت الاحداث تجرى بسرعة..

وعندما اضطررت لمغادرة طرابلس، لم تسنح لى الفرصة لوداع البدوية التى تزوجتها قبل أن تنشب الحرب بيننا وبين الايطاليين بعدة أسابيع.

ومرت الأيام، ثم عرفت بعد عدة سنوات، انني تركت عروسي عندما ذهبت للحرب، وهي حامل مني، وانها ماتت بحمى النفاس بعد أن وضعت طفلة صغيرة أطلق عليها أخوالها اسم زينب.

ولم أعرف بمثل تلك المأساة التي خلفتها ورائي في منطقة غريان الا بعد عودتي الى القاهرة.

أن أحدا من أهل عروسي لم يكن يعرف شيئا عن مصيري، فقد تصور بعضهم انني استشهدت أثناء المعارك.. وكان أن قام اخوال الطفلة بتربيتها والعناية بها..

وصحيح أن صلتي بعد عودتي الى القاهرة لم تنقطع مع زملاء السلاح من المجاهدين الذين حاربت معهم، الا أن أحدا منهم لم يخبرني بأنني قد تركت ورائي طفلة صغيرة في الجبل..

ومرت السنوات قبل أن يعرف أخوال الطفلة الصغيرة في غريان أنني حي أرزق.

وفي سنة ١٩٣٦ جاءت زينب.. وكان عمرها ١٤ سنة الى القاهرة مع أحد أخوالها، وهو أحمد الغرياني..

قال لي: ياعبد الرحمن.. هذه زينب ابنتك، وقد شبت بيننا حتى عرفنا أنك لم تستشهد في الحرب، وعرفنا عنوانك..

وكانت أول مرة أرى فيها ابنتي الصغيرة..

وكنت في تلك الأيام استعد للسفر الى بغداد، حيث كان قد صدر قرار بتعييني سفيرا لمصر لدى أربع دول اسلامية دفعة واحدة وهي العراق وتركيا وايران وافغانستان. ولذلك بادرت بتقديم ابنتي الى المرحومة والدتي لتعيش معها في بيتي في حلوان..

وعملت أمي رحمها الله على تعويضها الكثير مما كانت قد افتقدته من حنان الام التي لم ترها..

ومرت عدة سنوات، وكان ابن أخي أبو بكر عزام قد تخرج في الكلية الحربية، وجرى تعيينه في نقطة خفر السواحل بناحية الحمام في ضواحي الاسكندرية، عندما جاءني في أبو قير بعض اصدقائي الليبيين من زملاء الجهاد، وكان من بينهم الشيخ الوقور الحاج الفيتوري السويحلي

انه من عائلة رمضان السويحلي.. وكانت اخته متزوجة من سعدون شقيق رمضان.. وبعد استشهاد سعدون في المعارك التي دارت بعد تركي طرابلس تزوجها أحمد الاخ الثالث لرمضان..

وكان الحاج الفيتوري السويحلي يقيم وقتها مع عائلات المجاهدين الليبيين التي هاجرت

الى صحراء الفيوم بعد انتهاء المعارك ثم انتقلت الى ناحية الحمام. فتعرف على ابن اخى أبو بكر عزام..

وكانت مفاجأة عندما بادرنى الشيخ الفيتورى قائلا:

ـ يا عبد الرحمن.. مارأيك.. احنا اجتمعنا مع الإخوان الليبيين وقررنا تزويج ابنتك زينب الى ابن أخيك أبو بكر..

وكانت واحدة من لحظات السعادة فى حياتى عندما أجبته على الفور:

إن زينب ابنتكم.. واذا كنتم قد قررتم هذا فأنا موافق..

وتزوجت ابنتى زينب من ابن أخى أبو بكر عزام!

أنقذت مصر من ويلات الحرب العالمية الثانية

وتمر الأيام لتحصل مصر على الاستقلال بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ ..

ومع هذه المعاهدة أصبح السير مايلز لامبسون المندوب السامى البريطانى سفيرا لبلاده فى القاهرة .

وفى سنة ١٩٣٩ اختارنى المرحوم على ماهر لأتولى منصب وزير الأوقاف فى الحكومة التى كلف بتشكيلها ..

ولم أكن موجودا فى القاهرة ، فقد كنت اعمل سفيرا فى تركيا ..

وكنت قد تلقيت قبل تشكيل الوزارة برقية تدعونى للعودة فورا الى القاهرة لمقابلة هامة ..

ولم أعرف باختيارى وزيرا فى الحكومة الجديدة الا فى ميناء بيريه باليونان عندما توقفت الباخرة التى كنت عائدا عليها فى طريق عودتى الى الاسكندرية فقد جاء القنصل المصرى لتحيتى .. ومنه عرفت بقرار تعيينى وزيرا للاوقاف فى الحكومة الجديدة ..

وأذكر اننى لم أشعر كثيرا بالارتياح عندما سمعت خبر تعيينى وزيرا ..

كان القرار قد اتخذه على ماهر رغم ارادتى ، ولكنه كان صديقا وقد أراد كما قال لى عندما قابلته بعد وصولى الى الإسكندرية أن أكون معه فى الوزارة ..

* * *

كانت الوزارة لاتزال فى الإسكندرية بمناسبة الصيف ، ولذلك كانت اجتماعاتها تعقد فى بولكلى ، ولقد اضطررت للاقامة فى فندق سان استفانو ..

وكان على ماهر يقيم فى نفس الفندق ..

وفى تلك الأيام اخذت رائحة الحرب تفوح فى الأفق الدولى مع تهديدات هتلر بغزو بولندا والاستيلاء على مدينة دانزنج ..

ولم يكن السير مايلز لامبسون موجودا فى مصر ، فقد كان يقضى اجازته فى لندن ..

وكان الذى يقوم بأعماله هو الوزير المفوض بالسفارة البريطانية .. وكان اسمه باتمان ..

وأذكر أن القائم بأعمال السفير البريطانى قام بمقابلة رئيس الوزراء عدة مرات للتشاور

فى موقف مصر فى حالة اعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا . .

وفى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ عاد السفير البريطانى من لندن وقام فور وصوله بالسفر الى الإسكندرية حيث زار على ماهر . .

قال له ان الحكومة البريطانية يهمها أن تبادر مصر باعلان الحرب رسميا على المانيا بمجرد أن تعلنها الحكومة البريطانية تنفيذا لبنود المعاهدة الانجليزية المصرية . .

ولم يكن طلب السفير البريطانى مفاجأة لرئيس الوزراء فقد سبق أن تلق تبليغا شبيها من المستر باتمان القائم بأعمال السفير قبل عوده السير مايلز لامبسون من لندن . .

وكان فى رأى على ماهر . . وفى رأى غالبية وزراء حكومته . . ان تقوم الحكومة المصرية باعلان الحرب على المانيا بمجرد اشتراك انجلترا فى الحرب ضدها . .

وعندما قابل السير مايلز لامبسون رئيس الزراء كان يحمل معه طلبين رسميين :

الأول يقول بالحرف الواحد : إنه يسعد الحكومة البريطانية بصفة خاصة . . أن تعلن مصر أنها فى حالة حرب مع ألمانيا . .

والثانى يطلب رسميا أن تقوم السلطات المصرية باعتقال الرعايا الألمان واحتجازهم فى أحد معسكرات الاعتقال باعتبارهم أسرى حرب . .

والثابت رسميا أننى حاولت مع بداية غزو الالمان لبولندا اقناع على ماهر بالاخطار التى يمكن أن تحيق ببلادنا فى حالة اشتراكنا فى الحرب .

قلت له : ان هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل . .

وطلبت اليه اقناع لانجليز بالسماح للرعايا الالمان بالعودة الى بلادهم تأمينا للرعايا المصريين ، وخاصة الطلبة الذين كانوا يعيشون فى ألمانيا . .

وأثارنى على ماهر عندما قال لى أن فى رأى غالبية وزراء حكومته أن تعلن مصر حالة الحرب على المانيا فى نفس الوقت الذى تقرر فيه بريطانيا دخول الحرب ضدها تنفيذا لبنود المعاهدة الانجليزية المصرية . .

واعترضت بشدة ، وأنا اقول له :

ـ ان هذا القرار خطير ، ولايمكن أن أوافق عليه . .

وكانت مناقشة حامية تقرر بعدها عقد جلسة لمجلس الوزراء لمناقشة هذا القرار الخطير . .

وبعث على ماهر الى المرحوم عبد الحميد بدوى فقيه مصر الدولى ، وكان فى تلك الأيام رئيسا لقلم قضايا الحكومة يطلب اليه فتوى فى تفسير بنود المعاهدة . .

وعندما عقد مجلس الوزراء اجتماعه الطارىء جاء عبد الحميد بدوى يحمل فتوى

قانونية تقول صراحة إن بنود المعاهدة تلزم مصر بدخول الحرب الى جانب الانجليز..

وكانت مناقشات مثيرة. قلت أثناءها للمرحوم عبد الحميد بدوى بالحرف الواحد:

ـ أنا عوف أننى لست متفقها فى القانون الدولى الا أننى استطيع أن أؤكد لك أن المعاهدة لا تلزمنا باعلان الحرب على ألمانيا وفى رأيى أن المعاهدة تلزمنا فقط باحدخول فى الحرب فى حالة واحدة وهى أن يقع اعتداء مباشر على بريطانيا..

وقلت له.. الواضح أن مايجرى الآن هو صراع بين دولتين فى عصبة الامم المتحدة التى نرتبط بها جميعا، ولا يمكن أن يكون هناك الزام لنا بدخول الحرب الى جانب الانجليز قبل أن تحدد عصبة الأمم.. من هو المعتدى.. ومن هو المعتدى عليه..

كانت جلسة عاصفة استغرقت أكثر من أربع ساعات..

وكان فى رأى الوزراء السعديين فى الوزارة أن تعلن مصر الحرب فورا الى جانب الانجليز حتى يتسنى لها أن تصبح باشتراكها فى هذه الحرب قوة عسكرية وأن يكون لها جيش وطنى..

وقال بعض هؤلاء الوزراء السعديين.. ان مصر تستطيع بمثل هذا الجيش الوطنى أن تفرض ارادتها الوطنية على الانجليز بعد الحرب، وأن تفرض نفسها على مجتمع الصلح عندما ينتهى القتال..

وتحمس المرحوم صالح حرب وكان وزيرا للحربية لاتجاه اعلان الحرب.. وكان فى رأيه كما قال.. ان مصر لم تشترك فى أية حروب منذ سنوات طويلة وان اشتراكها فى الحرب الى جانب الانجليز يمكن ان يثير روح التربية العسكرية بين الشباب، فضلا عما سيعود على مصر من فائدة عندما يصبح لها جيش وطنى قوى..

ولم أتمالك نفسى من الغضب وأنا أسمع مثل هذا الحماس للاشتراك فى الحرب. وكان ان أخذت افند آراء الوزراء وأنا أقول لهم:

ـ كيف يمكن أن أعلن الحرب على دولة تعادى عدو بلدى الجاثم على صدرى قبل أن يعلنها اصدقاؤه الايطاليون..

وقلت لهم: فى رأيى أن هذه الحرب ستدوم خمسا أو ست سنوات.. والله أعلم بما يمكن أن تجره هذه الحرب على وطننا وعلى شعبنا المصرى وجيشه من دمار وخراب..

وكان فى رأيى الذى سجلته رسميا فى محضر الاجتماع أن بريطانيا تريد أن تقاتل بآخر جندى مصرى حتى يتم لها الاستعداد للحرب التى أخذتها على غرة..

وحاول بعض الوزراء أن يعارضنى فى رأيى ولكنى لم أنتظر، وأخذت اسأل عن الثمن الذى يمكن أن تدفعه بريطانيا لمصر مقابل اعلان الحرب على ألمانيا..

قلت للوزراء .. لو كان هناك مقابل لاتخاذ مثل هذا القرار الخطير كوعد بالجلاء ، أو تعويض لما يحتمل أن يحيق ببلادنا من خسائر بعد الحرب لكان هناك مبرر للموافقة على اعلان الحرب .. أما وان بريطانيا تريد منا اتخاذ هذه الخطوة بلا مقابل فهذا مالا أوافق عليه .

وفى تلك الاثناء لم يكن على ماهر يتكلم أو يشارك فى المناقشة ، لقد ظل صامتا وهو يتابع محاولاتى لاقناع الوزراء بوجهة نظرى ..

ولكنه فجأة قرر أن يحسم الموقف بالتصويت على القرار ..

وتلفت حولى وأنا أتابع الوزراء الواحد بعد الآخر وهم يدلون بأصواتهم ..

كانوا ١٤ وزيرا .. وقد وافقوا جميعا على اعلان الحرب الى جانب بريطانيا ..

وكنت وحدى الذى لم يوافق على اتخاذ هذا القرار الخطير ..

أما على ماهر ، فقد امتنع عن التصويت مفضلا عدم إبداء رأيه ..

ولم أتمالك نفسى وبادرت بسحب ورقة صغيرة ، ثم كتبت عليها استقالتى من الوزارة .. كانت مختصرة للغاية .. وكل ما أذكره هو انى قلت فيها لرئيس الوزراء : اعتقد أن مهمتى قد انتهت ، ولذلك أرجو إعفائى من عملى كوزير فى الوزارة ..

ولم أنتظر ، وبادرت بتقديم الاستقالة الى على ماهر .. ثم انصرفت من حجرة الاجتماع ..

أثار موقفى ارتباكا فى مجلس الوزراء ..

وبادر على ماهر بفض الاجتماع ، ثم قام من مكانه ليلحق بى ، وكنت قد توجهت رأسا الى حجرتى بفندق سان استفانو .

وكانت مناقشة حامية بينى وبينه ، وقد قلت له اثناءها :

ـ انى كوزير لا أستطيع أن أشارك فى مسئولية اتخاذ مثل هذا القرار أمام الله والتاريخ ..

وحاول على ماهر تهدئة ثورتى ، فقال لى إنه قرر عدم إذاعة قرار مجلس الوزراء ..

كما قرر عدم ابلاغه للانجليز ..

واستمرت المناقشة بيننا من الساعة العاشرة والنصف مساء حتى الساعة الواحدة صباحا ..

وبدا لى أن على ماهر قد اقتنع بوجهة نظرى فطلب الى أن أقوم بمحاولة لاقناع المسئولين فى السفارة البريطانية حتى يكفوا عن التمسك بطلب اشتراك مصر فى الحرب ..

ووعد بأن يقوم بنفسه بالاتصال بالسفير البريطانى للاتفاق معه على إجتماعى به ومحاولة اقناعه بوجهة نظرى..

وبمعنى آخر.. كان على ماهر هو الذى طلب الى الاتصال بالسفارة البريطانية..

* * *

عرف السفير البريطانى بما حدث فى اجتماع الوزراء من المرحوم كامل سليم سكرتير عام المجلس الذى كان حاضرا فى الاجتماع.

وعندما اتصل به على ماهر يقترح عليه مقابلتى والاستماع الى وجهة نظرى لم يرحب كثيرا واقترح أن يكون اتصالى مع مستر باتمان.. الرجل الثانى فى السفارة البريطانية..

المهم عقدت عدة اجتماعات مع المستر باتمان.

كما اجتمعت مع أكثر من واحد من القواد العسكريين الانجليز فى القاهرة.. وكانت تربطنى ببعضهم صداقات قوية، ومن هؤلاء الجنرال ويلسون الذى كثيرا ماكان يطلب مقابلتى لاستشارتى حول موقف قواته فى الصحراء الغربية..

وأثناء مباحثاتى مع مستر باتمان قلت له.. إن بريطانيا تريد منا أن نضحى وأن نعلن الحرب ضد ألمانيا دون مقابل..

وسألنى الرجل عما يمكن أن تقدمه بريطانيا الى مصر مقابل موافقتها على الاشتراك فى الحرب..

قلت.. اعلان استعداد بريطانيا للجلاء الكامل عن الأراضى المصرية بمجرد انتهاء الحرب.. وأن تدفع الحكومة البريطانية جميع تكاليف هذه الحرب حتى لا تخرج منها مصر مدينة.. وأن تعلن بريطانيا إستعدادها للموافقة على مطالب مصر فى السودان، وكذلك موافقتها على تأييد أمانى الشعب المصرى فى الوحدة العربية.

واستغرقت هذه الاتصالات عدة أيام.

وبعثت السفارة الى على ماهر بأكثر من مذكرة شفوية تتضمن آرائى، والمطالب التى أبلغتها الى المستر باتمان فى لندن.

وتصورت أن الانجليز سيوافقون على الاستجابة لموقفنا، ولكن مرت عدة أيام ثم جاء الرد من لندن مع تصريح اذاعته وكالات الانباء للورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية فى تلك الأيام وكان يقول فيه:

- ان الحكومة البريطانية ليست على استعداد للمساومة فى هذه الظروف..

وأدركنا أن الحكومة البريطانية لاتزال عند موقفها وانها لا توافق على الشروط التى وضعتها لاعلان الحرب على الالمان..

المهم .. اقتنع على ماهر أن لا فائدة لمصر من إعلان الحرب على الالمان .. وكان أن أخذنا فى اعادة تفسير المعاهدة المصرية الانجليزية لدراسة التزامات مصر تجاه الانجليز فى هذه المعاهدة ..

وتقرر ألا تعلن مصر الحرب ، إلا فى حالة واحدة .. وهى أن يكون الهجوم على بريطانيا ذاتها .. لا لارتباط مصر بالانجليز ولا لوجود قوات بريطانية فى أراضيها !

وكان تحولا خطيرا فى الموقف كله ..

وبعث على ماهر فى يوم ٩ سبتمبر الى السفير البريطانى بمذكرته التى تراجع فيها عن قرار اعلان الحرب على ألمانيا بحجة أنها لم تعلن الحرب على مصر .. وأن تطورات الموقف تستدعى اتخاذ هذا القرار ..

وفى نفس الوقت عهد الى على ماهر باعداد الخطاب الذى قام بالقائه فى مجلس الشيوخ تحديدا لموقف مصر فى الحرب العالمية ..

وقد بادرت بكتابة هذا الخطاب ..

ولا أريد أن أقول .. اننى كنت أول من استخدم عبارة .. تجنيب مصر ويلات الحرب .. التى جاءت فى هذا الخطاب ..

وطبعا لم يعجب هذا السير مايلز لامبسون ، ولذلك لم يتمالك نفسه عندما اتهمنى فى حديث له مع على ماهر بعد ذلك بعد عدة أيام بأننى لم أتخذ موقفى فى معارضة اعلان الحرب على ألمانيا الا لسبب واحد ، وهو أن لى ميولا نازية ..

قال له .. ان كل التقارير التى تجمعت لدى المخابرات البريطانية تؤكد أن عزام له ميول نازية ..

وعرفت بما قاله السفير البريطانى ، فلم أتمالك نفسى من الغضب وذهبت أقول لعلى ماهر :

ـ كيف ترضى ياباشا أن يتهم وزير يعمل معك فى الوزارة بأنه خائن ، وأن مصلحة بلده لا تهمه بقدر اهتمامه بمصلحة دولة أجنبية أخرى .. دون أن ترد على هذا الاتهام ..

وحاول على ماهر تهدئتى ، ولكننى بادرت بتقديم استقالتى من الوزارة وأنا أقول له :

ـ ازاء هذا الموقف لا أستطيع أن استمر فى الوزارة ..

وغضب على ماهر كثيرا ، وهو يقول :

ـ ياعزام لا تسبب لى مشاكل جديدة بعد الذى حدث فى أزمة عدم إعلان الحرب .

ثم طلب الى ألا أزيد من متاعبه بتصعيد الموقف .

واذكر انى ذهبت الى غرفتى فى فندق سان استفانو .. ثم طلبت المستر سمارت

المستشار الشرقى للسفارة البريطانية فى التليفون..

ولما لم أجده طلبت الى مساعده.. أن يوافينى بسرعة لأمر هام..

وجاء الرجل.. لأقول له باللغة الانجليزية ماترجمته بالحرف الواحد:

- أننى قد سمعت أن السفير مايلز لامبسون قال لعلى ماهر أن لى ميولا ألمانية.. وأننى لأرجوك أن تذهب اليه.. وأن تقول له.. اننى لا اخجل من أن يكون لى ميولا ألمانية لأن الالمان لم يكونوا فى يوم من الأيام أعداء لبلادى، ولكن الذى يخجلنى حقا أن تقول عنى أن لى ميولا انجليزية!

وانزعج مساعد المستشار الشرقى للسفارة البريطانية عندما سمع كلمات رسالتى التى طلبت اليه أن ينقلها الى السفير البريطانى.

ومرت عدة أيام.. ثم جاء الرجل يقول لى.. إن السفير البريطانى ينفى بشدة أنه قال عنى مثل هذا الكلام..

وكانت نهاية أزمة بينى وبين السفير البريطانى - السير مايلز لامبسون الذى أصبح اسمه بعد ذلك اللورد كيلرن!

الفصل الخامس والعشرون

خرجت فكرة الجامعة العربية من لندن .. ولكن !

اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية.

ومع دخول ايطاليا الحرب الى جانب الالمان أخذت الحرب تدق أبوب بلادنا بعنف..

وأخذت المعارك تدور بشراسة وضراوة على أرض الصحراء..

وعندما اقتربت قوات المارشال روميل من الاسكندرية استعد الانجليز لنقل قيادتهم من القاهرة الى فلسطين..

وكان فى رأى بعض القواد الانجليز أن يكون الانسحاب من القاهرة الى الخرطوم فى السودان..

وفى تلك الايام.. كانت غالبية شعوب الأمة العربية لا تزال تحت سيطرة الدول الاستعمارية..

وارتفعت بعض الاصوات الوطنية تطالب بانتهاز الفرصة للحصول من الانجليز على تصريحات رسمية حول مستقبل البلاد التى كانت لا تزال تحت الاحتلال فى حالة انتصار الحلفاء فى الحرب..

وكان فى رأيى الذى لم يتغير منذ اشتغلت بالسياسة.. أن الأمة العربية لا تستطيع أن تحقق أهدافها الا بالتضامن والوحدة..

ومن هنا ظلت تراودنى منذ شبابى الكثير من الأحلام حول امكانية تحقيق هذه الوحدة العربية..

وفى تصورى أن موقف مصر عندما رفضت الاشتراك فى الحرب العالمية الثانية الى جانب الانجليز، قد أثار اهتمام بقية الشعوب العربية..

وكان أن انتشرت روح النضال فى مختلف أرجاء البلاد العربية!!

ويحتمل كثيرا أن يكون بعض الزعماء العرب قد لجأوا الى أسلوب المساومات فى اتصالاتهم سواء مع الانجليز أو مع الالمان، الا أن كل هذه المساومات لم تكن فى رأيى تهدف الا لشىء واحد، هو انتهاز حالة الحرب لتحقيق أهداف شعوبهم العربية من أجل أن تتحرر وأن تحصل على استقلالها..

وكانت الحكومة البريطانية قد حاولت كما فعلت فى مصر أن تفرض إرادتها على شعب العراق للاشتراك فى الحرب العالمية الى جانب القوات الانجليزية..

قالت.. المعاهدة العراقية الانجليزية التى عقدت فى سنة ١٩٣٠، تلزم العراق بالاشتراك فى الحرب..

وحاول نورى السعيد، وكان رئيسا للحكومة العراقية أن يجر بلاده الى الحرب ولكن القوى الوطنية فى الجيش العراق وقفت فى وجهه..

ووقع خلاف كبير بين العناصر الوطنية فى العراق وبين عملاء الاستعمار البريطانى حول تفسير المعاهدة الانجليزية العراقية..

وارتفعت الاصوات الوطنية تطالب برفض الاشتراك فى الحرب، كما فعلت فى مصر وكانت ثورة رشيد عالى الكيلانى التى تفجرت فى منتصف سنة ١٩٤١..

وفى رأيى.. ان نجاح هذه الثورة كان ممكننا أن يغير من نتائج الحرب العالمية الثانية كلها..

كانت تهدد خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية مع الهند..

ولكن هتلر وقع فى خطأ كبير عندما تردد فى نصرة الجيش العراق، مما ساعد القوات الانجليزية على توجيه ضربات قاسية اليه..

واشترك الجيش العربى الأردنى بقيادة جلوب باشا الانجليزى فى الزحف على العراق.

كما ساهم الفيلق اليهودى الذى كان الانجليز قد قاموا بتشكيله من يهود فلسطين فى الحرب ضد الجيش العراق..

ومما سمعته.. أن موشى ديان كان ضابطا فى الفيلق اليهودى، وانه اشترك فى القتال ضد العراقيين..

ومع هزيمة الجيش العراق فشلت ثورة رشيد عالى الكيلانى التى كانت من أهم أهدافها تحقيق الوحدة العربية والمساعدة على تحرير فلسطين واستقلال الدول العربية التى كانت لا تزال تحت الاحتلال البريطانى..

* * *

وليس سرا.. أن فكرة انشاء الجامعة العربية خرجت لأول مرة من لندن.. وأن انطونى ايدن كان هو الذى أوحى الى الدول العربية بانشاء هذه الجامعة عندما كان وزيرا للخارجية فى حكومة تشرشل أثناء الحرب العالمية.

ولا أخفى اننى تحمست كثيرا لفكرة انشاء هذه الجامعة..
كانت حلما من أحلامى فى شبابى، ومنذ بدأت الاشتغال بالسياسة..

قد يقول البعض.. ان الانجليز قد أرادوا باقتراحهم انشاء هذه الجامعة امتصاص مشاعر الجماهير التى اشتد حماسها مع الانتفاضة الوطنية لتحقيق الوحدة العربية.

ولكننى أختلف مع أصحاب هذا الرأى.. فقد كانت الوحدة العربية هدفا تسعى الجماهير العربية لتحقيقه..

كانت تعرف أن لا سبيل لتحقيق مطالبها الوطنية بدون التضامن والوحدة بين الشعوب العربية..

وكان من رأيى.. انه اذا كان الانجليز قد بادروا بطرح فكرة انشاء الجامعة العربية، الا أن هذه الجامعة ما كان ولم يكن فى وسعها ان تقوم ما لم يعمل العرب بأنفسهم على انشائها..

وان على العرب أن يلتقطوا الفكرة وأن يستغلوا حماس الانجليز لانشاء الجامعة العربية، حتى إذا ما تحقق حلم انشائها وأصبحت حقيقة ملموسة. أمكن للعرب تطويرها لتكون أداة لتحقيق مطالبهم الوطنية.

وبمعنى آخر كانت الجامعة العربية فى رأيى خطوة على طريق الوحدة العربية..

وكان يقينى أن فى وسع الامة العربية أن تطور هذه الجامعة لتصبح أداة اتصال وكفاح فى سبيل تحقيق الأهداف القومية لمختلف شعوبنا العربية..

* * *

والثابت تاريخيا.. أن أنطونى ايدن قد ادلى فى يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٤٠ بتصريح قال فيه بالحرف الواحد:

- إن كثيرين من مفكرى العرب يرغبون فى أن تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة أكبر من النصيب الذى تتمتع به الآن، وهم يأملون منا المساندة فى تحقيق هذه الوحدة، لذلك لا يجوز لنا أن نهمل أى دعوة يوجهها إلينا اصدقاؤنا العرب فى هذا الصدد، ويبدو لى أن من الطبيعى وأن من الحق أن تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية والروابط السياسية أيضا بين الدول العربية.. وعليه ستساند حكومة جلالة الملك مساندة تامة أى مشروع تتم الموافقة عليه فى هذا الصدد..

كان هذا التصريح من أنطونى ايدن هو البداية..

ومرت الأيام، حتى كان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٣ عندما وجه أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى من حزب المحافظين سؤالا إلى وزير الخارجية البريطانية عما اذا كانت بريطانيا قد اتخذت أى خطوة لتحقيق التعاون السياسى والاقتصادى المنشود بين الدول العربية..

وكان واضحا ان النائب البريطانى قد وجه هذا السؤال بإيعاز من انطونى ايدن وزير الخارجية البريطانية حتى يتيح له الفرصة لادلاء بتصريح جديد حول الموضوع..

انه أسلوب برلمانى معروف، وقد جرت عادة الانجليز على اتباعه!

وقال انطونى ايدن ردا على السؤال المتفق عليه:

- ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى أية حركة بين العرب تهدف الى تعزيز الوحدة الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية فيما بينهم.. ولكن من الواضح أن الخطوة الأولى فى هذا الصدد يجب أن يقوم بها العرب انفسهم!

والثابت تاريخيا أيضا.. انه لم تمض أكثر من خمسة أسابيع على هذا التصريح حتى كان المرحوم مصطفى النحاس باشا، وكان رئيسا لوزراء مصر، يقف فى مجلس الشيوخ المصرى ليلقى بيانا عن فكرة انشاء جامعة الدول العربية..

وفى هذا البيان قال مصطفى النحاس باشا كما تقول مضبطة مجلس الشيوخ المصرى حرفيا:

- منذ أعلن المستر إيدن تصريحه قمت بالتفكير فى الموضوع طويلا، ورأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل الى غاية مرضية، هى أن تتداول الحكومات العربية فى هذا الموضوع.. وقد انتهيت من دراستى الى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية فى هذا السبيل باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمى اليه من آمال، على حدة، ثم تبذل الحكومة المصرية جهودها فى التوفيق والتقريب بين آراء مختلف الحكومات العربية ما استطاعت السبيل الى ذلك، ثم تدعوهم جميعا الى مصر فى اجتماع ودى لهذا الغرض حتى يبدأ السعى للوحدة العربية من جبهة متحدة بالفعل، فاذا تم التفاهم أو كاد، وجب أن يعقد فى مصر مؤتمر برئاسة رئيس الحكومة المصرية لاكمال بحث الموضوع واتخاذ اللازم من القرارات حتى تتحقق الأغراض التى تنشدها الامة العربية..

* * *

كان هذا هو التصريح الذى أدلى به المرحوم مصطفى النحاس باشا فى مجلس الشيوخ المصرى . .

وقيل إن أنطونى ايدن كان قد أرسل برقية الى اللورد كيلرن السفير البريطانى فى القاهرة فى تلك الايام يطلب اليه قبل أن يلقى مصطفى النحاس بهذا البيان أن أوحى الى رئيس الوزراء المصرى بالقيام بمشاورات مع المسئولين فى الحكومات العربية حول انشاء هذه الجامعة العربية . .

وإن ممثلى بريطانيا فى العراق وسوريا ولبنان والسعودية وشرق الاردن قد تلقوا برقيات مماثلة من وزير الخارجية البريطانية حتى يعملوا على حث حكومات هذه البلاد على الاشتراك فى هذه المباحثات !

* * *

المهم . . دارت الاتصالات بين القاهرة وبقية العواصم العربية ، وقد انتهت بالاتفاق على عقد مؤتمر الاسكندرية فى الفترة بين ٢٥ سبتمبر و٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . .
وانتهى هذا المؤتمر بعقد بروتوكول أطلق عليه اسم بروتوكول الاسكندرية . .

وبمقتضى هذا البرتوكول أعلنت الدول العربية اتفاقها على التعاون والتضامن فى نطاق منظمة رسمية تحمل اسم جامعة الدول العربية . .
واتفق على تكليف لجنة فنية بوضع مشروع ميثاق الجامعة العربية !

* * *

وأذكر أن المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية لم يكن مرحبا فى بادىء الأمر بفكرة انشاء الجامعة العربية .

كان من رأيه ان اقتراح مستر انطونى ايدن بانشاء هذه الجامعة يثير الشك فى نوايا الانجليز . .

وكان الامام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن لا يميل هو أيضا لفكرة انشاء الجامعة العربية ، ولكنه اضطر تحت ضغط القاهرة ، وبعد إلحاح طويل أن يبعث وفدا برئاسة أحد مستشاريه للاشتراك فى اجتماعات المؤتمر الذى انعقد فى الاسكندرية . .

وكانت تعليمات الامام يحيى لمبعوثه أن يكون مستمعا ، والا يتكلم أثناء المناقشات . .

قال له : لا تفتح فمك بكلمة واحدة . .
والتزم السيد حسين الكبسى بتعليمات الامام يحيى بدرجة أثارت انتباه أعضاء المؤتمر . .
وعندما حاول احدهم اخراجه من تحفظه قال لاعضاء المؤتمر بصراحة :
ـ أنا ما عندى كلام . . انا مستمع كما أمرنى مولانا جلالة الامام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن المعظم حفظه الله . .
ومن يومها أصبح (الكبسى) نكتة يطلقونها فى الجامعة العربية على أى عضو يحضر أحد الاجتماعات دون أن يشترك فى المناقشات . .
أنه يصبح كما يصفونه (مثل الكبسى) . .

* * *

قرر المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فجأة الا توقع المملكة العربية السعودية على ميثاق الجامعة العربية . .

وكان هذا يعنى أن الامام يحيى هو الآخر قد يتحول من موقف الاستماع الذى التزم به مبعوثه السيد حسين الكبسى الى المقاطعة الكاملة لفكرة الانضمام الى الجامعة العربية . .

وتأزم الموقف . . ولكن حدث أن كلف المرحوم أحمد ماهر بتشكيل الحكومة المصرية بعد إقالة وزارة المرحوم مصطفى النحاس باشا . .

وكانت اللجنة الفنية التى كلفت بوضع ميثاق الجامعة العربية قد انتهت من مهمتها وتحدد يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ لاجتماع ممثلى الدول العربية للتوقيع على هذا الميثاق واعلان مولد الجامعة العربية . .
وكان المرحوم مصطفى النحاس (باشا) يضع عينيه على الدكتور محمد صلاح الدين ليكون أول أمين للجامعة العربية عند إنشائها . .
ولما أقيلت وزارته رشحنى المرحوم أحمد ماهر بعد توليه الوزارة الجديدة لهذا المنصب . .

وكان أن كلفنى بالمشاركة فى المشاورات التى كانت تجرى مع الدول العربية استعداد لتوقيع الميثاق ، وكنت وقتها أعمل سفيرا بديوان وزارة الخارجية المصرية .

ودارت فى تلك الايام اتصالات مع المملكة العربية السعودية لا قناع المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود بالعدول عن موقفه . .
ولكن جلالته أصر على رأيه . .

ولما كان موسم الحج فى تلك السنة على الأبواب ، تقرر ايفادى على رأس بعثة الحج المصرية كأمير للحج فى تلك السنة حتى يتسنى لى مقابلة الملك عبد العزيز ، والعمل على اقناعه بالموافقة على اشتراك بلاده فى ميثاق الجامعة العربية ..

* * *

سافرت إلى المملكة العربية السعودية ، على رأس بعثة الحج المصرية ..

وعرف المرحوم الملك عبد العزيز بمهمتى الأصلية ، فقرر حتى لا يتم اللقاء بينى وبينه ألا يخرج للحج فى تلك السنة ، وأن يبقى فى الرياض ..

وما سمعته أنه قال لبعض مستشاريه :

- إذا قابلنى عزام فلابد أن أدخل الجامعة ، وأنا لا أريد دخولها على هذه الصورة !

ولم أيأس ، وانتظرت حتى انتهى موسم الحج ، ثم ذهبت إلى المرحوم الملك فيصل ، وكان أميرا لجدة ، وقلت له :

لن أغادر المملكة العربية السعودية حتى يتسنى لى مقابلة جلالة الملك عبد العزيز وأنا على استعداد للسفر إليه بالطائرة .. فى أى مكان يوجد فيه مهما كانت الظروف ..

كنت لا أريد أن أعود إلى القاهرة قبل مقابلة جلالته ، وإقناعه بانضمامه إلى الجامعة العربية ..

ولم أنتظر ، وبادرت بإعداد كل شىء للسفر بالطائرة إلى الرياض لمقابلة الملك ..

ولكن حدثت مفاجأة فى الليلة السابقة للسفر .. أن أخذت أرتعش فى سريرى واشتدت على وطأة المرض ..

وجاءنى أحد الأطباء ليقول لى .. أننى مريض بحمى الملاريا .. ثم حاول اقناعى بتأجيل رحلتى إلى الرياض ..

ولم أوافق ، وقلت له .. إننى سأذهب إلى الملك وأنا مريض بالحمى .. وعرف المرحوم الملك فيصل بما أصابنى ، فحاول اقناعى بالبقاء فى جدة حتى يتم شفائى من مرضى ..

ولكننى أصررت على رأيى وقلت له .. إننى سأطير لمقابلة الملك ولا يهم اذا ما تعرضت لنكسة أثناء رحلتى بالطائرة ..

وابرق فيصل الى والده المرحوم الملك عبد العزيز فى الرياض يقول له :

- ان عبد الرحمن عزام يعرض حياته للخطر فى حالة سفره بالطائرة وهو مريض بالحمى ..

وجاء الرد من المرحوم الملك عبد العزيز فى نفس الليلة :

- إمنعوا عزام من السفر بالطائرة ، وسأحضر بنفسى من الرياض للاجتماع به فى جدة !

ومرت عدة أيام.. ثم وصل جلالة الملك عبد العزيز إلى جدة..

* * *

وكنت قد تماثلت للشفاء..

وفى أثناء اللقاء الذى تم بينى وبين جلالة العاهل السعودى الكبير كشف لى جلالته عن المخاوف التى كانت تراوده حول فكرة انشاء الجامعة العربية..

وكان فى رأى جلالته.. ان واحدا مثل انتونى إيدن لا يمكن أن يتطوع بالايحاء إلى الدول العربية بإنشاء الجامعة العربية إلا إذا كانت بريطانيا تجرى وراء تحقيق بعض المآرب الاستعمارية من إنشائها..

وبادرت أقول للعاهل السعودى الكبير:

- قد يكون هذا صحيحا يا طويل العمر.. ولكن المهم أن يتم انشاء هذه الجامعة، وبعدها يمكن للعرب أن يجعلوا منها أداة تعمل فى خدمتهم، لا فى خدمة بريطانيا!

ووافق الملك عبد العزيز على اشتراك بلاده فى التوقيع على ميثاق الجامعة..

وكان طبيعيا أن يوافق الإمام يحيى هو الآخر على توقيع الميثاق بعد أن عرف بموافقة الملك عبد العزيز على التوقيع.

وقيل أن العاهل السعودى الكبير كان له شرط واحد للموافقة على توقيع الميثاق، وهو أن يسند منصب الأمين العام للجامعة العربية إلى..

وأنه قد أوفد مبعوثا خاصا من المملكة العربية السعودية لينقل إلى الملك السابق فاروق والى المسئولين فى الحكومة المصرية رسالة من جلالته، وجاء فيها بالحرف الواحد:

- ان طويل العمر ليس لديه مانع من التوقيع على الميثاق بعد الذى سمعه من عزام.. وأن رغبة المملكة العربية السعوديه هى إختياره بالذات ليعمل أمينا عاما للجامعة حتى نضمن أن تكون الجامعة فى خدمة العرب، ولا تسير فى ركاب سياسة الإنجليز!

* * *

وفى يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ اجتمع ممثلو سبع دول عربية ليتم التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية الذى تم إعداده بإعتباره وثيقة دولية تتكون من ديباجة و٢٠ مادة وثلاثة ملاحق..

وكان التوقيع على هذا الميثاق بمثابة الإعلان الرسمى لمولد جامعة الدول العربية من الدول العربية السبع التى قامت بالتوقيع على الميثاق، وهى مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان والمملكة اليمنية المتوكلية وهو الاسم الذى إشتهرت به اليمن فى تلك الأيام.. ومن غيرها من الدول العربية التى يمكن أن ترغب مستقبلا بعد أن تحصل على الاستقلال فى الانضمام لعضوية الجامعة..

* * *

ظلت الأمانة العامة للجامعة العربية لمدة سنة كاملة بعد إعلان مولد الجامعة، وليس لها مقر..

وفى تلك الأثناء كنت أباشر عملى أمينا عاما للجامعة فى مكتبى فى إحدى غرف الطابق الثانى بوزارة الخارجية المصرية الذى يطل على ميدان التحرير..

ولم يكن معى فى جهاز الأمانة العامة على مدى هذه السنة الكاملة سوى اثنين من الموظفين.. أحدهما بطل من أبطال ثورة سنة ١٩١٩ وهو محمد وجيه، وكان يعمل مديرا لإحدى الإدارات بوزارة الخارجية، ثم نقل أثناء الحرب العالمية الثانية ليعمل مديرا لمصلحة البريد..

وكان أول ما فعلته بعد اختيارى أمينا عاما للجامعة هو استعارته للعمل فى المكتب المؤقت الذى أنشأته للجامعة العربية بوزارة الخارجية المصرية..

أما الثانى.. فكان ابن شقيقى محمد وحيد الدالى، وكان قد تخرج فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة، وقد وقع عليه اختيارى ليعمل سكرتيرا خاصا لى..

ولم تكن ميزانية الجامعة تسمح بتعيينه فى تلك الأيام، ولذلك بقيت أدفع إليه مكافأة من جيبى الخاص حتى تم تشكيل جهاز الأمانة العامة وأمكن تعيينه فى إحدى وظائف الجامعة!

ومع الأثنين كان يعمل بالجهاز الإدارى والكتابى للأمانة العامة إثنان من الكتبة، وقد أعارتهما وزارة الخارجية للعمل فى مكتبى وأحدهما على ما أذكر كان اسمه محمد سليم.. والثانى.. كان اسمه محمد عبد الله..

ومع إنشاء المكتب المؤقت للأمانة العامة تكلفت الحكومة المصرية بدفع مصروفات الأمانة العامة فى سنة ١٩٤٥ حتى يتسنى للدول الأعضاء فى الجامعة العربية الإتفاق على حصة كل منها فى ميزانية الجامعة..

وقدرت هذه المصروفات فى أول ميزانية خصصت للجامعة العربية.. أى فى سنة ١٩٤٥.. بحوالى ١٣ ألف جنيه..

وارتفع هذا الرقم سنة ١٩٤٦ إلى ٦٨ ألف جنيه..

وكان نصيب مصر الذى دفعته من هذه الميزانية ٤٥٪..

* * *

بقيت أباشر عملى أمينا عاما للجامعة العربية فى مكتبى بوزارة الخارجية المصرية لمدة سنة كاملة..

وكان أول عمل قمت به هو الرد على مذكرة احتجاج بعثت بها وزارة الخارجية البريطانية إلى الحكومة المصرية.. وإلى بقية الحكومات العربية التى قامت بالتوقيع على الميثاق..

كان احتجاجا على ما أسمته الحكومة البريطانية روح الميثاق..

ومع مذكرة الاحتجاج البريطانية تكشفت نوايا الانجليز. فقد تصورت الحكومة البريطانية فى تلك الايام أنها تستطيع أن تعتمد على بعض عملائها من السياسيين العرب فى تسخير الجامعة العربية لتكون فى خدمتها.

وفى رأيى.. ان هذا التصور قد كشف عنه الصراع الرهيب الذى شهدته الجامعة العربية فى أولى سنوات انشائها بين اتجاهين:

- الإتجاه القومى العربى الذى أراد أن تكون الجامعة العربية فى خدمة قضايا النضال العربى..

- الاتجاه العميل الذى ارادها أن تكون فى خدمة المصالح البريطانية..

وكان يقود الاتجاه الثانى بعض السياسيين العرب الذين عرفوا بأنهم من عملاء الانجليز أمثال نورى السعيد وفاضل الجمالى.. وبعض السياسيين القدماء فى شرق الاردن..

وفى اعتقادى.. أن نورى السعيد لم يتحمس لفكرة انشاء الجامعة العربية إلا لتصوره أن العراق التى عاشت أيام ثورة رشيد عالى الكيلانى قاعدة تجميع للقوى الوطنية العربية يمكن أن تصبح الدولة الرائدة للجامعة العربية، وبالتالى يمكن أن يجعل من نفسه وصيا على هذه الجامعة لحساب الانجليز..

وكان الصراع بين هذين الاتجاهين هو بداية الخلاف بينى وبين نورى السعيد!

* * *

ومع إنتقال الامانة العامة الى مبنى قصر البستان فى قلب القاهرة بدأت فى تكوين جهاز الأمانة العامة للجامعة العربية . .

إنه نفس القصر الذى كان يعيش فيه الملك السابق أحمد فؤاد الأول عندما كان أميرا ، وقبل أن يصبح ملكا . .

وقد إحتفل فيه الأمير السابق بعد أن أصبح سلطانا بزفافه إلى الملكة السابقة نازلى . .

وأصبح هذا القصر بعد انتقال الأمانة العامة للجامعة إلى مبناها الجديد فى ميدان التحرير متحفا للعلوم !

ومع إنتقال جهاز الأمانة العامة إلى مبنى قصر البستان بدأت فى اختيار عدد من الموظفين للعمل فى الأمانة العامة .

وكان تفكيرى ان فى وسعى أن أحقق رسالة الجامعة العربية بأقل عدد ممكن من الموظفين . .

وكان أن أخذت أدقق فى اختيار كل واحد من هؤلاء الموظفين . .

وفى سنة ١٩٤٦ . . بدأت الأمانة العامة بعدد لا يزيد على ١٦ موظفا . .

وقد وقع عليهم اختيارى من بين المناضلين الذى عرفوا بدورهم فى معارك الكفاح الوطنى على مستوى مختلف البلاد العربية . .

وكان هدفى . . هو ان اعمل مع هذه العناصر الوطنية على أن تصبح الأمانة العامة بمثابة قاعدة النضال العربى على امتداد المنطقة العربية كلها . .

وكان اعتقادى . . ان نجاحى فى تحقيق هذا الهدف الكبير يمكن أن يدعم كيان الجامعة العربية للمحافظة عليها من الوقوع تحت سيطرة بعض الزعامات العميلة التى كانت تعمل على جرها لتكون فى خدمة المصالحة الاستعمارية . .

وبمعنى آخر . . كنت أريد أن يصبح جهاز الأمانة العامة على مستوى الآمال التى وضعتها الشعوب العربية فى الجامعة . .

وكان الجهاز الذى أنشأته هو الإدارة التى ساعدتنى فى الصراع الرهيب الذى دار بينى وبين هذه الزعامات العميلة . .

وتكشف المحاضر السرية لاجتماعات اللجنة السياسية لمجلس الجامعة عن الكثير من

صور المعارك التى اضطررت أن أخوضها ضد الاتجاه الذى كان يقوده نورى السعيد وبعض السياسيين العرب من عملاء الانجليز فى تلك الأيام..

وأذكر أننى اضطررت لأن أقول مرة لنورى السعيد كما يقول أحد هذه المحاضر السرية بالحرف الواحد:

ـ اسمع يانورى.. أنا لست موظفا عندك.. أو عند الانجليز.. ولازم تفهم أننى مسئول أمام سبع دول عربية.. وبريطانيا كما تعرف ليست واحدة من هذه الدول!

وفى اجتماع آخر.. قلت لا عضاء اللجنة السياسية من رؤساء الحكومات ووزراء الخارجية العرب بالحرف الواحد اثر خناقة حامية وقعت بينى وبين نورى السعيد:

ـ عليكم أن تفهموا جميعا.. أن الجامعة العربية ليست الا مرآة لكل واحدة من الدول الاعضاء فيها.. ولا أظن اذا ما نظرنا الى هذه الدول اننا سنجد فيها شيئا غير الصورة الحقيقية لبلادنا العربية..



الملك فيصل وعزام
سنة ١٩٤٦

■ صورة تاريخية للمرحوم الملك فيصل فى سنة ١٩٤٦، وكان وزيرا للخارجية السعودية عند مغادرته مبنى وزارة الخارجية المصرية وبصحبته المرحوم عبد الرحمن عزام بعد اشتراكهما فى أول اجتماع يشهده المرحوم الملك فيصل للجنة السياسية لمجلس الجامعة العربية بصفته رئيسا للوفد السعودى فى دورة اجتماعات مجلس الجامعة..

الفصل السادس والعشرون

واجهت مع الدول العربية
مؤامرة تقسيم ليبيا

أخذت مع إنشاء جهاز الأمانة العامة للجامعة العربية أدق أجراس الخطر لإثارة انتباه الحكومات العربية حول قضية ليبيا . .

كان مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى الذى انعقد فى لندن فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ قد قرر مناقشة مستقبل المستعمرات الإيطالية السابقة . .

وجاءت فى تلك الأيام بعض التقارير تقول . . أن الدول الكبرى تجرى مشاورات فيما بينها لتقسيم ليبيا بحيث تعود إيطاليا إلى نصفها الغربى ، وأن تعطى فرنسا منطقة فزان بينما يوضع النصف الشرقى تحت تصرف بريطانيا . .

ولم أنتظر ، وبادرت بإرسال مذكرة إلى حكومات الدول العربية أشرح فيها تطورات قضية ليبيا وكانت أول مذكرة تخرج من الأمانة العامة عن هذه القضية ، هذا نصها :

- ان قرب اجتماع وزراء الخارجية فى لندن وما يقال عن بحث المسألة الايطالية فى هذا الاجتماع وما علمت من أنه على رأس المسائل المعروضة فى جدول أعمال ذلك الاجتماع قضية المستعمرات الايطالية يستلزم بيانا عاجلا بوجهه النظر العربية سواء كانت لأهل البلاد أنفسهم أو للدول العربية المشتركة فى الجامعة ، أو للرأى العام العربى ، فلذلك يحسن ان ابعث الى حضراتكم المسائل الآتية ملخصة على وجه السرعة :

١ - ان البلاد المعروفة قديما باسم طرابلس الغرب المعبر عنها حديثا باسم ليبيا هى عبارة عن المساحة الواسعة التى تبتدىء من حدود مصر الغربية وتنتهى عند الحدود التونسية والجزائرية والتى تحد جنوبا بأملاك فرنسا والصحراء الكبرى . . وهى بلاد يسكنها العرب ويدين أهلها الاصليون جميعا بدين الاسلام منذ أكثر من عشرة قرون . وقد كانت طوال الفترة الاسلامية أى فى الثلاثة عشر قرنا الأخيرة بلادا واحدة لم تنفصل عن بعضها إلا فترات قصيرة ولم يتغلب عليها الاجانب الافترات قصيرة ايضا . . وقد

استمرت فى نضالها اثناء هذه الفترات حتى استردت وحدتها وحريتها . . وبالتالى فان كل تغيير بتجزئتها يناقض تاريخها الطويل بل إن وحدتها هذه كانت موجودة منذ فجر المسيحية . . وهذه الوحدة ليست ضرورية من الناحية الادارية فحسب بل هى ضرورة اقتصادية لا سبيل لتجاهلها . إذ أن هذه البلاد قليلة السكان مترامية الاطراف فقيرة فى مجموعها وتتعاون أجزاؤها لتكملة بعضها البعض لتأمين حياتها . فمثلا تدر بعض المناطق محاصيل لا تنمو فى المناطق الاخرى . فالتمر يكثر فى جهات « فزان » وبعض الشواطىء والزيتون يكثر فى مناطق الجبال وبعض السهول والقمح يجود فى بعض الوديان بينما ينمو الشعير فى مناطق أخرى وكذلك الذرة وأشجار الفاكهة ، كما أن رعى الابل يصلح فى بعض المناطق بينما لا تصلح نفس هذه المناطق لرعى الماشية والبقر وهكذا . . فلو ان هذه المناطق مزقت أو فصلت بعضها عن البعض لهلكت بينما هى مناطق متكاملة تتبادل ما عندها وتستعين بذلك على عيش محدود وأمطارها تختلف سنة فى جهة عنها فى جهة أخرى ، وقد جرت عادة البدو على تتبع سير هذه الاحوال فهم يتنقلون فى أرجائها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . ويعيش بعضهم فترة من السنة حضرا وفترة أخرى بدوا ليكملوا أقواتهم وليتغلبوا على طبيعة البلاد .

كما أن مصلحة الأمن والادارة تقضى بوحدة الحكومة فى هذه البلاد الشاسعة . . وقد عرفت جميع الحكومات التى حكمت طرابلس بما فيها الحكومات الاجنبية هذه الحقيقة بالتجربة . . ففى العهد العثمانى والعهد الايطالى كانت إدارتها موحدة ولم تلجأ الحكومة الفاشية فى آخر سنى حكم موسولينى إلى تجزئتها إلى ولايات إلا لدواع سياسية وعسكرية مؤقتة ناشئة عن استمرار أهل البلاد فى مقاومتهم الطويلة وحروبهم التى دامت لمدة عشرين سنة كاملة ومع ذلك فإنه بالرغم من هذا التقسيم فقد عملت ايطاليا على ان تبق الولايات الاربع التى قسمت اليها البلاد فى حكومة واحدة تشرف عليها ادارة واحدة وان كانت هذه الادارة قد اتخذت روما مقرا لها . .

بناء عليه فان كل تجزئة لطرابلس الغربية (ليبيا) الى قسمين أو ثلاثة هو ضد مصلحة البلاد وضد رغبة الاهالى ولا ترضاه الدول العربية التى ترتبط بميثاق الامم الجامعة والتى اتفقت فى هذا الميثاق على ان ترعى شئون العرب ومصالحهم اينما كانت .

٢ ـ وقد يظن لاول وهلة ان البلاد الطرابلسية لا تستطيع أن تنشىء لنفسها ادارة مختارة أو مستقلة من ابنائها أو أنها قد تحتاج الى مران طويل لاقامة حكومة حديثة صالحة والواقع ان طرابلس قد حكمت نفسها فترات متعددة فى التاريخ ومن المحقق انها لم تحكم

حكما اجنبيا ضد ارادتها إلا لفترات قصيرة لم تتوان فى أثنائها عن الكفاح والمقاومة للحكم الاجنبى لتظفر بالحرية ، وهو ما حدث ايضا مع الايطاليين فى أوائل القرن الحالى . .أما الحكم العثمانى فانه لم يكن قهرا اجنبيا وانما كان بدعوة من أهل البلاد وبرغبتهم قبل الاستقلال على يد الدولة « القرة منلية » منذ قرنين ومرة اخرى فى أوائل القرن الماضى ، ففى كلتا المرتين جاء العثمانيون الى طرابلس برغبة أهل البلاد ونتيجة لوفود ارسلوها لدعوة الخليفة لا ستلام الحكم فى البلاد بعد أن تدهور « بيت القره منى » على يد آخر ولاته وكان اسمه يوسف باشا . . ولما داهم الطليان طرابلس فى سنة ١٩١١ نهض أهل البلاد عن بكرة ابيهم لتأييد حكومة العثمانيين والنضال معها تأكيدا بأن الحكم العثمانى لم يكن فى نظرهم حكما اجنبيا وقد استمروا فى المقاومة بعد هزيمة العثمانيين عشرين سنة أخرى . والواقع ان الحكم العثمانى لم يجرد البلاد من الحكم الذاتى فقد كان ابناء تلك البلاد يتولون المناصب الرفيعة فى بلادهم وفى خارج بلادهم سواء كانت هذه المناصب عسكرية أو ادارية أو مالية ، وهو ما أهل البلاد لا علان الحكم الجمهورى عقب الحرب العالمية الاولى والاستمرار فى المقاومة لمدة اثنتى عشرة سنة بعد انتهاء الحرب العالمية . . وينتشر من ابناء هذه البلاد نخبة ممتازة من ذوى التجربة والدراية فى جميع الاقطار العربية كمصر والمملكة العربية السعودية والعراق وشرق الاردن وتونس والجزائر وسوريا ولبنان . كما يوجد من بينهم عدد كبير فى تركيا وفى أواسط افريقيا وخاصة فى منطقة اسمها كانو وكذلك فى المنطقة حول بحيرة تشاد ، وفى هؤلاء الكفاية لاقامة حكومة موحدة فى برقة وفزان وطرابلس ومن المتيسر اقامة مثل هذه الحكومة وادخالها عضوا فى جامعة الدول العربية وإمدادها بالمعونة التى تلزمها فى بادىء الأمر من البلاد العربية .

ان رغبة أهل البلاد التى لاشك فيها والتى يظهرها بأجلى معانيها الرجوع الى رأيهم واستفتائهم هى الانضمام الى مصر بارادة مختارة أو استقلالهم واندماجهم فى كتلة الامة العربية عن طريق مصر أو الجامعة العربية . .

وهم فى سبيل هذه الوحدة لن يتأخروا عن بذل كل مجهوداتهم للحصول على حريتهم والتعاون مع إخوانهم وجيرانهم العرب . .

ولقد وردت الى عدة كتب وعرائض من السادة السنوسية ومن أعيان البلاد وزعماء العشائر فيها ومن الفئات المتنورة كلها ترمى الى هدف واحد هو الوحدة فى طرابلس والانضمام الى الكتلة العربية والنفور من تجزئة البلاد أو الحكم الاجنبى فيها مباشرة أو بالواسطة .

وأعيان البلاد وقادتها وزعماء العشائر وأصحاب الرأى فيها معروفون ويمكن دعوتهم إلى مؤتمر يضم المقيمين فيها وغيرهم من المشتتين فى مختلف بلاد العالم هربا من الحكم الايطالى الجائر واستبداد الفاشيست.

ولا شك فى أن مثل هذا المؤتمر سيقرر الرغبة العامة الواضحة لأهل البلاد وهى استقلالهم وحريتهم واتحادهم مع بقية الأقطار العربية.

٣ ـ ظهرت أقوال وآراء فى الصحف وفى بعض الدوائر العالمية تشير الى احتمال تقسيم البلاد بحيث يعاد نصفها الغربى الى حكم الطليان، وعلى أن يعطى جزء من جنوبها الى فرنسا وان يسلم نصفها الشرقى الى بريطانيا.

وقيل كذلك إن ليبيا قد توضع كلها تحت وصاية دولة واحدة من الدول الكبرى.

ولا شك أن هذه الأقوال فضلا عما فيها من نكران لحقوق العرب ونكران لمجهوداتهم العظيمة فى معونة الحلفاء بالسلاح وبكل الوسائل فإنها تضر بمصلحة البلاد ورقيها واستقرار الأمن والسلام فيها.. وهى فضلا عن مخالفتها لمصلحة الطرابلسيين تتعارض مع أغراض الجامعة العربية وأهدافها وبالتالى لا يمكن للجامعة أن توافق على مثل هذه الآراء ولا أن تعين عليها بالوقوف مكتوفة الأيدى أمام مؤيديها.. فأهل البلاد هم أصحاب الرأى فى تقرير مصيرهم. كما أن أحق الناس برعاية مصالحهم وتأييد مطالبهم هم أبناء عمومتهم واخوانهم فى العقيدة وجيرانهم فى الوطن من أهل الأقطار العربية.. ولا أظن أن من مصلحة الأمن العالمى فى هذه المنطقة أن يحمل أهلها وجيرانهم على قبول تسوية للمسألة الطرابلسية تخالف التاريخ والعرف والمصلحة الاقتصادية للبلاد فضلا عن الشعور القومى لهذه البلاد، وحتى إذا فرض ـ وهذا غير صحيح ـ أن البلاد تحتاج إلى معاونة أجنبية ووصاية خاصة خارجية فإن أحق الناس بهذه الوصاية هى الدول العربية المشتركة فى ميثاق الأمم المتحدة.

كما أن أبسط قواعد الانصاف تستلزم أخذ رأى أهل هذه البلاد فى اختيار الأوصياء عليهم، ولا شك أن التجربة الأليمة للبلاد العربية وما قاسته من تجربة الانتداب كما طبقتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى قد كشف عن الأثرة والأنانية، وأن انتداب دولة معينة ذات مصلحة خاصة على قطر من الأقطار لا يعنى إلا تحكيم هذه الدولة فى مقدرات شعب لا ترى هى من مصلحتها أن تسارع فى تدريبه على الحكم الذاتى أو تهيئته للاستقلال، ولما كانت هذه التجربة لا تزال ماثلة أمام أعين الجماهير فى البلاد العربية

فهى لذلك ترفض كل وصاية تأخذ شكل الانتدابات الماضية التى جربوها .

لهذه الأسباب كلها اعتقد أن الدول العربية تؤيد ما أشرت اليه . ولا شك أن الخطة التى تضمنتها مواد هذه المذكرة تصلح أساسا لسياسة يجتمع عليها الرأى فى دول الجامعة العربية بل فى البلاد العربية كلها . . وأعتقد أن المطالبة بتنفيذ هذه الخطة والسعى لتحقيقها يتفق مع أمانى أهل البلاد ومع المبادئ التى يرمى اليها ميثاق الجامعة العربية . .

ان طرابلس تقف فى هذه اللحظة فى مفترق الطرق تنتظر كما ينتظر العالم العربى موقفا حاسما يحول دون سقوطها مرة أخرى فريسة للحكم الأجنبى سواء كان مباشرا أو بالواسطة وأنى أعتقد أن الجامعة قد نسقت خططها فى سياستها بالنسبة لهذه المسألة لتحظى بتأييد أهل البلاد أنفسهم لها بكل الوسائل . .

كما أعتقد أن الدفاع بحزم وثبات ينتج التأثير المطلوب والنجاح المرجو إن شاء الله .

وقد جاء هذا السعى من الأمين العام متمشيا مع ما جاء فى أحد ملاحق ميثاق جامعة الدول العربية بشأن التعاون مع الدول غير المشتركة فى الجامعة والذى ينص على ما يأتى :

« نظرا لأن الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها ولجانها شئونا يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغى له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص أن يوصى مجلس الجامعة عند النظر فى اشتراك تلك البلاد فى اللجان المشار اليها فى الميثاق (مادة ٤) بأن يذهب فى التعاون معها إلى أبعد مدى مستطاع وألا يدخر جهدا لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيها وآمالها وأن يعمل بعد ذلك على اصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب . . »

عبد الرحمن عزام

* * *

كانت مذكرة واضحة . وقد عرضت فيها بسرعة رأيى . . وهو أنه فى حالة إصرار الدول الكبرى على وضع ليبيا تحت الوصاية أو الانتداب . . تكون الجامعة العربية أو إحدى دولها هى الوصية على ليبيا . .

وكان فى تفكيرى أن فى وسعى أن أسد الطريق أمام الدول الكبرى لتقسيم ليبيا

أو محاولة فرض الوصاية عليها..

كانت هذه المذكرة كما سبق أن قلت هى أول ورقة تخرج من الجامعة العربية إلى الدول الأعضاء لتثير انتباههم إلى الخطر الذى يهدد قضية ليبيا..

وقد بادرت الحكومة المصرية بإرسال مذكرة إلى وزراء الدول الكبرى تشرح فيها موقفها من هذه القضية.. وفى منتصف سنة ١٩٤٥ قمت بزيارة بعض الدول العربية وانتهزت الفرصة لمواصلة اتصالاتى لاثارة انتباه الدول العربية إلى الخطر الذى يهدد استقلال ووحدة ليبيا..

وكان أن عملت أثناء زيارتى للمملكة العربية السعودية على مقابلة الوزير الأمريكى المفوض فى جدة.

ودار بينى وبين الرجل حديث طويل حول مستقبل الأراضى الليبية ثم طلبت إليه أن يلفت انتباه حكومته إلى أهمية وقوفها إلى جانب حق شعب ليبيا فى الاستقلال والوحدة..

وعندما تشرفت بمقابلة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود قمت بعرض قضية ليبيا على جلالته..

قلت لجلالته.. إن وقوف الدول العربية وراء قضية شعب ليبيا، هو أول امتحان للجامعة العربية..

وابتسم طويل العمر وهو يقول لى:

- ان المملكة العربية السعودية بكل إمكانياتها تقف وراء الحق العربى لشعب ليبيا.

كان رحمه الله سريعا وحاسما فى اتخاذ قراره ولذلك لم أنتظر وبادرت بترك المملكة العربية السعودية لأقوم بجولة سريعة فى بقية العواصم العربية، حيث عرضت القضية على المسئولين فى بغداد وعمان ودمشق..

كان واجبى أن أضع الحقائق كلها، وأنا الخبير بقضية شعب ليبيا أمام المسئولين فى الحكومات العربية..

ولم أعد إلى القاهرة إلا بعد أن تقرر أن تقوم الحكومات العربية الأعضاء فى الجامعة

العربية بمساع لدى وزراء خارجية الدول الكبرى أثناء اجتماعاتهم فى لندن لتأييد حق شعب ليبيا فى الاستقلال والوحدة..

* * *

وفى يوم ١٥ سبتمبر ١٩٤٥ سافرت إلى لندن للإتصال بوزراء خارجية الدول الكبرى.

كانت أول مرة تظهر فيها الجامعة العربية بعد اعلان مولدها على مسرح الاتصالات السياسية الدولية..

وكان حدثا تاريخيا عندما وجهت فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٥ مذكرة إلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى باسم الجامعة العربية..

وكانت ترجمة هذه المذكرة تقول بالحرف الواحد.

ان ليبيا بلد عربى تحده تونس وبلاد المغرب غربا ومصر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا.

ويقطن هذه البلاد منذ قرون قوم من أصل عربى، وهم يتكلمون لغة واحدة ويتبعون تقاليد وعادات ويدينون بدين واحد.

وهى بلاد مترامية الأطراف غير أنها فقيرة الموارد.

وقد ظلت ليبيا منذ ذلك الحين بلادا متحدة يعيش سكانها داخل حدودها ويتبادلون محصولات أراضيهم ويتعاونون على استغلالها، ولم تكن هناك أية حدود تفصل بين مناطقها، وكان البدو الرحل من السكان يتنقلون فى أنحاء البلاد فى حرية تامة طلبا للمرعى وكثيرا ما استوطنوا حيث طاب لهم المقام، والبلاد فى طبيعتها غير قابلة للتجزئة، ولذلك فإن كل فكرة ترمى إلى تقسيمها إلى مناطق أو ولايات أو دوائر نفوذ أو وضع أى قسم منها تحت نظام الانتداب فكرة لا شك عائدة بالضرر على البلاد اقتصاديا واجتماعيا وأدبيا، وخاصة انه لم يسبق أن حصل تقسيم هذه البلاد منذ آلاف السنين.

وقد ورث الليبيون عن أجدادهم حب العرب التقليدى للحرية، وتاريخهم الطويل ملئ بالأدلة التى تشير إلى دفاعهم المجيد عن بلادهم، وآخرها مقاومتهم العنيفة للعدوان الايطالى والفاشى لمدة عشرين عاما كاملة، بحيث لا يمكن ارغام هذا الشعب العربى على

قبول أى حل لا يتفق مع أمانيه القومية التى تتلخص كما أعرفها بنفسى ى الرغبة فى بقاء بلادهم موحدة وفى أن يترك له الحرية فى إدارة شئونه بنفسه وأن تصبح ليبيا عضوا فى جامعة الدول العربية .

هذه هى الحقيقة . . وقد استقيت بنفسى وبواسطة اتصالاتى الشخصية هذه المعلومات من أهل ليبيا ، وقد فوضنى زعماؤهم ورؤساؤهم فى أن أوضح لكم قضيتها وأن أدافع عنها . .

ولقد تأكدت جميع دول الجامعة العربية من هذه الحقائق وأرسل بعضها على انفراد بمذكرات فى هذا الصدد إلى مجلسكم . . ويمكنكم بدوركم أن تتأكدوا من ذلك وأنى لعلى يقين من أنه إذا جرى استفتاء فى البلاد تحت اشراف ممثلى الأمم المتحدة . . لأسفر عن أن شعب ليبيا أجمع سيطلب بصوت واحد تحقيق أمانيه القومية .

ولا شك فى أن أى تأخير فى الوصول إلى حل يحقق هذه الأمانى يؤدى إلى خيبة أمل مريرة ليست فى ليبيا فحسب بل فى أنحاء العالم العربى أجمع .

ومن الطبيعى إذا دعت الحال إلى فترة انتقال أن تسند مهمة ارشاد الشعب الليبى لتحقيق هدفه المنشود وهو الاستقلال التام إلى دولة عربية أو إلى الجامعة بأجمعها ولا شك فى أن اختيار أمة عربية للوصاية على شعب عربى ، فى جوهره . . مما يتفق مع الروح التى تسود المنظمة العربية الجديدة . .

عبد الرحمن عزام
الأمين العام لجامعة الدول العربية

* * *

وانتهزت فرصة تقديم هذه المذكرة للتعرف على وجهة نظر الحكومة الفرنسية حول مستقبل قضية ليبيا .

وكان سفير فرنسا فى لندن يرأس الوفد الفرنسى فى اجتماعات وزراء خارجية الدول الكبرى . ولذلك بادرت بالاتصال به . .

وكانت مفاجأة عندما أخذ الرجل يتحفظ فى الحديث معى . . قال لى إن حكومته لم تحدد موقفها بالضبط . .

ولم استسلم . . وبادرت أقول له بالحرف الواحد :

لا أظن أن فرنسا تخشى جوار العرب تصورا منها بأن وجود حكومة مستقلة فى ليبيا

مرتبطة بجامعة الدول العربية قد يؤثر على سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقيا ولذلك أريد أن أقول لك إن على فرنسا أن تختار أحد أمرين . . أما أن تستمر على السياسة الاستعمارية القديمة وهذا لن يؤخر الحرية والاستقلال لليبيا لأن الحرية تنفذ من كل مكان ودعوات الحق تصل إلى القريب والبعيد . . وأما أن تكون فرنسا الجديدة وهو ما أتمناه واعتقده يهمها بناء عالم جديد على أسس من الحرية والمساواة وعندئذ يكون جوار الجامعة العربية لها سببا للاستقرار والسلم والتعاون . .

قلت له هذا الكلام ثم طلبت اليه أن يتصل بحكومته لتحديد موقفها بالضبط حول قضية ليبيا . .

* * *

وفى لندن أيضا عملت على اقناع الحكومة البريطانية بتأييد استقلال ليبيا ووحدتها وكان أن قمت باتصالات مع المسئولين فى الحكومة البريطانية .

ولكن جميع محاولاتى باءت بالفشل ، وان كان وزير الخارجية البريطانية قد وعدنى بأن يبذل جهده حتى تقوم حكومته بالنظر فى حقوق ومصالح عرب ليبيا .

ولما عدت إلى القاهرة وجدت فى انتظارى مذكرة من الحكومة الأمريكية ترد فيها على مذكرتى التى وجهتها إلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى . .

وكان هذا الرد لا يحتوى على أكثر من وعد من الحكومة الأمريكية بدراسة موضوع القضية الليبية والنظر فى حقوق ومصالح عرب ليبيا بعناية واهتمام . .

* * *

لم اقتنع بموقف الدول الكبرى . ولذلك بادرت بعرض نتائج اتصالاتى على مجلس الجامعة العربية فى دور الاجتماع العادى الثانى . .

ودارت مناقشات طويلة حول تطورات الموقف ، وفى الجلسة الثانية عشرة من هذا الاجتماع ، وهى الجلسة التى عقدت فى يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ تقدمت إلى المجلس بمشروع قرار وقد تمت الموافقة عليه بالاجماع . . وهذا نصه :

« يؤيد مجلس الجامعة المذكرات التى قدمتها الدول العربية والتى قدمها الأمين العام لمجلس وزراء خارجية الدول المجتمع فى لندن فى سبتمبر الماضى .

وينتهز فرصة اجتماعه ليقرر أنه يؤيد حق العرب فى حريتهم الكاملة فى بلادهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم.

ويقرر المجلس تكليف الأمين العام بالاتصال بالسلطات البريطانية لازالة أسباب الشكوى من قسوة الحكم العسكرى القائم فى هذه البلاد».

ومرت عدة أشهر قمت أثناءها باتصالات متعددة مع مختلف الدول الكبرى.. ومع هذه الاتصالات أخذت صورة المؤامرة على شعب ليبيا تتكشف..

ولم أيأس، حتى كانت الجلسة الثامنة فى دور الاجتماع العادى الثالث لمجلس الجامعة العربية، وهى الجلسة التى انعقدت فى يوم ١٦ أبريل سنة ١٩٤٦.

لقد انتهزت الفرصة لألقى بيانا فى المجلس حول تطورات القضية الليبية..

وفى هذا البيان قلت كما جاء فى محضر هذه الجلسة بالحرف الواحد:

ـ ظهر ما كنا نخشاه بعد أن تكشفت نية بعض الدول نحو تقسيم ليبيا، ففى رأى فرنسا مثلا أن تعود طرابلس إلى الايطاليين وهذا الرأى أعلنته الحكومة الفرنسية فى مجلسها النيابى كما صرح به الجنرال ديجول وأعلنه وزير خارجية فرنسا فى بيان رسمى، والواقع أن هذا الاتجاه فى سياسة فرنسا كان ظاهرا فى الصيف الماضى عندما أخذت فرنسا تنادى بأن تأخذ انجلترا برقة وأن تأخذ ايطاليا طرابلس وان تحتفظ لنفسها بفزان. وفى رأيى أن هذه السياسة تعتبر أخطر سياسة يمكن أن يبتلى بها بلد عربى باعتبارها سياسة ظالمة تضع البلاد تحت وصاية دول لا يرجى من أحدها خير للبلاد فإن نية ايطاليا مثلا فى طرابلس هى الاستعمار ونقل المهاجرين الايطاليين إلى طرابلس واجلاء العرب عن أراضيها، وتقصد فرنسا بامتلاك فزان حماية الحالة السيئة التى يشكو منها العرب فى شمال أفريقيا، وهى ترمى من وراء عودة الطليان إلى طرابلس إلى استمرار حالة استعمارية شنيعة فى هذه البلاد لتكون هذه الحالة نذيرا للمطالبين بالحرية من أهالى تونس والجزائر ومراكش، ولعل أكبر دليل على هذا هو ما حدث فى سنى ١٩١٧ و ١٩١٨ و ١٩١٩ عندما لم تكترث فرنسا على الرغم من تحالفها مع ايطاليا بأمر الليبيين الذين تشتتوا هربا من نير الاستعمار الايطالى فى الوقت الذى كانت ايطاليا تطمع فيه فى احتلال تونس، وذكرت ما حدث عند اعلان الحكومة الطرابلسية الجمهورية فى سنة ١٩١٨ وموافقة هذه الحكومة على عقد صلح مع ايطاليا اعترفت فيه ايطاليا باستقلال طرابلس، أن انزعجت فرنسا

وبادرت بالاحتجاج لدى ايطاليا بحجة أن قيام حكومة عربية فى طرابلس قد يثير أهل الجزائر وتونس ومراكش.. هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن برقة لن تستفيد كثيرا من حكم انجلترا لها أو من وصايتها على العرب لأن من أساليب الانجليز فى الحكم أن ينشروا أمنا وعدالة نسبية دون أن يبدوا اهتماما بالنواحى الأخرى فلا ينشئوا مستشفيات ولا مدارس ولا طرقا، وبمعنى آخر لا ينظرون إلى الحالة الاجتماعية بأى اهتمام..

ثم استطردت أقول فى بيانى:

- أنا أعرف الانجليز وقد شهدت بنفسى ما يفعلونه فى السودان ولا شك فى أن أهل برقة فى غنى عن ذلك الأمن وتلك العدالة النسبية وهم الذين عاشوا يتمتعون بها طويلا فى عهد الدولة العثمانية، وفى رأيى أن كل ما يحتاجون إليه هو التقدم المستمر ونشر العلم والثقافة فى بلادهم والتقدم الاجتماعى والمدنى ورغم ظنى بأن حكم الانجليز فى برقة سيكون أحسن من حكم الطليان فى طرابلس والفرنسيين فى فزان فإنى أعارضه وما زلت أعتقد أن المجلس سيقف بكل قوته لتحقيق وحدة هذه البلاد واستقلالها وأنه سيعارض كل المعارضة فى تقسيمها.. وقد ابلغنا هذه المعارضة فى التقسيم إلى الانجليز والأمريكيين بصور متعددة سواء بإرسال المذكرات اليهم أو باتصالاتى الشخصية معهم، وقد كنت أبين لهم فى اتصالاتى معهم أن هذا التقسيم سيضر كثيرا بأهالى البلاد الذين يعشيون فى وحدة اقتصادية لا تتجزأ: فالمحصولات المتوافرة فى طرابلس لا توجد فى برقة وما يوجد فى فزان من التمر تخلو منه منطقتنا برقة والجبل.

ومضيت أقول فى هذا البيان:

- ان هذه البلاد جميعا تتبادل المحاصيل التى تنتجها ولا تستطيع واحدة منها أن تعيش بغير مساعدة الأخرى، لذلك فإنه يتعين عدم تقسيمها ومن صالح أبنائها وشعوبها رحمة بهم وانصافا لهم وللإنسانية أن يجمعهم صعيد واحد لا يفرق بينهم شئ وقد اثبت التاريخ الحاجة إلى تلك الوحدة، فهؤلاء الناس تربطهم صلات القرابة والنسب ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقبل هذا التقسيم كما أن التقسيم مضر جدا من الناحية الادارية..

ثم استطردت أقول:

- بقى بعد ذلك شكل الحكم الذى يجب أن يقوم فى البلاد ان الانجليز والفرنسيين يميلون إلى الوصاية المجزأة ويقول الروس انهم أولى بهذه الوصاية، وكل ما لدى من الأخبار أن الروس جادون تماما فى طلب الوصاية على طرابلس وكان فى اعتقادى أن

المسألة لا تعدو أن تكون من باب المساومة وأن الروس يطالبون بالوصاية ليصلوا إلى ترضية فى البلقان أو غيرها ، ولكن قيل لى أنهم ينظرون إلى طلبهم للوصاية على أنه طلب سياسى جدى ، لقد طلبت روسيا الوصاية لنفسها ثم جاءت أمريكا ونادت بوصاية الدول الخمس بالاشتراك مع مندوب عن عرب طرابلس ومندوب آخر عن الايطاليين المقيمين فى تلك البلاد واقترحت أيضا أن تشترك دولة أوروبية صغيرة مع الدول الخمس فى الوصاية على ليبيا على ان يختار المندوب السامى فى طرابلس هذه الدولة الأوروبية الصغيرة ، وبعد محادثات بينى وبين ممثلى الولايات المتحدة قلت لهم أثناءها أنه إذا كان لابد من هذا الأمر فإنه يوجد بين الدول العربية دولة صغيرة رئيسها مسيحى وهى لبنان ويمكن لهذه الدولة الاضطلاع بالمهمة وقد فشلت اتصالاتى بالانجليز بغية الوصول بهم إلى إدراك حقيقة الأمر والتفاهم معهم مما دفعنى لأن أقول لهم إنهم إذا استمروا على سياستهم فإن التفاهم بيننا لن يتم كما أن أهل ليبيا لن يقبلوا وصاية دون قتال . وقلت لهم صراحة إنهم إذا قاموا بفرض هذا التقسيم والوصاية الأجنبية ، فإننى أنذرهم بأن هذا العمل لن يمر بسلام .

* * *

كان بيانى واضحا وصريحا ، وبعد مناقشة طويلة حول تطورات القضية ، قرر مجلس الجامعة ارسال مذكرة إلى الدول المشتركة فى مؤتمر الصلح مع ايطاليا للمطالبة بحق أهالى ليبيا فى الوحدة والاستقلال وحقهم فى اختيار نظام الحكم الذى يرتضونه لأنفسهم على أن تكلف الأمانة العامة باعداد هذه المذكرة وتبليغها إلى هذه الدول مع مداومة المساعى لتحقيق هذا الغرض .

وتنفيذا لهذا القرار وجهت الأمانة العامة إلى جميع الدول التى اشتركت فى مؤتمر الصلح مع ايطاليا مذكرة رسمية فى يوم ١٨ أبريل سنة ١٩٤٦ وهذا نصها :

تشرف الأمين العام لجامعة الدول العربية فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٥ باسم الجامعة العربية المفوضة من كل من الدول المشتركة فيها بتقديم مذكرة بشأن ليبيا (طرابلس وبرقة وفزان) إلى مجلس وزراء خارجية الدول الكبرى الذى انعقد فى لندن فى غضون الخريف الماضى .

والآن يتشرف الأمين العام للجامعة العربية بأن يقدم هذه المذكرة باسم الجامعة وبالنيابة عن كافة الدول الممثلة فيها وهو مطمئن كذلك إلى تأييد عرب ليبيا ومعبر عن رغباتهم وهى :

١ ـ أن أية فكرة ترمى إلى تقسيم هذه البلاد إلى مناطق يعهد إلى دول أجنبية بالوصاية عليها أو تضم إلى دول مختلفة ستقابل برفض إجماعى من الشعب الليبى يظاهره العالم العربى.

ـ إن من حق الشعب الليبى استنادا إلى حقوق الإنسان فى تقرير المصير واعتمادا على ميثاق الأطلنطى وروح ميثاق سان فرنسسكو أن يستشار للأعراب عن مشيئته الحرة فى إختيار نوع الحكومة التى يريدها.

٣ ـ إن أى اجراء يرمى إلى تقرير مصير الليبيين بدون إعطائهم الفرصة الكاملة لإجراء استفتاء حر تحت إشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية سيجد معارضة من شعب ليبيا بكل ما فى وسعه من قوة.

٤ ـ إن أى إدعاء يصدر من الجانب الإيطالى للمطالبة بإعادة أى ارتباط بين تلك البلاد وبين إيطاليا وذلك بإقامة أى نوع من أنواع النظام الحكومى سيقاوم بالسلاح وبكافة الوسائل الأخرى التى تتوافر لدى الشعب الليبى. ولا شك أن تاريخ نضال هذا الشعب خلال هذا القرن ضد إيطاليا هو تاريخ قتال استمر أكثر من عشرين عاما فقدت البلاد خلالها زهاء نصف عدد سكانها.

٥ ـ أوضح الأمين العام فى مذكرته السابقة ان وحدة تلك البلاد أمر لا رجوع فيه لكفالة رفاهيتها كما أنه لا مندوحة عنه لضمان تقدمها الاقتصادى وإقامة إدارة صالحة بها وتوفير أسباب تقدمها العام وذلك لأن كل منطقة فى تلك البلاد تعتمد على المناطق الأخرى ولن يفضى تقسيمها إلا إلى مجاعة اقتصادية. هذا ولقد احتفظ أهالى ليبيا من قبائل وعرب رحل فى ظل الظروف العادية بمستوى معين للمعيشة يتناسب مع حياتهم عن طريق تنقلهم الحر فى مختلف المناطق.

وأن تاريخ تلك البلاد منذ عهد الفينقيين والأغريق حتى وقتنا الحاضر يؤكد ضرورة وضع ليبيا تحت نظام ادارى موحد تتاح فى ظله حرية التنقل إلى البلاد المجاورة سواء فى الشرق أو فى الغرب أو حتى فى الجنوب.

وعلى هذا فإن أية فكرة ترمى إلى تقسيم تلك البلاد إلى مناطق نفوذ أو وضعها تحت الوصاية هى فكرة توحى بها دوافع ومطامع أجنبية ضد مصلحة شعب ليبيا نفسه.

أما فيما يتعلق بنوع الحكومة التى ينبغى إقامتها فى ليبيا فتقرير ذلك من حق الشعب

الليبي ، ولقد تجلت ارادته فى مناهضة الاستعمار الأجنبي وأهليته لحكم بلاده فى مواصلة النضال طوال عشرين عاما فى ظل أنواع مختلفة من الإدارات الوطنية على الرغم من القوى التدميرية الساحقة التى واجهتها تلك الإدارات ، فقد استطاع الليبيون أن يعتمدوا على أنفسهم فى أسوأ الظروف خلال نضالهم الذى إستغرق عشرين عاما معتمدين قبل كل شئ على مواردهم المادية والمعنوية .

ولا ينكر أحد دور شعب ليبيا فى الحاق الهزيمة بالنظام الفاشى ، الأمر الذى سيجعل لهذا الشعب الحق الكامل فى مطالبة تلك الدول التى تقوم الآن بوضع معاهدة الصلح مع إيطاليا بأن يذكروا أن الشعب الليبي كان شريكهم فى الحرب وأنه ساهم فى النصر منذ أول لحظة بدأت فيها ، ليس فقط بجيش قوامه الوف العرب بل بوسائل أخرى يعرفها جيدا القواد البريطانيون والأمريكيون .

وأن الجامعة العربية ليهمها أن ترى العدالة قد تحققت لليبيا الشقيقة وهى تؤيدها فى الحصول على حقها فى تقرير مصيرها كما تعارض من ناحية المبدأ فى إعادة فرض استعمار أجنبي على شعب ما عن طريق الضغط أو القوة .

وتعتقد الجامعة العربية أن واجبها لا يقتصر على مساندة فريق من الأمة العربية لتحقيق حريته ، ولكنها كمؤسسة تقوم أصلا للحفاظ على السلام فى العالم العربى توقن أن أى قرار يتخذ ضد رغبة الشعب الليبي الذى تؤيده الشعوب العربية الشقيقة سيكون على وجه التحقيق عاملا خطيرا فى إثارة الاضطراب والفوضى ، بل فى اشعال الحرب .

ولهذا يناشدكم الأمين العام للجامعة العربية باسم الجامعة وباسم الشعب الليبى أن يكون حكمكم فى هذه القضية صادرا عن بعد نظر وأن يكون نزيها وأن تتيحوا للشعب الليبى فرصة التمتع بحقه فى الاستقلال واختيار نوع الحكم الذى يتفق مع مصالحه ورغباته .

عبد الرحمن عزام

الأمين العام للجامعة العربية

***

قررنا توزيع السلاح استعدادا للحرب

أخذت معالم المؤامرة على ليبيا تتكشف بوضوح..

وفشلت جميع محاولاتى لاقناع الدول الكبرى بتغيير موقفها..

وكانت محاولة جديدة عندما أرسلت فى يوم ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٦ برقية أخرى باسم الجامعة العربية إلى مجلس وزراء الدول الكبرى وكان منعقدا فى لندن..

لقد اعربت فيها عن تمسك الشعب الليبى برفض أى نوع من الوصاية أو الانتداب على بلاده..

ولم أتلق أى رد على هذه البرقية..

ولا أريد أن أقول إن اليأس أخذ يتسرب إلى نفسى فى مواجهة مؤامرة الدول الكبرى على ليبيا، ولذلك أخذ تفكيرى يتجه إلى الإعداد لمواجهة تنفيذ هذه المؤامرة بالثورة المسلحة.

وكنت على يقين من أن شعب ليبيا لن يتردد فى حمل السلاح مرة أخرى ليقاتل من أجل تحقيق إستقلال بلاده والإبقاء على وحدتها..

وانتهزت فرصة عقد اجتماع الملوك والرؤساء العرب فى انشاص فى يومى ٢٨ و ٢٩ مايو سنة ١٩٤٦ لعرض تفاصيل تطورات المشكلة الليبية أمامهم فى هذا الإجتماع..

ودارت مشاورات بين الملوك والرؤساء العرب حول تطورات القضية، وقد أسعدنى أن تضمن البيان التاريخى الذى أذيع بعد المؤتمر فقرة عن ليبيا تقول:

«ثم تناولوا بالبحث مسألة طرابلس وبرقة وفزان ووجدوا أنفسهم متفقين تمام الاتفاق على أن استقلال هذه البلاد أمر طبيعى وعادل، وأن حكوماتهم متفقة على ضرورته لأمن مصر والبلاد العربية وأن على جامعة الدول العربية التى قضى ميثاقها برعاية شئون العرب ومصالحهم أن تهيئ لهذا الاستقلال. وأن تتعهد فى بادئ الأمر بالرعاية اللازمة ظهور حكومة عربية فى تلك البلاد ومعاونتها أدبيا وماديا حتى تستطيع النهوض بمسئولياتها داخليا وخارجيا كعضو من أعضاء جامعة الدول العربية».

كان هذا هو قرار الرؤساء والملوك العرب فى مؤتمر انشاص . ومرت عدة أيام ثم جاءت بعض التقارير التى توحى بأن خلافا قد نشب بين وزراء خارجية الدول الكبرى حول القضية الليبية . .

ولم انتظر وبادرت بالإتصال مرة أخرى وأنا فى أشد حالات اليأس بالمسئولين فى عواصم الدول الكبرى . .

وجاءنى الرد من لندن . . وكان يقول أن الحكومة البريطانية قد اقترحت على مجلس وكلاء خارجية الدول الكبرى وكان منعقدا فى باريس ايفاد لجنة تحقيق إلى ليبيا للوقوف على رأى الشعب الليبى حول مستقبل بلاده . .

ومع هذا الرد إنتهزت فرصة إنعقاد مجلس الجامعة العربية فى بلودان بسوريا فى شهر يونيو سنة ١٩٤٦ وعرضت على ممثلى الدول العربية اقتراحا بالإبراق فورا إلى وزراء خارجية الدول الكبرى للمطالبة باشتراك الأمانة العامة للجامعة العربية فى أعمال هذه اللجنة . .

ووافق مجلس الجامعة على مشروع برقية كنت قد أعددتها للابراق بها إلى وزراء خارجية الدول الكبرى وهذا نصها :

« علم مجلس الجامعة العربية المنعقد الآن فى بلودان بسوريا باقتراح الحكومة البريطانية بارسال وفد من الدول الأربع الكبرى لتبين رغبات أهل طرابلس وبرقة وفزان وقد كلفنى المجلس أن أحيطكم علما بأن كل تحقيق فى هذا الشأن يهم الجامعة العربية التى تعتبر ليبيا شعبا من الشعوب العربية كما يقضى ميثاقها أن تنظر فى شئونه ومصالحه ولذلك فهى تحرص على أن تشترك فى الهيئة التى أشار اليها الاقتراح البريطانى وتود إذا ما اتفق على هذا الاقتراح أن تدعى للاشتراك فى هذه الهيئة على أن تحاط علما بالاجراءات والمواعيد .

عبد الرحمن عزام

وفجأة انهالت البرقيات والشكاوى على الأمانة العامة للجامعة العربية من الأحزاب الطرابلسية . . كانت تشكو من تزايد هجرة الايطاليين إلى ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية فأدركت ما كانت تهدف اليه ايطاليا . .

كانت تريد أن تضع الدول الكبرى امام الأمر الواقع عندما تصل لجنة التحقيق

الدولية إلى ليبيا فتجد ان ايطاليا قد عادت بنفوذها إلى اراضى ليبيا فى صورة هذا العدد الهائل من المهاجرين الذين اخذوا فى التوافد بمختلف الطرق والأساليب على ليبيا . .

ولم انتظر وبادرت باسم الأمانة العامة للجامعة العربية بارسال مذكرة إلى السفير البريطانى فى القاهرة اطلب اليه ان يلفت نظر حكومته إلى خطورة هذه الهجرة الايطالية المنتظمة التى تقوم بها الحكومة الايطالية ، وطلبت اليه ان تتخذ الحكومة البريطانية الاجراءات الحاسمة لوقف هذه الهجرة تجنبا لما يترتب على استمرارها من نتائج سيئة على تطورات الموقف .

وجاء الرد بعد عدة ايام ، وكان يتضمن وعدا من الحكومة البريطانية بإتخاذ جميع الوسائل الممكنة لوقف هذه الهجرة الايطالية .

وأذكر ما حدث أثناء أحد اجتماعات اللجنة السياسية عندما تقدمت الحكومة العراقية بتوصية تطلب فيها إلى الدول العربية ان تضع شرطا لاستئناف علاقاتها السياسية مع إيطاليا . هو أن تعترف الحكومة الايطالية باستقلال ليبيا .

اثارت هذه التوصية مناقشة أعضاء اللجنة السياسية . .

وكان فى رأى بعض الفقهاء من رجال القانون الدولى . . ان هذه التوصية ليست فى محلها استنادا إلى أنه لا يجوز لايطاليا من وجهة نظر القانون الدولى الاعتراف باستقلال ليبيا بعد أن تنازلت عن مستعمراتها السابقة نتيجة هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية . .

ولم تقتنع الحكومة العراقية بهذا الاعتراض ، وبادرت بالتقدم إلى مجلس الجامعة فى دورة انعقاده العادية التى انعقدت فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ بمذكرة تقول فيها :

« ان اعتراض اللجنة السياسية على توصيات العراق بأن تقرن الدول العربية استئناف علاقاتها السياسية مع إيطاليا بطلب الاعتراف باستقلال ليبيا مستندة إلى أنه لا يجوز لها دوليا الاعتراف باستقلال ليبيا لأنها تنازلت عن مستعمراتها ، هو اعتراض شكلى وغير مبنى على الواقع ، إذ ان إيطاليا إلى الآن لم توقع على معاهدة الصلح كما أنها لا تزال تطالب وبصورة غير رسمية أن تكون لها الوصاية على ليبيا وهى تعمل لذلك فى السر والجهر فى دعاية طويلة وعريضة بل انها ـ على ما جاء فى الأنباء الأخيرة ـ تسعى منذ الآن لأن يكون لرعاياها من أفراد الجالية الايطالية فى ليبيا حقوق ممتازة بالنسبة للسكان المدنيين وهى تبنى هذه المطالب على حقوق تدعى شرعيتها » . .

وبالإضافة إلى هذا فقد لوحظ أخيرا أن ثمة مناورة تريد بها السلطات الايطالية تدعيم مركزها فى طرابلس بأن تدفع اليها جموع المهاجرين الايطاليين سرا وعلنا ، ولم تقابل هذه الهجرة غير المشروعة من السلطات البريطانية بما يجب من حزم واجب ضمانا لمصالح العرب .

ولو فرضنا ان ايطاليا رفضت توقيع معاهدة الصلح ـ والدعاية الايطالية وصحفها تطالب بهذا ـ فماذا يكون موقف الدول العربية بعد أن تكون هذه الفرصة قد افلتت منها ؟ . .

ان على الدول العربية أن تشترط فى استئناف علاقاتها مع إيطاليا أن تكف الحكومة الايطالية عن المطالبة بالعودة إلى ليبيا على أية صورة وأن تؤيد مطالب عرب ليبيا بهيئاتهم وزعمائهم وان تساند موقف الدول العربية من أجل تحقيق استقلال هذا القطر وسيادته .

ومع تقديرنا لأهمية الاعتراض الشكلى الذى أثير فى اللجنة السياسية فإنا نود أن نؤكد ان هذه هى الفرصة السانحة الوحيدة التى ينبغى للدول العربية مجتمعة ان تنتهزها لاستخلاص حق طالما جاهد من أجله عرب طرابلس الأحرار ، وخاصة ان الدوائر الرسمية وغير الرسمية الايطالية تحس بأن استئناف علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول العربية من الأسس اللازمة لنهوضها من كبوتها . .

ولقد كان لما أذيع من عزم الجامعة على اتخاذ القرار المذكور أثر عاجل وعميق فى الأوساط الايطالية الموجودة الآن فى القاهرة مما يدل على اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع وحرجهم من أن يصدر المجلس هذا القرار » . .

* * *

كان المغفور له تحسين العسكرى « بك » وزير العراق المفوض فى القاهرة فى تلك الأيام يرأس وفد بلاده فى اجتماعاته فى مجلس الجامعة العربية ولا أعرف ما الذى حدث بالضبط عندما فوجئت به يثور فى أثناء اجتماعات المجلس وهو يعلن إصرار بلاده على أن يتخذ المجلس قرارا جديدا بشأن التوصية العراقية . .

ولما كانت العراق هى الدولة العربية الوحيدة التى أعلنت الحرب ضد إيطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد اخذت فى تهدئة ثورته وأنا أقول له :

ـ ان هذه التوصية تخص العراق وحدها وبالتالى فإن على العراق أن تعمل على تنفيذها . .

ورد على المغفور له تحسين العسكرى بك قائلا :

ـ ان العراق لن توافق على إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا إلا إذا أعلنت الحكومة الايطالية مسبقا اعترافها باستقلال ليبيا . . ولكن المهم أن يصدر قرار من مجلس الجامعة يؤيدها فى موقفها . .

وأدركت ما كنت تجرى وراءه الحكومة العراقية . .

كانت تعرف خفايا المؤامرة على شعب ليبيا ، ولقد أرادت من مجلس الجامعة العربية أن يتخذ هذا القرار حتى تجد مبررا لموقفها تجاه الحكومة الانجليزية . .

وابتسمت ثم قررت مساعدة العراق على اتخاذ الموقف الذى تريده مادام هذا الموقف فى صالح قضية شعب ليبيا . .

وكان أن أصدر مجلس الجامعة العربية بعد مناقشة المذكرة العراقية قرارا يقضى بضرورة النص على اعتراف إيطاليا باستقلال ليبيا عند عقد الصلح بينها وبين العراق باعتبارها الدولة العربية الوحيدة التى أعلنت الحرب على إيطاليا . .

أما فيما يتعلق باستئناف الدول العربية لعلاقاتها مع إيطاليا فقد تقرر أن تبذل هذه الدول جهودا دبلوماسية للحصول على وعد صريح من الحكومة الايطالية ليس فقط بالتخلى عن ليبيا ولكن بمساعدة عرب ليبيا فى تحقيق مطالبهم القومية فى الوحدة والاستقلال . .

* * *

وقعت إيطاليا اتفاقية الصلح فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ . . وبمقتضى هذه الاتفاقية تنازلت عن مستعمراتها السابقة بما فيها ليبيا . . وفى ذلك الوقت تلقيت رسالة موجهة باسمى باعتبارى أمينا عاما للجامعة العربية من الملك السابق ادريس السنوسى وكانت تقول بالحرف الواحد :

(يا صاحب السعادة . كما تعلمون عن جهاد الشعب الليبى منذ وطئت أقدام إيطاليا أرض الوطن ، أى فى الفترة من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩٣٣ ، وما قاساه هذا الشعب

العربي الباسل من محن وشدائد وغير ذلك لنيل استقلاله وللمحافظة على كيانه كأمة عربية ناهضة . . وقد أعقب ذلك سكون صورى إلى سنة ١٩٤٠ عندما هب الشعب الليبي من جديد جيشا وشعبا يناضل فى هذا السبيل لمناصرة الحلفاء وقدم من المساعدات الفعلية ما كان لها أحسن الاثر ، وقد ضحى فى سبيل هذه الغاية بكل مرتخص وغال ، وقاسى من المتاعب والاهوال فى الارواح والاموال ما لم يقاسه شعب صغير مثله . وهذه هى طبرق وبنغازى وكثير من المدن الليبية أثر ملموس وشاهد حى لمن اراد التاكد من صحة ذلك . وبعد جلاء الايطاليين عن ليبيا فى سنة ١٩٤٣ حلت الادارة العسكرية البريطانية محلهم ، لتحكم البلاد حكما عسكريا إلى الآن ، ولما طالبناها بانصافنا بتسليم إدارة البلاد لنا ولاهلها والاعتراف باستقلال بلادنا وحريتها وهو ما حاربنا وضحينا فى سبيلها ، كان جوابها بأن هذا الموضوع لا يمكنها البت فيه بمفردها وانما فى بحر سنة من توقيع إيطاليا على معاهدة الصلح وإرسال لجنة دولية لزيارة المستعمرات الإيطالية السابقة والاستماع إلى آراء الشعب . . والآن ، وقد وقعت إيطاليا على معاهدة الصلح وتنازلت عن مستعمراتها ومن بينها ليبيا فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ ، وبادرت بكتابة هذا لسعادتكم راجيا عرض قضية ليبيا على مجلس الجامعة المنعقد فى القاهرة الآن فى دورته السادسة لاتخاذ قرار حاسم لمساعدة ليبيا مادياً وأدبياً ، كما سبق أن قرر ذلك مؤتمر انشاص سنة ١٩٤٦ من حضرات أصحاب الجلالة والسمو والفخامة ملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية لتتمكن البلاد من شرح قضيتها فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع العظمى المنعقد الآن بموسكو ، وأمام اللجنة الدولية المراد ارسالها إلى ليبيا ، وإلى كل جهة يمكن الاستفادة منها لصالح ليبيا) . .

محمد إدريس السنوسى

كانت رسالة هامة من الملك السابق إدريس السنوسى ، وقد قمت بعرض الرسالة على مجلس الجامعة العربية اثناء دورة انعقاده واجتماعاته التى عقدت فى شهر مارس سنة ١٩٤٣

كما عرضت على المجلس بعض الرسائل الأخرى التى تلقيتها من هيئة تحرير ليبيا . .

وبعد أن تمت مناقشة ما جاء فى هذه الرسائل اتخذ المجلس قراراً تاريخياً وكان يتضمن ثلاث فقرات تقول حرفيا :

(أ) يصر المجلس على قراره السابق الخاص بوحدة هذه البلاد واستقلالها .

(ب) ينوط بالامانة العامة بذل المساعى لاشراك الجامعة العربية أو بعض الدول

العربية فى كل تحقيق أو استفتاء يجرى فى البلاد وتحديد وضعها السياسى .

(جـ) يكلف الامانة العامة بمراقبة حالة البلاد من ناحية خطر المجاعة الذى يهددها حتى اذا ما تحرجت الظروف اتصلت الامانة العامة بالدول العربية بقصد اجراء ما يلزم فى هذا الشأن .

* * *

بادرت بالاتصال مرة أخرى بالمسئولين فى حكومات الدول الكبرى لاقناعهم باشتراك الجامعة العربية فى لجنة التحقيق الدولية التى تقرر ايفادها إلى ليبيا .

وكم كنت أتمنى أن أجد مناصرة لوجهة نظرى من جانب المسئولين الأمريكيين والانجليز بالذات ، إلا اننى وجدت اعتذارات متنوعة ، وإدعاء بأن اشتراك الجامعة العربية قد يفتح الباب أمام مطالبة دول أخرى بتمثيلها فى اللجنة . .

وكان على أن أتحرك بسرعة . . وساعدنى على ذلك صلابة موقف المسئولين فى الحكومة المصرية وموافقتهم على اتخاذ كل الاجراءات الضرورية للمحافظة على حق شعب ليبيا فى الوحدة والاستقلال . .

ولا أذيع سرا اذا قلت أن مصر أبدت استعدادها فى تلك الأيام لتنظيم حركة للمقاومة المسلحة داخل الأراضى الليبية لمساعدة شعب ليبيا فى مواجهة المؤامرات التى كانت الدول الكبرى تدبرها ضدها .

وفى دورة اجتماعات مجلس الجامعة العربية التى عقدت فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ كان فى رأى مصر أن الموقف فى ليبيا لم يعد يحتمل المماطلات السياسية .

وكان أن تقدمت مصر باقتراحات واضحة حول رأيها فى الحل العسكرى لقضية ليبيا . .

وكان هذا الحل من وجهة نظر مصر هو أن تساند دول الجامعة العربية حركة المقاومة المسلحة داخل ليبيا بكل ما تحتاج اليه من امكانيات مادية وعسكرية . .

وعرف المجاهدون الليبيون باتجاه مصر فتأهبوا لحمل السلاح مرة أخرى . .

ودارت أثناء اجتماعات اللجنة السياسية مناقشات طويلة حول اقتراحات مصر الواضحة والقوية . . ثم تقرر تحت ضغط من العراق والاردن تعديلها . .

وكان قرار اللجنة السياسية بشأن اقتراحات مصر بعد التعديل بالحرف الواحد :

(لما كان حق ليبيا فى وحدتها واستقلالها حقا طبيعيا ثابتا بحكم التاريخ وبما أهدرت من دماء غزيرة فى سبيل الذود عن وحدتها واستقلالها ، وبمناسبة قرب البت فى مصير المستعمرات الإيطالية فان المجلس إذ يرقب المسألة الليبية بقلق زائد يؤكد مرة أخرى ما قرره عن وحدة البلاد الليبية (برقة وطرابلس وفزان) كما يؤكد أن استقلالها هو الهدف الأول الذى يجب أن تنشده البلاد العربية وتسعى اليه بكافة الوسائل الممكنة .

ويرى المجلس ان كل تسويف فى تحقيق هذه الأهداف العادلة أو حرمان ليبيا من استقلالها بتجزئتها أو وضعها تحت وصاية أجنبية هو عمل يتنافى قطعا مع العدالة والحق .

لهذه الأسباب يوصى المجلس الحكومات العربية باتخاذ العدة من الآن لصون استقلال ليبيا ووحدتها وتقديم مذكرات إلى الدول الأربع الممثلة فى اللجنة والقيام بمسعى دبلوماسى لدى هذه الدول للاشتراك فى المفاوضات الجارية حول المسألة الليبية وللدفاع عن وجهة النظر العربية فى هذه القضية الحيوية للبلاد العربية ، لما لها من علاقات بليبيا القائمة على أواصر القربى والجوار والثقافة والتاريخ ووحدة المصالح .

ويناشد المجلس الشعوب العربية قاطبة أن تأخذ الاهبة من الآن لمساعدة ليبيا والدفاع عن حقوقها بكل ما أوتيت من وسائل فعالة ، حتى يتيسر للشعب الليبى الكريم أن يصون حقوقه ويحقق استقلاله وحريته الكاملة) . .

* * *

تنفيذا لهذا القرار وجهت باسم الامانة العامة للجامعة العربية مذكرة جديدة إلى وزراء خارجية الدول الكبرى عن طريق وزارة الخارجية المصرية يقول نصها :

(حضرة صاحب السعادة ، بناء على قرار صدر بالاجماع من مجلس جامعة الدول العربية فى اجتماعه ببيروت فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، أتشرف بأن ألفت النظر إلى النقاط الآتية راجيا التفضل بابلاغ هذه المذكرة فى أقرب وقت إلى حضرة صاحب السعادة وزير خارجية بلادكم :

١ـ ليبيا بلاد عربية ، مساحتها حوالى مليون كيلو متر مربع ، وأقسامها الرئيسية هى برقة وطرابلس وفزان . وعدد سكانها وفق احصاء سنة ١٩٣٨ قرابة المليون من الانفس ، منهم ثلاثون ألف إسرائيلى وفد أغلبهم إلى هذه البلاد منذ قرون على أثر اضطهادات

دينية ، ومنهم ٤٥ ألف إيطالى دخلت غالبيتهم هذه البلاد بعد سنة ١٩١٢ أما الباقون ـ وهم الغالبية ـ فهم عرب مسلمون وفد بعضهم إلى هذه البلاد واستقروا فيها فى القرن السابع عندما فتحها العرب ، ووفد البعض الآخر فى سنة ١٠٥٠ وغالبية هؤلاء ينتمون إلى أصل واحد هو قبيلة بنى سليم .

بق بعض أهل ليبيا الذين ينتمون بأصلهم إلى البربر ، وهؤلاء خالطوا العرب وتزاوجوا فيما بينهم حتى صح القول بأن أهل ليبيا جميعا شعب واحد تجمع بين أفراده أوثق الروابط : فلغتهم جميعا هى اللغة العربية التى لا توجد لغة أخرى تزاحمها ودينهم هو الاسلام الذى لا يقوم إلى جانبه دين آخر . وعاداتهم هى عادات العرب . .

ومن ثم كانت ثقافتهم متماثلة أو كالمتماثلة . .

٢ـ وتجمع أهل ليبيا بالإضافة إلى ذلك عوامل اقتصادية لا انفكاك لها : فبرقة تزود أهل طرابلس بالصوف والسمن والعسل وأحياناً بالقمح والشعير والحيوانات . بينما تزود طرابلس أهل برقة وأهل فزان بالزيوت والمنسوجات الصوفية والآلات الزراعية وفى نفس الوقت تمد فزان برقة وطرابلس بتمرها . . وبمعنى آخر لا غنى لأى من هذه الأقسام الثلاثة فى حياته الاقتصادية عن منتجات القسمين الآخرين ، بل ان كلا منها يعتمد فى حياته الغذائية ـ بل فى ذات وجوده ـ على ما يمده به أهل القسمين الآخرين ، ولا أدل على ذلك من ان تمر فزان قد انقذ فى سنوات الجفاف حيث تقل الحبوب مئات الألوف من أهل ليبيا من المجاعة . .

٣ـ أن ليبيا بأقسامها الثلاثة وحدة لا تقبل التجزئة لأن مثل هذه التجزئة يمكن أن تكون سببا فى فناء سكان كل قسم من أقسامها الثلاثة بدرجة مروعة وهذه الحقيقة هى وليدة عوامل اجتماعية واقتصادية ملحة كانت دائماً بارزة للعيان وكانت دائماً مرعية على مدى التاريخ فى هذه البلاد مما اضطر معه الطليان عندما أغاروا على هذه البلاد فى سنة ١٩١١ إلى الإبقاء على وحدتها الادارية . وهم لم يلجأوا إلى تجزئتها إلى ولايتى برقة وطرابلس إلا تحت ضغط عوامل عسكرية مؤقتة . . وقد اضطروا بعد ذلك إلى انشاء حكومة موحدة يعتمد سلطانها على وحدة البلاد كلها ويشرف عليها حاكم عام مقره مدينة طرابلس .

ولذلك فان المطلب الأول للشعب هو الإبقاء على وحدة البلاد بأقسامها الثلاثة من حدود مصر شرقا إلى حدود تونس والجزائر غربا .

٤ـ ان الشعب الليبي وهو يطالب بالابقاء على وحدة بلاده يطالب كذلك وبكل قوة بتمتعها بالاستقلال وبتحريرها من الاستعمار والاستغلال أيا كانت صورته..

والاستقلال ليس غريبا على أهل هذه البلاد على ما قد يبدو لأول وهلة أو كما يتصور البعض، فمنذ الفتح الاسلامى فى منتصف القرن السابع للميلاد وأهل هذه البلاد يتمتعون فعلا بالحرية الواسعة التى يسمح بها الاسلام فى تنظيم شئونهم الداخلية..

كما عاشت ليبيا أيضاً منذ انضمامها إلى الدولة العثمانية وهى تتمتع بكيان سياسى مستقل، فقد كان نظام الخلافة الذى كان يربط بين البلاد العربية والدولة العثمانية لا يتعرض لمنهج الحكم وأساليب الإدارة فى أى بلد من البلاد العربية، بل كان على العكس من ذلك يبقى على تلك المناهج والأساليب ويمدها بما يحقق لها أسباب النمو والرقى ما دامت تهدف إلى رفاهية السكان وإقامة العدل بينهم. وكان أن قامت فى طرابلس الغرب، منذ انضمامها إلى الدول العثمانية، مجالس وطنية كانت تتولى الاشراف على إدارة هذه البلاد. وكما أن ابناء هذه البلاد هم الذين كانوا يتولون شئون القبائل والعشائر، وكان منهم المديرون ورؤساء البلديات فى المدن الكبرى.

وعندما نجحت الحركة الدستورية فى الدولة العثمانية فى أوائل هذا القرن وبالضبط فى سنة ١٩٠٨ أصبح لليبيين ممثلون فى البرلمان العثمانى.

وهكذا تمتع أهل ليبيا بالاستقلال الذاتى ومارسوا القيام بوظائفه وتكاليفه فترة طويلة من الزمن. وقد نزل هذا النظام منزلة خاصة فى نفوسهم واطمأنت اليه قلوبهم لأنه لم يخرج بهم عن مألوف عاداتهم وتقاليدهم الموروثة، ذلك أنهم ـ وهم فى غالبيتهم من قبائل عربية بدوية ـ مطبوعون بالفطرة على الاستقلال والتحرر من كل قيد.

ولذلك قاوم أهل ليبيا اعتداء الطليان على بلادهم فى سنة ١٩١١ أشد المقاومة وقد استمروا على مقاومتهم طوال الثلاثين سنة الماضية إلى أن ساعدتهم جيوش الحلفاء أخيراً فى سنة ١٩٤٣ على التخلص من الحكم الإيطالى البغيض..

ولما كان تاريخ جهاد الليبيين فى الذود عن بلادهم واستشهادهم فى سبيلها وكذلك تاريخ فظائع الاستعمار الطليانى والوسائل الوحشية التى اصطنعها لاخضاع البلاد واذلالها معروف ومنشور، لذلك نكتفى بأن نقرر ان تلك الوسائل الوحشية قد ولدت فى نفوس الليبيين جميعا شعورا شديدا بالكراهية نحو الطليان. الأمر الذى يجعل مجرد التفكير فى إعادة أى شبر من أرض البلاد إلى إيطاليا من أتعس الحلول وأبعدها عن الصواب، بل

ابعدها أيضا عن الممكن تنفيذه فعلا لأن أهالى ليبيا سيقاومون مثل هذا الحل جميعا بقوة السلاح.

٥- وإذا كان الليبيون قد قاوموا اغارة الطليان على بلادهم ووقفوا فى وجه كل ما انزلوه بهم من صنوف العذاب فى غير هوادة ولا مهادنة، فذلك لأنهم أهل كرامة وأهل استقلال، وقد طبعت على ذلك نفوسهم منذ أجيال. وكان أن استشهد وهاجر منهم من لم يستطع ان يقيم على الضيم، ولا يهم ان انخفض تعداد سكان البلاد نتيجة لهذين العاملين فى الثلاثين سنة الماضية من مليونين إلى قرابة المليون من الانفس.

٦- وقد ظل المجاهدون الليبيون يعملون فى البلاد العربية، وخاصة فى مصر على تحرير بلادهم من قبضة الطليان، وعندما دخلت إيطاليا الحرب فى يونيو سنة ١٩٤٠ بادروا بالعمل وكان أن اتصل فريق منهم بالمفوضية الفرنسية بالقاهرة لمساعدتهم فى السفر إلى الجزائر حيث قاموا بالاتصال بالجنرال فوكس واتفقوا معه على تجهيز حملة من الليبيين الموجودين فى الجزائر وتونس لمحاربة الطليان فى ليبيا غير أن استسلام فرنسا قضى على تنفيذ هذا المشروع.

أما الفريق الثانى، وكان يعمل تحت رئاسة السيد محمد إدريس السنوسى، فقد قام بانشاء الجيش الليبى الذى اشترك مع الحلفاء فى معارك الحرب ضد إيطاليا.. وقد بلغ عدد أفراد هذا الجيش ١٤ ألف جندى و ١٢٠ ضابطا ليبيا، وقد خاض هذا الجيش تحت قيادة الكولونيل براملى الانجليزى جميع المعارك التى دارت فى الصحراء الغربية إلى جانب جيوش الحلفاء. وكانت مهمته على وجه الخصوص العمل خلف خطوط الأعداء وقد قدم من المساعدات ما كان له الفضل المعروف فى هزيمة جيوش روميل.

ولعل أبرز دليل على ذلك هو شهادة ضابط بريطانى كان يعمل مع عرب برقة خلف خطوط العدو واسمه الميجور بننكوف فقد أذاع حديثا من محطة لندن يوم ٣١ مايو سنة ١٩٤٧ قال فيه:

- اننى لا أتعدى على الحقيقة حين أقول إن عرب برقة كانوا معبرا لنصر الحلفاء فى هذه الحرب وأن جميع أفراد الجيش البريطانى الثامن مدينون بحياتهم لعرب برقة.

وأكد هذه الحقيقة وزير خارجية بريطانيا فى الخطاب الذى ألقاه أخيرا بمناسبة ذكرى معركة العلمين..

ولهذه الاعتبارات مجتمعة يتمسك أهل ليبيا بحق بلادهم فى التحرر والاستقلال خاصة لأن أهليتهم فى إدارة شئونهم بأنفسهم ثابتة لهم منذ قرون وقرون ، فضلا عن أن من بينهم من يشغل فى البلاد العربية الشقيقة وفى تركيا أعلى الوظائف السياسية والادارية والعلمية وهؤلاء كثيرون ، وهم جميعا ينظرون إلى اليوم الذى تستعيد فيه بلادهم استقلالها ليعودوا إليها وليخدموها بما توافر لهم من علم وخبرة .

٧ـ مما تقدم يتبين بوضوح أن أهل هذا البلاد يستأهلون الاستقلال . ولا ينقص من حقهم ما قد يبدو من فقر بلادهم إلى الموارد الطبيعية وعدم اخذهم بوسائل التقدم الصناعى . . ولا شك أن العبرة فى استحقاق شعب لممارسة الاستقلال انما هى بتقدمه الادبى وبتراثه الماضى وما يكون قد خلع عليه من الاعتزاز بالحرية والحرص عليها ومن فهم لمعنى التعاون ، والتضحية فى سبيل الغير مما يؤهله للتحرر من الاستغلال الأجنبى .

٨ـ يعتمد أهل ليبيا فى طلب وحدة بلادهم واستقلالها على حق كل شعب فى اختيار وتقرير مصيره . وهم يستندون إلى أن ليبيا قد استعادت وضعها السياسى قبل الغزو الإيطالى مع تنازل إيطاليا بمقتضى معاهدة الصلح الموقعة فى باريس فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ عن كل ما كانت تدعيه من حقوق فى بلادهم ، ولما كانت الدولة العثمانية قد تنازلت من قبل هى الأخرى عن كل حق لها بمعاهدتى لوازن الموقعتين فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ و ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٣ ، فان ليبيا تكون بذلك قد تحررت من كل سيطرة أجنبية واستعادت حقها الأصيل فى الحرية والاستقلال ، ويستند الليبيون كذلك إلى جهادهم الطويل المرير ضد الحكم الفاشى وإلى ما قدموه لقضية الحلفاء فى الحرب الاخيرة من المساعدات التى كانت بحق معبر النصر لهم جميعا .

٩ـ لذلك يرى مجلس جامعة الدول العربية أن كل تسويف فى وحدة هذه البلاد واستقلالها يعتبر عملا ظالما يتنافى مع الحق والعدل ، ويعتبر كذلك وضع هذه البلاد كلها أو بعضها تحت أية وصاية أجنبية ، وكل عمل يتنافى مع الحق والعدل هو عمل من شأنه أن يثير الاضطرابات ويدفع إلى العمل للتخلص منه بكل الوسائل .

وأنى لأحرص على أن أؤكد لسعادتكم أن الحكومات العربية لن تقف مكتوفة الايدى أمام أى ظلم يقع على عرب ليبيا وانها لن تتراخى فى القيام بواجبها فى هذا الشأن .

عبد الرحمن عزام
الامين العام لجامعة الدول العربية

وهكذا لم أترك مناسبة واحدة دون أن ألفت انظار الدول الكبرى إلى الأخطار التى يمكن أن تواجه تنفيذ مشروعاتها لتقسيم ليبيا أو فرض الوصاية أو الانتداب عليها..

كان هذا واضحا وصريحا فى كل ما أرسلته اليها من مذكرات أو برقيات باسم الامانة العامة لجامعة الدول العربية

وكان اقتناعى بأن ما لا نستطيع أن نحصل عليه بالأساليب الدبلوماسية ، يمكن أن نحصل عليه بالثورة المسلحة والحرب..

ولم يكن فى وسعى بينما كنت أستعد للمعركة الفاصلة أن اهدد وانذر وأنا ألوح لهم فى نفس الوقت بأغصان الزيتون تأكيدا لرغبتى فى حل القضية بالأساليب السليمة !

* * *

الفصل الثامن والعشرون

فشلت محاولاتهم لتقسيم ليبيا

فشلت محاولاتى لاقناع الدول الكبرى بالموافقة على اشراك الجامعة العربية فى لجنة التحقيق . .

ولم يكن أمامى الا أن أعمل على توحيد كلمة الشعب الليبى حتى يصبح رأيا واحدا فى مواجهة اللجنة التى قررت الدول الكبرى ايفادها إلى ليبيا للتعرف على آراء الشعب الليبى . .

كنت أريد توحيد الصفوف وجمع الكلمة وتنسيق الجهود ، وأهم ما فى ذلك تهيئة الرأى العام الليبى لاستقبال لجنة التحقيق برأى موحد فى طلب الاستقلال والوحدة . . وكان أن اتصلت بجميع الأحزاب والهيئات السياسية فى ليبيا . .

واقتضى الأمر استدعاء بعض زعماء البلاد إلى القاهرة حيث عملت جاهدا على تقريب وجهات النظر فيما بينهم ، وقد استطعت أثناء اجتماعاتى مع هؤلاء الزعماء الليبيين ازالة الكثير من أسباب الخلافات بينهم .

قلت لهم يجب أن تواجهوا لجنة التحقيق الدولية برأى واحد . .

ولضمان تحقيق هذا الهدف عملت فى شهر مارس سنة ١٩٤٨ على تشكيل هيئة تحرير ليبيا من ممثلين عن جميع الأحزاب السياسية والهيئات الليبية . . وكان ان تم تكوينها من بشير بك السعداوى واحمد بك السويحلى وجواد بك ذكرى والطاهر بك المريض ومنصور بك قدارة ، ومحمود بك المنتصر . .

كانوا جميعا من المجاهدين الذين عرفوا بدورهم فى معركة كفاح شعب ليبيا ضد الاستعماريين الانجليزى والإيطالى . .

وكان الهدف من تشكيل الهيئة كما جاء فى البيان الذى اذاعته إثر إعلانها . . السعى لاستقلال ليبيا بحدودها الطبيعية أى من الحدود المصرية إلى الحدود التونسية والجزائرية وإلى الصحراء الكبرى جنوبا ، والتعاون مع الجامعة العربية والتفاهم فى كل ما يحقق هذا

الاستقلال وصيانته وفى كل ما يؤمن رفاهية الشعب الليبى وتقدمه، وكذلك السعى بكافة الطرق المشروعة داخليا لتنوير الرأى العام وتوحيد الصفوف وتوجيه الجهود الوطنية وإجتناب كل دواعى الجدل والشقاق والخلاف على نظام الحكم وطرائقه على أن يبحث كل ذلك ممثلو الشعب بعد الاستقلال للصالح العام والمحافظة على وحدة الكلمة أثناء الكفاح للحرية، وخارجيا بالدعوة فى مختلف الاوساط العالمية من أجل ضمان تأييد الرأى العام العربى والاسلامى والعالمى وذلك بنشر دعوة الليبيين بين كافة شعوب العالم وفى مختلف الميادين الدولية..

ومع اعلان تشكيل هيئة تحرير ليبيا وجهت رسالة إلى شعب ليبيا من اذاعة القاهرة وكان نصها:

.. من عبد الرحمن عزام باشا إلى الشعب الليبى وهيئاته السياسية.. ان قضيتكم ولا ريب من القضايا العربية التى نوليها اهتماما منذ ثلاثين سنة ونرجو لها النجاح.. وأن شعبكم العربى فى مقدمة الشعوب التى ناضلت وضحت بكثير من خير أبنائها فى سبيل الحرية والاستقلال.

وان هذا الظرف لمن انسب الأوقات لكى تجنوا ثمار أعمالكم وتظفروا بموقفكم فقد أزال الله عنكم كابوس الظلم والاستعمار وهيأ لكم فرصة التحرر من الاستعمار، فاغتنموها.. وهأنذا أعلن ان اخوانكم الطرابلسيين قد شكلوا هيئة وطنية فى القاهرة اشترك فيها حضرات السادة:

بشير السعداوى بك، أحمد السويحلى بك، محمود بك المنتصر، الطاهر بك المريض، منصور بك قدارة، جواد بك ذكرى.

وسينضم اليها من رجال طرابلس فى الأقطار الشقيقة بعض المجاهدين القدماء وقد اتخذت لنفسها اسم (هيئة تحرير ليبيا) واعتقد أن رجالها من خير أبناء البلاد البررة وأن هدفهم هو استقلال البلاد والعمل على نيل حقوقها كاملة غير منقوصة..

وإنى أرى أن وجود هذه الهيئة مما يساعدنا على معرفة رغبات الشعب الليبى ويسهل مهمتنا فى خدمته ويمكن من توضيح آمال الشعب فى البلاد العربية والأجنبية..

وإنى لأهيب بجميع الهيئات السياسية على اختلاف ألوانها فى ليبيا أن تتكاتف فى الداخل والخارج حتى تستطيع الهيئة أن تؤدى عملها على خير وجه وأكمل نظام.. كما

أناشد هذه الأحزاب المتعددة فى ليبيا أن تتهادن وأن تكف عن أى قول أو فعل يحرك الشقاق بينهم وأن يتجهوا بكامل جهودهم نحو الاتحاد لانقاذ البلاد فى الدور العصيب الذى تمر به الآن..

* * *

بدأنا العمل فى توحيد كلمة شعب ليبيا فى مواجهة لجنة التحقيق الدولية وكان أن التف الشعب الليبى حول هيئة تحرير ليبيا..

ولعبت هذه الهيئة وغيرها من منظمات الشعب الليبى دوراً هاماً فى مواجهة لجنة التحقيق الدولية..

وكان أن سارت الأمور فى طرابلس الغرب وفق رغبات الأهالى الوطنيين.. أما فى برقة فقد تنازعت الموقف بعض التيارات العربية من النفوذ الشخصى والمؤامرات الأجنبية، وان كانت نتيجة التصويت أمام لجنة التحقيق قد جاءت على أحسن وجه، مما أكد إجماع الشعب الليبى على الوحدة والاستقلال..

ولكن نتيجة هذا الاستفتاء لم تكن كل شىء..

كانت المؤامرة الدولية على شعب ليبيا لا تزال مستمرة..

واستطعت أن أعرف من اتصالاتى التى لم تتوقف لحظة واحدة مع المسئولين فى حكومات الدول الكبرى أن هناك اصرارا على ابقاء ليبيا تحت النفوذ الأجنبى.

وأرادت بريطانيا أن تفرض الأمر الواقع فعقدت مع إيطاليا الاتفاقية التى عرفت باسم اتفاقية (بيفن ـ سفورزا)..

كانت اتفاقية تعترف فيها بريطانيا بالمصالح الإيطالية فى إقليم طرابلس الغرب، وفى نفس الوقت يعترف الإيطاليون بمصالح بريطانيا فى إقليم برقة..

وتكشفت مع هذه الاتفاقية بعض أبعاد المؤامرة التى كانت الدول الكبرى تحيكها ضد ليبيا، وكانت تهدف إلى تقسيم الأراضى الليبية بحيث يظل إقليم برقة تحت سيطرة الانجليز بينما يبقى إقليم فزان تحت سيطرة فرنسا وأن تعود إيطاليا للسيطرة على إقليم طرابلس الغرب.

وقد ارادت بريطانيا باتفاقها مع إيطاليا ان تضمن مشاركة الإيطاليين . فى تنفيذ هذه المؤامرة الدولية . .

واعترف بأنى كنت قبل عقد هذه الاتفاقية قد قمت بعدة اتصالات مع المسئولين فى الحكومة الإيطالية والفاتيكان . .

كنت أريد من إيطاليا ان تؤيد حقوق شعب ليبيا فى الوحدة والاستقلال وكان فى تصورى أن فى وسعى أن أكسب الرأى العام الإيطالى إلى جانب الحق العربى . . وكان أن نظمت حملة اعلامية داخل إيطاليا لكسب الرأى العام الايطالى إلى جانب وجهة نظرنا العربية . .

وكنت فى نفس الوقت أهدف للاستفادة من نفوذ إيطاليا فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية ، وفى دول أوربا الكاثوليكية عند مناقشة قضية ليبيا فى الأمم المتحدة . .

واشترك معى فى هذه الاتصالات بعض الليبيين الذين كانت تربطهم بالايطاليين والفاتيكان علاقات طيبة . .

وتطورت هذه الاتصالات لتتحول إلى مباحثات شبه رسمية مع بعض المسئولين فى الحكومة الإيطالية بواسطة بعض الايطاليين من رجال الأعمال الذين كانت الحكومة الايطالية توفدهم إلى القاهرة للاتصال بى ، وأحياناً بواسطة ممثل إيطاليا فى القاهرة . .

وكان بعض الزعماء الليبيين على علم بهذه الاتصالات التى كادت تصل إلى نتيجة حاسمة تعترف فيها إيطاليا باستقلال ليبيا ووحدتها مقابل ان يحصل الايطاليون المقيمون فى منطقة طرابلس على حقوق مساوية لحقوق العرب وأن تسوى المشاكل التى ترتبت على نزع ملكية بعض الأراضى والممتلكات العربية بواسطة الايطاليين أيام حكم الفاشست لإيطاليا بالوسائل الودية . .

المهم . . كادت هذه المساعى تؤدى إلى النتيجة التى كنت أهدف إليها . .

ولكن فجأة توقفت جميع الاتصالات من جانب الايطاليين . .

وأدركت السبب ، فقد كانت مطامع إيطاليا فى استرداد منطقة طرابلس تتزايد مع ما أظهره البريطانيون والفرنسيون وبعض دول الكتلة الغربية من ميل لاحتضان إيطاليا والعمل على إرضائها بحجة مقاومة تغلغل النفوذ الشيوعى فيها بعد إنهاء الحرب العالمية الثانية . .

* * *

أخذت مخاوفى تتزايد مع النغمة الجديدة التى أخذت الدول الكبرى ترددها حول رغبتها فى تحقيق مطامع إيطاليا فى استرداد منطقة طرابلس، خوفا من الشيوعية فى بلادها..

وخرجت من لندن وباريس فى تلك الأيام تصريحات رسمية تقول أن الحكومتين البريطانية والفرنسية لا تمانعان فى وضع إقليم طرابلس تحت الوصاية الإيطالية..

وقام الكونت سفورزا وزير الخارجية الإيطالية بزيارة لندن حيث دارت بينه وبين الانجليز مباحثات انتهت بعقد الاتفاق الذى اشتهر باسم اتفاقية (بيفن ـ سفورزا)..

وكان على أن أتخذ الاجراءات الضرورية لمواجهة الموقف..

ولا أريد أن أقول اننى كنت قد وضعت خطة كاملة لتهيئة الشعب الليبى لمقاومة تنفيذ الدول الكبرى لمؤامرة تقسيم ليبيا..

كنت أعرف الشعب الليبى، وكنت على استعداد لأن أضع استقالتى تحت تصرف دول الجامعة العربية لأعود مرة أخرى إلى الصحراء للقتال إلى جانب المجاهدين..

ولكن فجأة تحركت الحكومة الأمريكية بعد أن تأكد لها أن فرض الوصاية الايطالية على اقليم طرابلس لا يمكن أن يتم دون أن تنشب الثورة فى الأراضى الليبية، وكان أن أرسلت إلى على لسان السفير الأمريكى فى القاهرة تقول لى.. إن حكومة أمريكا تميل إلى تأييد وجهة النظر العربية. وأنها على استعداد لتأييد حقوق شعب ليبيا فى الوحدة والاستقلال..

ولم أنتظر، وبدأت أتحرك لاحباط اتفاق بيفن ـ سفورزا..

وعندما عقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة اجتماعها لمناقشة قضية ليبيا قمت بالاتفاق مع وزارة الخارجية المصرية بإيفاد وفد من ممثلى الشعب الليبى، وهيئة تحرير ليبيا إلى الأمم المتحدة..

ولعب هذا الوفد الذى دفعت القاهرة جميع نفقاته دوراً هاماً فى الاتصالات مع الوفود المختلفة..

وكانت المفاجأة عندما تكتلت دول العالم ضد هذا الاتفاق..

وتحطمت أحلام إيطاليا مع رفض الجمعية العمومية للأمم المتحدة أن تعود إيطاليا إلى إقليم طرابلس.

وهنا يؤسفنى أن أقرر أن الدول الكبرى عملت على إثارة البلبلة فى نفوس بعض الزعماء الليبيين..

وكانت النتيجة أن فقد بعض الليبيين ثقتهم فى تحقيق حقوق بلادهم الوطنية فى الوحدة والاستقلال..

وكان أن ارتفعت بعض الأصوات الليبية تطالب بأن يقتصر جهاد الشعب الليبى على منع عودة النفوذ الايطالى إلى الأراضى الليبية بكل الوسائل.

وتورط بعض هؤلاء الزعماء الليبيين فى التفاهم مع المسئولين الانجليز على بعض صور الحكم التى لا تخرج عن الحماية الأجنبية..

وكان هؤلاء الزعماء الليبيون هم الذين طالبوا بالابقاء على النفوذ البريطانى.

* * *

لم ييأس الايطاليون عقب رفض الأمم المتحدة اعادة نفوذهم إلى الأراضى الليبية.. وكان أن عملوا على استئناف اتصالاتهم معى سواء بصفتى الشخصية، أو بصفتى أميناً عاماً للجامعة العربية..

وكانت بداية التفاهم بينى وبين الايطاليين حديثاً نشرته لى جريدة التمبو (الزمان) الايطالية بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٩٤٩ تحت عنوان «دولة عربية يشترك فيها الايطاليون»...

وتحت هذا العنوان كتبت الجريدة الايطالية تقول بالعناوين الضخمة:

- الأمين العام للجامعة العربية يؤكد ضرورة وحدة الأراضى الليبية..
- التفاهم لا يزال ممكناً بشرط أن يقوم على أساس اتفاق صادق..

وأذكر أن المراسل لهذه الجريدة فى القاهرة وكان اسمه (امبرتو سبالا تزانى)، كان قد اتصل بى، وسأل إن كان فى وسعه أن يحصل منى على حديث صحفى لجريدته عن تطورات الموقف فى ليبيا..

ورحبت بالصحفى الايطالى فقد كنت أعرف أهمية جريدته، كما كانت فرصة لاثارة انتباه الرأى العام الايطالى إلى الحقوق المشروعة لشعب ليبيا فى الوحدة والاستقلال..

وجاء الصحفى الايطالى لأدلى له بعدة تصريحات وكانت هى بداية التفاهم بيننا وبين إيطاليا . .

وهذا نص الحديث لأهميته :

س ـ هل يمكن لسعادتكم أن تدلوا لنا برأيكم فى الحوادث التى تتعلق بليبيا ؟ . .

ج ـ إن رفض هيئة الأمم المتحدة مشروع « بيفن ـ سفورزا » يعتبر نصراً للعرب وهو يبرهن على أن الدول الصغيرة لم تعد تخضع لارادة الدول الكبيرة . . ألم تشتعل نار الحرب للدفاع عن مبادىء الحرية . ولقد كان بين الحريات التى نادى بها الحلفاء وأكدها ميثاق الأمم المتحدة حق تقرير المصير الذى يظهر أنه نسى نهائياً . لماذا ؟ هل ليقولوا للشعب الليبى أنت ليس لك الحق فى أن تكون حراً وأنه يجب أن يفرض عليك حكم أجنبى لا ترغب فيه ؟ . . وفى رأيى أن هذا المنطق يعنى نقصاً فى الصراحة وأنه يرمى إلى إخفاء بعض المصالح ولكن الغاية لا تبرر الوساطة لأن حماية هذه المصالح يمكن تأمينها بطرق أخرى !

س ـ هل تعتقد سعادتكم أن التفاهم بين الايطاليين والعرب لا يزال ممكناً ؟

ج ـ نعم ، بشرط أن يكون ثمرة اتفاق صادق مخلص وأنا لست فى حاجة إلى أن أكرر أن العالم العربى يشعر بعطف نحو الايطاليين الذين هم مثلنا من سكان البحر المتوسط . .

وأن التفاهم بين العرب والايطاليين سيؤدى حتماً إلى مصالح متبادلة .

واستطردت أقول له :

ـ هل فكرتم فيما يمكن أن يعود على بلادكم نتيجة لمثل هذا التفاهم ؟ إن مجموعة الشعوب الاسلامية كبيرة وأنتم أمة فى حاجة لتصدير منتجاتها فضلاً عن تصدير الأيدى العاملة ، وقد قدرنا دواماً مواقف الشعب الايطالى وقد سبق أن قلت ذلك فى الحديث الذى نشرته (التمبو) فى يوم ٢٥ أكتوبر فى العام الماضى .

س ـ هل فى استطاعتكم أن تؤكدوا أنكم لا تزالون عند رأيكم الذى سبق أن صرحتم به فى الحديث المذكور ؟

ج ـ أعتقد أن هذا فى استطاعتى ، ولكن لاحظوا جيداً أن العرب لن يستمروا فى مد أيديهم على الدوام وأنهم مصممون على الكفاح بجميع قواتهم لتحقيق استقلالهم ووحدة

بلادهم .. ويكفى أن أذكركم بما كان من غاريبالدى الذى يعتبر بطلاً من أبطال حرية الشعوب ..

وأنكم قد كافحتم من أجل وحدة بلادكم واستقلالها .. وكان لكم ضحايا لذلك يجب عليكم أن تفهموا أمانى الليبيين وأن تعضدوها فإن فعلتم هذا علا مركز الايطاليين .. وعليكم أن تذكروا أن العرب لا ينسون فهم شعب فخور بماضيه ومتأكد من مستقبله فإذا تخلت إيطاليا عن كل أفكارها الاستعمارية أصبحت بطلة للحرية فى العالم وعلت سمعتها ونفوذها كثيراً ..

* * *

مرت بعد ذلك عدة أيام ، ثم نشرت نفس الجريدة الايطالية حديثاً للكونت سفورزا وزير الخارجية الايطالية يرد فيه على حديثى .. وكان يبدو كمن يريد أن يقول لى فيه .. أنت فتحت الباب للتفاهم .. وأنا هنا على استعداد لمناقشة الموقف معكم ..

وقد نشرت الجريدة الايطالية الحديث بعنوان (المصالح الايطالية فى طرابلس شديدة الاتباط بالمصالح العربية) ..

وكان هناك عنوان آخر يقول :

- لا توجد عوائق من جهة إيطاليا فى سبيل وحدة ليبيا ..

وهذا هو نص الحديث للكونت سفورزا لأهميته :

س - ما هو أثر الحديث الذى أدلى به عزام باشا إلى جريدتنا يا معالى الوزير ؟

ج - حسن . ويظهر أن آراء هذه الشخصية البارزة فى الجامعة العربية التى قابلتموها تتفق مع الآراء التى وردت فى تصريح الحكومة الايطالية فى أول يوليو وهى تطابق آراء واتجاهات لم تكن حديثة العهد فى إيطاليا ولا فى أوساط المستشرقين ، ولا فى الدوائر الحكومية .. ونحن مستعدون للتفاهم مع العرب على أوسع مدى فى سبيل انشاء دولة يمكن أن يتعاون فيها العرب والايطاليون فى ليبيا تعاوناً كاملاً .. وأظن أن هذا ما حاول عزام باشا أن يقوله فى حديثه ..

س - وكيف تفسرون اتفاقكم مع بيفن ؟

ج - بخصوص هذا الاتفاق يجب تمييز المبادىء الجوهرية التى أوحت إلينا به وكذلك

تطبيق هذه المبادىء بصورة علمية فإن جوهر الاتفاق يرجع إلى اعتراف بريطانيا برجحان المصالح الايطالية فى طرابلس فى الوقت الذى اعترفنا فيه برجحان مصالح بريطانيا فى برقة وإن كان نوع مصالحهم يختلف تماماً عن نوع مصالحنا . . أما بخصوص كيفية هذه الاعترافات المتبادلة سواء بغرض الوصاية أو بعقد اتفاقات مباشرة مع الحكومة المحلية وغيرها ، فمن المفهوم أن هذا لا يتوقف على رغبات أو إرادة إيطاليا وانجلترا فحسب بل يتوقف على جملة عوامل وظروف مثل رغبات الشعوب والحالة المحلية وقرارات هيئة الأمم المتحدة ورأى الجامعة العربية . .

س - وما هى فى رأيكم المصالح الايطالية فى طرابلس ؟

ج - إن هذه المصالح ليست إيطالية فقط ولكنها شديدة الارتباط بحياة طرابلس ، فهناك قبل كل شىء مصالح العمال الايطاليين الذين كانوا جزءاً رئيسياً فى كيان البلد الاقتصادى كما توجد فى طرابلس مجموعات من أصل إيطالى وقد أصبحت هذه المجموعات جزءاً مقيماً وحياً من شعب البلاد . . وهناك أيضاً الروابط الاقتصادية التى تأسست بحالة متينة جداً وخاصة فى الصناعة والزراعة ، وهذه الروابط الاقتصادية نشأت وترعرعت بوجود المنشآت الايطالية التى أدخلتها إيطاليا وأحيتها ، وهناك أيضاً الجوار الجغرافى للبلدين ورغبة ايطاليا فى قيام دولة صديقة على الضفة المقابلة لها على البحر المتوسط تكون حالتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كعامل استقرار فى هذا البحر .

س - تحدث عزام باشا عن مسألة وحدة ليبيا فما رأيكم فى هذا الموضوع ؟

ج - لم تكن إيطاليا أبداً وبأى طريقة ضد وحدة ليبيا . .

ومضى الكونت سفورزا يقول :

- ما هى مصالح إيطاليا الحقيقة والدائمة فى ليبيا . . إنها فى رأيى أن تكون الشعوب المقابلة لها على البحر المتوسط فى حالة رخاء وسعادة وهناء وأن تكون علاقاتنا معاً وثيقة ومثمرة ، كما أن الانقسامات والتقسيم لا يمكن أن يساعد على تحقيق الثروة أو السعادة . .

ومن جهة أخرى فإن وجود حكومة سنوسية فى برقة يعطى هذ القطر طابعاً سياسياً خاصاً وهو ما لم يقابل قبولاً حسناً فى الأقطار الأخرى لغاية الآن . .

واختتم الكونت سفورزا حديثه قائلاً :

ـ على سكان ليبيا أن يقدروا أولاً هذه الظروف بعد أن يتفهموا تماماً الحالية الدولية وطبيعة ثرواتهم المحلية أما فيما يتعلق بإيطاليا فهما تكن الطريقة التى سوف تتحقق بها علاقتنا الجديدة مع الشعوب صاحبة الشأن فى طرابلس فإن الحل لا يجد من ناحيتنا أى عائق اقتصادى أو سياسى بين أقاليم ليبيا.

* * *

كان هذا الحديث الذى نشرته الجريدة الايطالية للكونت سفورزا كافياً لاستئناف مباحثاتى مع وزير إيطاليا المفوض بالقاهرة..

وكنت من جانبى أنقل تفاصيل هذه المباحثات أولاً بأول إلى الزعماء الليبيين وإلى وزراء الخارجية العرب..

ودامت هذه الاتصالات عدة أشهر، حتى كان صيف ١٩٤٩ عندما عرضت على إيطاليا اقتراحاً لتأييده فى الأمم المتحدة عند مناقشة قضية ليبيا..

وكان اقتراحاً من الحكومة الايطالية يقضى بالموافقة على قيام حكومة مستقلة فى إقليم طرابلس الغرب..

وهذا هو نص الاقتراح كما تقول الوثائق الرسمية:

١ ـ توصى الجمعية العمومية للأمم المتحدة بضرورة تهيئة الظروف لمنطقة طرابلس الغرب لتصبح بأسرع ما يمكن دولة مستقلة وتحقيقاً لذلك يجب فى مدة ستة أشهر إجراء انتخابات جمعية وطنية لتختار نوع الحكومة التى تمثل البلاد على أن تشرف على انتخابات هذه الجمعية لجنة دولية مكونة من ممثلى الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا ومصر وإيطاليا ومن مندوبين يمثلان سكان طرابلس وتقوم هذه اللجنة بوضع النظم التشريعية التى تسير عليها الانتخابات وفى أثناء فترة الانتقال يعهد مؤقتاً بإدارة البلاد لسلطات الاحتلال حتى يتسنى إنشاء حكومة وطنية فيها.

٢ ـ تدعو الجمعية العامة للأمم المتحدة حكومة إيطاليا وحكومة طرابلس لعقد معاهدة بينهما لتدعيم العلاقات وتصفية المصالح المشتركة الخاصة برعايا إيطاليا المقيمين فى الأراضى العربية..

كان هذا هو الاقتراح الايطالى كما قام الايطاليون بصياغته.. وقد بادرت باعداد

مذكرة عن تفاصيل مباحثاتى مع وزير إيطاليا المفوض فى القاهرة ثم قمت بابلاغها إلى وزراء خارجية الدول العرب..

كانت مذكرة تاريخية فقد كشفت عن التحول فى سياسة ايطاليا ويقول نصها:

منذ زمن طويل حاولت حكومة إيطاليا بطرق متعددة الاتصال بالحكومة المصرية والأمانة العامة والأحزاب والزعماء الطربلسيين للتفاهم على أساس يرضى مطالب العرب ويحقق لإيطاليا مقاماً ممتازاً فى طرابلس الغرب كوصية أو ما يشبه ذلك.

ولم تصل هذه المحاولات رغم استمرار ها لمدة تزيد على سنتين إلى نتيجة حاسمة نظرا لتردد الطليان وآمالهم التى وضعوها فى بريطانيا وأمريكا فكانوا يتراجعون عن تأييد الاستقلال التام الناجز لطرابلس كلما بانت لهم آمال فى المعسكر الغربى تؤيد آمالهم الاستعمارية فلما اتفق بيفن وسفورزا على مشروعها الذى كان أساسه تقسيم البلاد الليبية بين الدول الثلاث وقدم للأمم المتحدة فى الدورة الماضية تجاهل الطليان مساعيهم مع أمانة الجامعة والأحزاب الطرابلسية وأراد الله رغم المجهودات الكبيرة التى بذلتها بريطانيا وأمريكا وأنصار إيطاليا فى الأمم المتحدة من الدول اللاتينية وتخلى بعض الدول الاسلامية عن المقترحات العربية أن يفشل مشروع بيفن ـ سيفورزا فى الأمم المتحدة فلم ينل ثلثى الأصوات وكان أن هزم بصوت واحد..

ومنذ ذلك الوقت أخذت الحكومة الايطالية سواء بطرق مباشرة أو بطرق غير مباشرة فى الاتصال بالأمانة العامة ومحاولة التفاهم على أساس يرضى العرب والأحزاب الطرابلسية.

وبعد أخذ ورد طويل وبيانات وأحاديث فى صحف إيطاليا من الطرفين تقدمت الحكومة الايطالية إلى الأمانة العامة بمشروع تعلن فيه صراحة تخلى إيطاليا عن المطالبة بأى نوع من الوصاية أو السيطرة على ليبيا، اعتقاداً منها أن مثل هذا المشروع يمكن أن يرضى أهالى طرابلس وبالتالى يمكن أن يفتح الطريق أمام حسن تعاملهم مع الجالية الايطالية فى طرابلس فى المستقبل ومعيناً على تنمية العلاقات الايطالية الدولية والاقتصادية مع العالم العربى..

ومع هذا المشروع بعثت إلى إيطاليا تقول.. أنها تطمع فى حالة استقلال طرابلس التام الناجز أن تضع مع الحكومة الطرابلسية المستقلة اتفاقاً بشأن الطليان المقيمين فى طرابلس كما تطمع فى أن يكون بينها وبين طرابلس علاقات اقتصادية وثقافية ترضيها وكنت قد

أفهمت الحكومة الايطالية دائماً سواء عن طريق الأمانة العامة أو بواسطة الأحزاب الطرابلسية أن الطليان فى طرابلس سيكونون رعايا للدولة الطرابلسية متساوين فى الحقوق مع بقية أهالى البلاد...

وتلقيت فى نفس الوقت مذكرة رسمية من وزير إيطاليا المفوض فى القاهرة يشرح فيها رأى الحكومة الايطالية على وجه العموم ومطالبها التى ترجو عون الحكومات العربية فى الأمم المتحدة على تحقيقها. وفيها تقول إنها قد نفضت يدها تماماً عن كل محاولة لمعارضة استقلال طرابلس.. كما أنها نفضت يدها أيضاً عن أى طلب خاص لها فى منطقة برقة وأنها تركت الأمر للعرب يتفقون فيه كما يشاءون مع الحكومتين الانجليزية والفرنسية بالنسبة لبرقة وفزان.

أما بالنسبة لأرتيريا فإن الحكومة الايطالية تطالب باستقلالها أو وضعها تحت وصاية الأمم المتحدة دون أن تخصص أية دولة معينة لذلك. كما تطالب بالوصاية أيضاً على الصومال..

وهكذا أصبح موقف الحكومة الايطالية يتفق مع قرارات مجلس الجامعة بشأن ليبيا ولم يعد هناك ما يحول بين العرب والتعاون معها على الأسس الواردة فى هذه المذكرة بالنسبة لهذا القطر العربى الشقيق..

أما بالنسبة لأرتيريا والصومال فلم يسبق لمجلس الجامعة أن قرر فى شأنهما شيئاً وقد تركت اللجنة السياسية فى أحد اجتماعاتها السابقة الأمر لمندوبى الحكومات العربية فى الأمم المتحدة للتصرف بشأنهما حسب الظروف.

وقد وردت شكاوى عديدة ومذكرات من مسلمى ارتيريا الذين يكونون الأكثرية يطالبون فيها بوحدة بلادهم واستقلالها..

ويبدو أن بعض المسيحيين قد اتفقوا مع المسلمين فى أريتيريا بشأن مطالبهم.. أما بالنسبة للصومال فلا تزال رغبات الأهالى فيه غير واضحة.

وعلى كل حال فقد ذكرت للوزير الإيطالى عندما قام بتقديم مذكرته أن العرب تجنبوا دائماً أن يؤيدوا أى وصاية لأية دولة فى أى مكان لما قاسوه من أضرار الانتدابات السابقة.. وقلت له إنه يحسن بإيطاليا أن تتقدم بمشروع فيه ضمانات لمستقبل الصوماليين واستقلالهم حتى يمكن البحث فى حالة امتناع العرب عن التصويت ضد الوصاية..

هذا وقد علمت أن الحكومتين البريطانية والأمريكية تبحثان عن حل اساسه استقلال ليبيا كلها، وأن هذا الحل محاط بكثير من الغموض والاشتراطات التى تجعل مثل هذا الاستقلال احتمالاً فى مستقبل بعيد.

وكان رأيى أنه إلى أن تتضح وجهة نظر بريطانيا وأمريكا، فإن الموقف بالنسبة لطرابلس الغرب قد تطور على الأقل تطوراً محدوداً، وأنه قد أصبح ممكناً الحصول على قرار بتأييد استقلالها التام الناجز فى الأمم المتحدة أما أحزاب طرابلس وزعماؤها فكان رأيها يتفق على الاستقلال على أن تحدد العلاقة بين أطرافها الثلاثة فى نظام ما.. وإن كان قد ظهر بين هذه الأحزاب والزعماء خلاف شديد حول الوسائل وحول الأشخاص وهو ما حاولت الأمانة العامة دائماً علاجه لإقامة جبهة متحدة بين هذه الأحزاب وهؤلاء الزعماء مما ساعد فى المرة الماضية أثناء الاجتماع بالأمم المتحدة على إرسال وفد طرابلسى يرضى عنه الجميع وباتفاقهم جميعاً..

وستحاول الامانة العامة هذه المرة كذلك فإذا لم يتيسر فيحسن أن يكتفى بمندوبى الدول العربية للتعبير عن وجهة النظر المتفق عليها أمام الأمم المتحدة.

* * *

تغيرت الأوضاع التى قاسى منها العرب كثيراً على أثر الفشل الذريع لاتفاق (بيفن - سفورزا) وكان أن انقسمت جبهة الدول الغربية مما فتح الطريق أمامنا لكسب أصوات أمريكا اللاتينية وبعض الدول الكاثوليكية وغيرها فى الأمم المتحدة وأصبح واضحاً قبل اجتماع الجميعة العامة أن العرب قد ملكوا ناصية الموقف حول قضية ليبيا ولذلك ترددت طويلاً وخصوصاً بعد أن ظهرت الانقسامات فى صفوف الأحزاب الليبية فى إرسال وفود تمثل هذه الأحزاب من طرابلس وبرقة..

لقد أخذوا فجأة فى تبادل الاتهامات وقد تخوفت كثيراً من أن تؤدى الانقسامات فى صفوفهم إلى الأضرار بكل ما حققناه من مكاسب.

كان موعد مناقشة قضية ليبيا فى الأمم المتحدة يقترب بسرعة..

وكنت على ثقة من أن التفاهم الذى تم مع الحكومة الإيطالية يمكن أن يمهد السبيل لتفاهم أكبر مع ممثلى دول أمريكا الجنوبية والوسطى..

وكانت كتلة البلاد الشرقية تؤيدنا، كما كانت أصوات الدول الاسلامية تقف معنا..

ولم أكن أريد من الليبيين فى تلك الفترة بالذات إلا أن يملكوا أعصابهم وأن يمتنعوا عن الخلافات وأن يعتصموا بالاتحاد والصبر.

ولكن الأحزاب الطرابلسية المختلفة صممت على أن تبعث بعدة وفود إلى الأمم المتحدة.

وقد حاولت من جانبى منع هذه الوفود على اختلافها من السفر، ولكنى وجدت صعوبة واصراراً من جانبها على ايفاد ممثلين إلى الأمم المتحدة ولم يكن فى وسعى بعد أن باءت محاولاتى بالفشل إلا أن أقترح على مختلف الزعماء والأحزاب الطرابلسية أن يعمل مندوب مصر واسطة للتوفيق بين مختلف وفودها، وكلفت السيد عبد المنعم مصطفى الوزير المفوض فى وزارة الخارجية المصرية وكنت قد انتدبته لرئاسة الإدارة السياسية بالجامعة العربية بالسفر إلى الأمم المتحدة ليعمل مستشاراً لهذه الوفود واتفقت مع الزعماء الطرابلسيين على أن يعملوا تبعاً لنصائحه.

ولحسن الحظ عمل الممثلون الليبيون فى وفودهم المتعددة عن برقة وطرابلس بنصائحى فاجتنبوا ما من شأنه تفجير الخلافات فى ساحة الأمم المتحدة وكان أن تحقق لنا النصر فى مواجهة مؤامرات الدول الكبرى التى ظلت تعمل جاهدة على تغيير القدر الذى أراده الله وهو نصر الحق الذى بذل فيه أهل ليبيا دماءهم الذكية عشرات السنين، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يكافىء الأحياء من أبناء الشهداء واخوانهم بالنصر المبين عندما قررت الأمم المتحدة بأغلبية كبيرة حق ليبيا فى استقلالها ووحدتها وتقرير مصيرها وإقامة الحكم الذى تريده لنفسها بمحض ارادتها.

وكان القرار التاريخى الذى أصدرته الجمعية العامة الأمم المتحدة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ بشأن مصير ليبيا ويقول بالنص الواحد:

طبقاً للفقرة الثالثة من الملحق ١١ من معاهدة الصلح مع إيطاليا المبرمة فى عام ١٩٤٧ وهى التى وافقت الدول المختصة بمقتضاها على قبول توصيات الجمعية العمومية للأمم المتحدة بشأن التصرف فى المستعمرات الإيطالية السابقة واتخاذ التدابير لسريان مفعولها. وبعد الاطلاع على ما جاء فى تقرير لجنة التحقيق الرباعية وبعد سماع أقوال وآراء ممثلى الهيئات التى تمثل مختلف الأقسام الهامة فى الأقاليم المشار إليها ومراعاة لرغبات سكان تلك الأقاليم ولصالح الأمن والسلام ووجهات نظر الحكومات المختصة والنصوص الخاصة

بهذا الموضوع فى الميثاق ، توصى الجمعية العامة للأمم المتحدة بما يلى :

فيما يختص بليبيا :

١ ـ أن تصبح ليبيا التى تشمل برقة وطرابلس وفزان دولة مستقلة وذات سيادة .

٢ ـ أن يسرى هذا الاستقلال فى أقرب فرصة ، وعلى أن يكون ذلك فى تاريخ لا يتجاوز أول يناير ١٩٥٢ .

٣ ـ أن يوضع دستور ليبيا بما فيه شكل نظام الحكم والحكومة بواسطة ممثلى السكان فى برقة وطرابلس وفزان الذين يجتمعون ويتشاورون فى هيئة جميعة وطنية .

٤ ـ لأجل مساعدة أهالى ليبيا فى وضع الدستور وتأسيس حكومة مستقلة يوفد إلى ليبيا مندوب من قبل هيئة الأمم المتحدة تعينه الجمعية العامة وله مجلس يساعده ويرشده .

٥ ـ يقدم مندوب هيئة الأمم المتحدة بالتشاور مع المجلس تقريراً سنوياً وغيره من التقارير الأخرى التى يرى أهميتها إلى السكرتير العام . . ويضاف إلى هذه التقارير مذكرة أو وثيقة يرى مندوب هيئة الأمم أو أى عضو من أعضاء المجلس رفعها إلى هيئة الأمم .

٦ ـ يتكون المجلس من عشرة أعضاء هم :

(ا) ممثل تعينه حكومة كل من البلاد الآتية : مصر ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ باكستان ـ المملكة المتحدة ـ الولايات المتحدة .

(ب) ممثل واحد من كل من الأقسام الثلاثة فى ليبيا وممثل واحد من الأقليات فى ليبيا .

٧ ـ يعين مندوب هيئة الأمم المتحدة الأعضاء المذكورين فى الفقرة (ب) بعد التشاور مع السلطات الإدارية وممثلى الحكومات المذكورة فى الفقرة السادسة ومع الشخصيات البارزة وممثلى الأحزاب السياسية والهيئات فى المناطق المختصة .

٨ ـ يستشير المندوب أثناء تأدية وظائفه أعضاء مجلسه ويسترشد بهم وله أن يستنير بآراء أعضاء بذاتهم بالنسبة للمناطق أو الموضوعات المختلفة .

٩ ـ لمندوب هيئة الأمم المتحدة أن يقدم إلى الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى وللسكرتير العام اقتراحات عن التدابير التى يمكن أن تتخذها الأمم المتحدة

أثناء فترة الانتقال بخصوص المسائل الاقتصادية والاجتماعية فى ليبيا..

١٠ ـ تقوم الدول القائمة بالإدارة بالتعاون مع المندوب بما يلى :

(ا) تشرع حالاً فى اتخاذ الخطوات اللازمة لنقل الحكم إلى حكومة دستورية مستقلة .

(ب) أن تقوم بإدارة البلاد بغرض المساعدة فى إقامة وحدة ليبيا واستقلالها والتعاون فى تكوين الادارات الحكومية وتنسيق جهودها لهذه الغاية .

(ج) تقديم تقرير سنوى إلى الجميعة العمومية عن الخطوات التى اتخذت بشأن تنفيذ هذه التوصيات .

١١ ـ تقبل ليبيا بمجرد تكوينها كدولة مستقلة عضواً فى هيئة الأمم المتحدة طبقاً للمادة الرابعة من الميثاق .

وهكذا ضرب الشعب الليبى للعالم مثلاً فى المثابرة على المكاره والشهامة والاستبسال وقد كرمه الله باجتماع رأى الدول التى عاونته والتى صادقته على الاعتراف بحقه فى حريته وتقرير مصيره وفق مشيئته .

ومع صدور توصيات الجمعية العامة للأمم المتحدة وجهت نداء إلى العشب الليبى من محطة الاذاعة المصرية وكان يقول :

إخوانى أبناء ليبيا الأعزاء

منذ أيام صدر قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا بأجزائها الثلاثة برقة وطرابلس وفزان . بوصفها دولة ذات سيادة فى مدى لا يتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ فتواردت البرقيات على الأمانة العامة والرسائل والوفود من مختلف الهيئات والأحزاب والشخصيات من جميع أنحاء ليبيا ، ومن الليبيين فى الخارج للتهنئة والثناء على الجهود الذى قامت به الدول العربية وجامعتها فى سبيل تحقيق استقلال البلاد وطلبت منى أن أبلغ الشكر الفياض إلى الملوك العرب ورؤسائهم وحكوماتهم .

ويسرنى أن أنهى إليكم بأنى قمت مغتبطاً بهذه المهمة السارة .

والآن أشعر بأن من واجبى أن أزف إليكم يا أبناء الشعب الليبى المجاهد الشكر الجزيل والتهانى الخالصة على ما منحكم الله جزاء سعيكم وجهاد شهدائكم وأحيائكم الشاق الطويل ضد قوات هائلة غاشمة عشرات السنين .

وفى غمرة هذه الأفراح الشاملة أشعر بواجب آخر وهو أن أصارحكم بأن الجهاد لم ينته بعد وإن كان قد تغير لونه .

فاليوم يبدأ الجهاد الأكبر فى سبيل إقامة الدولة الليبية على دعائم متينة ثابتة الأركان وحكم وطنى غايته الأولى سعادة المجموع ورفاهيته حتى تنال الدولة الجديدة احترام شعوب العالم وتقديرها .

ومعرفتى الطويلة بوطنية الشعب الليبى الأبى تجعلنى واثقاً كل الثقة بأنه سوف يبرهن للعالم على جدارته بتحقيق ما يضعه فيه من آمال .

وفقكم الله وجعل منكم دولة عزيزة الجانب وسنداً للدول العربية جميعاً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الرحمن عزام

القاهرة فى :

١٢ صفر سنة ١٣٦٩

١٢ ديسمبر ١٩٤٩

الفصل التاسع والعشرون

أجبرونى على الاستقالة
ثم جاءوا يطلبون منى النصيحة !

إن الصراع من أجل تحقيق وحدة ليبيا واستقلالها كان مدبراً..

ولكن الصراع حول قضية فلسطين كان أشد مرارة..

ويحتمل كثيراً أن بعض الخلافات قد وقعت بينى وبين الملك السابق محمد إدريس السنوسى بعد أن تحقق للشعب الليبى بقرار الأمم المتحدة وحدته واستقلاله..

ولكن الخلافات التى تكشفت بين الزعماء العرب أثناء معركة نضالنا من أجل قضية فلسطين كانت تعبيراً عن حالة التفكك التى كانت تعانى منها أمتنا العربية فى تلك الأيام..

كانت غالبية بلادنا تئن وترزح تحت نير الاحتلال الأجنبى..

وكان من بين ملوك وزعماء العرب من لا هم لهم سوى إرضاء السادة البيض من المستعمرين الأجانب..

وكانت بعض العواصم العربية تدار من لندن، ومن باريس، ومن واشنطن..

ويحتمل كثيراً أن يكون الملك السابق محمد إدريس السنوسى قد تصور أننى أطمع فى التربع على عرش ليبيا.. ولكنى أقولها للحقيقة والتاريخ أننى لم أفكر فى يوم من الأيام فى أن أصبح ملكاً على ليبيا..

ولم يكن يهمنى الا أن أعمل على توحيد كلمة العرب حول شىء واحد هو الجامعة العربية التى ولدت على يدى، وكنت أول أمين عام لها منذ نشأتها..

وكان فى تصورى أن كلمة العرب يمكن أن تلتف حول جامعة الدول العربية..

كان هذا فكرى عندما اختارنى مجلس الجامعة العربية بالاجماع لكى أعمل أميناً عاماً لها..

ولذلك عملت على أن يكون جهاز أمانتها العامة جهازاً ثورياً . .

وكان أن تخيرت بنفسى أول مجموعة من موظفيها من بين المجاهدين الذين عرفوا بدورهم فى الكفاح ضد قوى الاستعمار . .

ولكن سرعان ما كانت المواجهة بين مصالح أمتنا العربية ، ومصالح هذه القوى الاستعمارية . .

ولا أريد أن أقول إن الجامعة العربية انتصرت فى قضية ليبيا وفشلت فى قضية فلسطين . .

* * *

كانت مهمتى صعبة للغاية ، ومع ذلك استطعت بالصبر وبالكياسة على مدى سبع سنوات كاملة فى عملى أميناً عاماً للجامعة العربية أن أتغلب على الكثير من الصعوبات التى كانت تهدد وحدة كلمة الدول العربية . .

وكانت لى طريقتى دائماً فى محاولة التقريب بين وجهات النظر . .

وكانت أخطر أخطر مشكلة تهدد قضايانا العربية هى مواقف البطولة الزائفة التى حاول بعض الزعماء العرب أن يفرضوها على الأمة العربية ، فقد كان بعضهم عندما يختلف رأيه مع الأغلبية ، يخرج من اجتماعات اللجنة السياسية ليفضى إلى الصحفيين بتفاصيل المناقشات السرية . .

وكثيراً ما كانت هذه التفاصيل تضر أكثر مما تفيد ، فقد كانت تكشف عما كنا نتفق عليه من خطط سياسية فى مواجهة المؤامرات الاستعمارية التى كانت تهدد مصالح أمتنا العربية . .

وأذكر عندما كان المرحوم محمود فهمى النقراشى رئيساً للحكومة المصرية ، أن أعدت الحكومة الأمريكية مشروعاً للوصاية على منطقة القدس . .

وقررت عرضه على الجمعية العمومية للأمم المتحدة كمبادرة من جانبها لحل قضية فلسطين . .

وأرادت الحكومة الأمريكية أن تتعرف على رأى الحكومات العربية بشأن هذا المشروع قبل أن تعلن عنه ، وكان أن طلب السفير الأمريكى فى تلك الأيام مستر الكسندر كيرك

مقابلة رئيس الحكومة المصرية ، ثم سلمه نص المشروع الأمريكى لتقوم مصر بعرضه على الجامعة العربية . .

وفى اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية دارت مناقشة المشروع لتوافق عليه الأردن والعراق ، أما بقية الدول العربية فقد رفضته بالاجماع . .

وتقرر أن تقوم الحكومة المصرية بإبلاغ السفير الأمريكى بقرار اللجنة السياسية . .

وكانت مفاجأة فى صباح اليوم التالى عندما خرجت إحدى الصحف المصرية وقد نشرت بعناوين ضخمة فى صفحتها الأولى نص المشروع الأمريكى . .

وكانت أزمة دبلوماسية عنيفة عندما قامت السفارة الأمريكية بالاحتجاج لدى وزارة الخارجية المصرية على تسرب نص المشروع الأمريكى إلى الصحف . .

وكان موقفاً غريباً عندما استهل نورى السعيد وكان رئيساً لوفد العراق الاجتماع التالى للجنة السياسية لمهاجمتى ، وهو يقول إن المشروع الأمريكى . . قد تسرب إلى الصحافة عن طريق أحد موظفى الأمانة العامة للجامعة . .

وابتسمت وأنا أقول أمام اللجنة السياسية :

ـ للأسف الشديد لم يتسرب المشروع الأمريكى من أحد موظفى الأمانة العامة ولكن أحد رؤساء الوفود من الحاضرين معنا فى هذا الاجتماع قد قام بتسليمه بنفسه إلى الصحفى الذى قام بنشره . . وقد طلب رئيس الوفد العربى إلى هذا الصحفى أن ينشر بعض تفاصيل المناقشات التى دارت فى اجتماع اللجنة السياسية ، ولكن الصحفى اكتفى بنشر نص المشروع ، ولم يشر بكلمة واحدة إلى هذه التفاصيل . .

كنت على يقين مما قلته ، وقد أثار اتهامى هزة عنيفة داخل قاعة اجتماعات اللجنة السياسية . .

ولم يتمالك المرحوم رياض الصلح نفسه ، وكان رئيساً لوفد لبنان ، فضرب مائدة الاجتماع بقبضة يده . . ثم ارتفع صوته وهو يقول :

ـ ان هذا الاتهام خطير . . ولذلك يجب ان نعرف من هو رئيس الوفد المتهم . .

قلت بسرعة : انه واحد منكم . .

وأخذ رؤساء الوفود يتلفتون بعضهم إلى بعض..

وفجأة استقرت كل العيون فى اتجاه المرحوم فوزى الملقى، وكان يرأس وفد الأردن..

ولم يتمالك الرجل نفسه، فأطرق برأسه، وهو يقول:

ـ مش أنا.. مش أنا..

وحاول نورى السعيد أن يدافع عن رئيس وفد الأردن، محاولا القاء الاتهام على المرحوم الأمير **سيف الاسلام عبد الله** رئيس وفد اليمن فى تلك الأيام..

قال إن أحد أعضاء الوفد العراقى قد شاهد الأمير اليمنى مع الصحفى الذى قام بنشر نص المشروع الأمريكى..

واضطر الأمير اليمنى لأن يقسم على مصحف كان فى جيبه انه لم يبح بكلمة واحدة عن المشروع الأمريكى الى هذا الصحفى أو لغيره من الصحفيين..

وكانت أزمة انتهت بأن طلب نورى السعيد شطب كل ما جاء من اتهامات لرئيس وفد الأردن فى محضر اجتماع اللجنة السياسية!

* * *

تصور نورى السعيد أن فى وسعه أن يجعل من الجامعة العربية أداة يحركها فى خدمة مصالح قوى الاستعمار الأجنبى فى بلادنا العربية، ولكننى استطعت أن أقف لكل تحركاته بالمرصاد..

كنت أريدها جامعة عربية لكل أمة العرب..

وكانت الأردن تساند نورى السعيد فى سياسته..

لم اهتم ما دامت بقية الدول العربية الاعضاء فى الجامعة العربية تؤمن معى بأهمية توحيد كلمة الدول العربية فى مواجهة مؤامرات الدول الاستعمارية..

وحاول نورى السعيد أكثر من مرة أن يحرجنى، وأن يدفعنى إلى الاستقالة، ولكننى لم أكن اهتم كثيرا لمناوراته..

وحدث عندما تأزم الموقف فى فلسطين على أثر اعلان الهدنة الأولى أثناء حرب عام

١٩٤٨ أن حاول نورى السعيد أن يلق بتبعة تطورات الموقف على الأمانة العامة..

وكنت أعرف بتفاصيل ما حدث عندما أمر جلوب باشا قواته بالانسحاب من اللد والرملة وتسليمها إلى الإسرائيليين..

كما كنت أعرف بتفاصيل قصة (ماكو أوامر) التى أخذ الجنود والضباط العراقيون يرددونها عندما طلب إلى القوات العراقية التى جاءت للاشتراك فى الحرب.. التحرك لفتح جبهة جديدة فى قلب الأراضى الفلسطينية..

كانت مدينتا تل أبيب وناتانيا على شاطىء البحر المتوسط على مرمى مدافع هذه القوات العراقية، ومع ذلك لم تصدر لها أية تعليمات بالتحرك..

وفى اجتماع اللجنة السياسية الذى هاجمنى فيه نورى السعيد بعنف، لم أتمالك نفسى من الغضب فاتهمته بالتآمر على قضية فلسطين، وتنفيذ مخططات الانجليز والصهيونية العالمية..

وحاول نورى السعيد أن يدافع عن نفسه، ولكننى صرخت فى وجهه وأنا قول له:

- اسكت يا نورى.. والا خرجت من هنا لأ علن أمام الجماهير العربية حقيقة مؤامرتك على شعب فلسطين..

وسكت نورى السعيد ولم يتكلم..

* * *

ومرت الأيام لينتقم نورى السعيد لنفسه بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢..

لقد بعث إلى القاهرة يقول.. إن عبد الرحمن عزام يقف حجر عثرة فى سبيل التفاهم بين القاهرة وبغداد..

وارسلت القاهرة إلى نورى السعيد تسأله عما يعنى..

وجاء الرد من بغداد:

- اخرجوا عبد الرحمن عزام من الجامعة العربية..

وللأسف الشديد تصور أعضاء مجلس الثورة فى القاهرة أننى أقف عقبة فى سبيل التفاهم بين القاهرة وبغداد..

وكنت قد عرفت بتفاصيل رسالة نورى السعيد من الصديق أحمد أبو الفتح عندما كان رئيسا لتحرير جريدة المصرى..

أرسل إلى أحمد فهمى ومعه زميله الصحفى على جمال الذين ليقترحا على الاستقالة من منصبى كأمين للجامعة العربية..

وكانت رسالة الصديق أحمد أبو الفتح كما نقلت إلى حرفيا:

ـ إن أعضاء مجلس قيادة الثورة مجموعة من الضباط الشبان ممن يجهلون جهادك الطويل من أجل تحقيق الوحدة العربية، ونصيحتى لك أن تبادر بالاستقالة من منصب الأمين العام للجامعة العربية خشية أن يسىء أحدهم التصرف معك..

كانت نصيحة مخلصة من صديق أحترمه.. وكنت أعرف صلته الوطيدة فى تلك الأيام بغالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة..

ولم يكن فى وسعى الا أن أفكر فى هذه الرسالة مليا..

وفى نفس اليوم، اتصل بى المرحوم رشاد مهنا، وكان عضوا فى مجلس قيادة الثورة ليقول لى: ان مجلس الثورة ظل لمدة ست ساعات كاملة يناقش علاقات مصر مع مختلف الدول العربية، وانه يرى ضرورة استقالتى من منصبى كأمين للجامعة العربية..

ولم أتمالك نفسى من الدهشة عندما سمعت رسالة رشاد مهنا ولذلك بادرت أقول له:

ـ ولكنى لست موظفا عند مصر حتى يطلب إلى مجلس قيادة الثورة باسم مصر الاستقالة، وعليك أن تعرف ان مجلس الجامعة العربية قد اختارنى أمينا عاما بالاجماع وانى فى هذا المنصب أعمل لحساب كل الدول العربية الأعضاء فى الجامعة

وكان رده:

ـ ولكنك مصرى أولا.. وأنا مكلف بابلاغك قرار مجلس الثورة..

قلت له:

ـ إذا ما قررت الاستقالة، فإننى سأبعث بها إلى مجلس الجامعة!

* * *

وفى مساء نفس اليوم اتصل بى المرحوم صلاح سالم وكان هو الآخر عضوا فى مجلس قيادة الثورة، وطلب زيارتى فى منزلى بالعجوزة.

قال لى.. إنه يحمل إلى رسالة هامة من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة..

قلت له وأنا أرحب به: أنا أعرف الرسالة..

وسكت صلاح سالم ولم يقل شيئا..

جاء الرجل ليطلب إلى هو الآخر الاستقالة من منصبى كأمين للجامعة العربية..

كان يتكلم بعصبية، وهو ينقل إلى نفس رسالة زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة..

قال نفس الكلام الذى سمعته فى التليفون من رشاد مهنا..

ولم تعجبنى الطريقة التى كان ينقل إلى بها رسالة زملائه.. كان يتعمد ان يظهر أمامى وكأنه يصدر إلى أمرا بالاستقالة، وأن على أن ابادر بتنفيذ تعليماته فورا..

وتمالكت نفسى وأنا أقول له فى هدوء:

- سأفكر فى الموضوع..

وقفز صلاح سالم فى مكانه وهو يصيح:

- احنا قلنا تستقيل.. يعنى تستقيل!

وابتسمت، ثم أخذت أهدىء من روعه، وأنا أرحب به ضيفا فى بيتى..

وكانت مسرحية سخيفة.. عندما أخرج الرجل مسدسه من جرابه ثم وضعه فوق الطاولة التى كانت أمامه..

وابتسمت وأنا أقول له:

- ابعد هذا المسدس.. انه لن يرهبنى.. ويجب ان تعرف اننى فى منصب الأمين العام للجامعة العربية لست موظفا عند مصر وحدها، ولكننى أعمل لحساب جميع الدول العربية الاعضاء فى الجامعة العربية.. وفى حالة موافقتى على الاستقالة فأننى سأتقدم بها إلى مجلس الجامعة العربية.. تماما كما قلت لزميله رشاد مهنا فى التليفون..

ولم يعجب كلامى المرحوم صلاح سالم، فأخذ يعبث بأصابعه فى زناد المسدس الذى كان يضعه أمامه على الطاولة، ثم التفت ناحيتى، وهو يقول بنفس العجرفة والهنجهية:

كان يضعه أمامه على الطاولة ، ثم التفت ناحيتى ، وهو يقول بنفس العجرفة والعنجهية :

ـ لن اغادر المكان حتى تكتب استقالتك . .

قلت له : انت زى ابنى . . وأنت هنا فى بيتك على الرحب والسعة . .

وأدرك صلاح سالم أن تهديدى بالمسدس لن يفيد فأخذ القلق براوده . . وتزايد قلقه عندما قلت له :

ـ هل تظن أن رجلا رأى الموت بعينيه عدة مرات عندما خرج مجاهدا فى سبيل عروبته وبلده يمكن ان يخاف من مثل هذا المسدس . .

وابتسم صلاح سالم لأول مرة وهو يقول لى :

ـ يا باشا . . أننا نعرف تاريخك الوطنى الطويل . . ولكنه قرار مجلس قيادة الثورة .

قلت له :

ـ اطمئن . . سأحقق لك غرضك ، ولكن على طريقتى وبأسلوبى الخاص . .

وهنا فقط هدأت أعصابه ثم استأذن فى ان يتكلم فى التليفون . .

وانتهت المسرحية السخيفة مع هذا الحديث التليفونى . .

لقد تكلم مع أحدهم لمدة دقائق ثم عاد ليستأذننى فى الانصراف . .

وانتظرت حتى غادر صلاح سالم بيتى ثم بادرت بانتزاع ورقة بيضاء من كراسة أحد أولادى ، وكانت على طاولة إلى جوارى فى حجرة الصالون ثم كتبت عليها استقالتى كانت من عدة أسطر ، وكانت موجهة إلى مجلس الجامعة العربية ، وليست إلى مجلس قيادة الثورة . .

وأذكر أننى قمت بالاتصال بالصديق أحمد أبو الفتح وطلبت اليه ان يبعث إلى بمن يتسلم استقالتى . .

وجاءنى أحمد فهمى وعلى جمال الدين مرة أخرى لأمد اليهما يدى بالاستقالة وأنا أقول لهما :

ـ هذه هى الاسنقالة حتى ترتاح أعصابهم . . ونصيحتى ان ترسلوها عن طريق وزارة

الخارجية المصرية إلى مجلس الجامعة العربية للموافقة عليها حتى تصبح الاستقالة قانونية . .

وفى صباح اليوم التالى اتصل بى صلاح سالم فى التليفون بعد أن وصلت استقالتى إلى مجلس قيادة الثورة ليقول لى :

ـ ما تزعلش ياباشا . . ده كان اجراء ضرورى . .

وكان ردى عليه مرة أخرى :

ـ أنتم زى أولادى !

* * *

أرسلت استقالتى إلى الصديق أحمد أبو الفتح . . وكان نصها بالحرف الواحد :

حضرة رئيس مجلس جامعة الدول العربية

منذ انتخبت لأمانة الجامعة العربية باجماع دولها لأول مرة فى مارس سنة ١٩٤٥ جدد انتخابى منذ ذلك الحين بالاجماع ثلاث مرات ، وقد حدثت فى هذه السنين العصيبة أحداث جسام كافحنا فيها أعداء كبارا من المستعمرين والصهيونيين ، وكلما ثقل على حمل الامانة وأردت الخلاص من المسئولية الملقاة على ، منعنى صوت ضميرى من الهرب مما أنا فيه . . والآن وقد شعرت بأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخلينى من حمل هذه الامانة فاننى أرجوكم أن تعرضوا على المجلس استقالتى من منصبى مع تصميمى على عدم العدول عنها . .

وانى متأكد ان الله العلى القدير الذى رعى هذه الجامعة فى أحلك الأيام وأشد العواصف سيرعاها دائما ، وأن امتنا قد أخذت طريقها إلى الحرية الكاملة والعزة التى يريدها الله لها والمساواة التى هى لب ديننا ، وأن الأمور ستسير فى مصر العزيزة ، وفى الأقطار العربية نحو الوحدة والتعاون بعونه تعالى .

وتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام . .

عبد الرحمن عزام

تحريرا فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ . .

كانت استقالة مختصرة ومركزة ، وقد ضمنتها كل ما كنت أريد أن اعبر به عما كان يجيش فى نفسى من مشاعر فى تلك اللحظة . .

واذكر انه ما كادت تصل استقالتى إلى الصديق أحمد أبو الفتح فى مكتبه بجريدة المصرى ، حتى قام بارسالها إلى مجلس قيادة الثورة المصرية . .

وفى نفس الليلة اتصل بى فى التليفون ليهنئنى على موقفى ، وهو يقول لى :

ـ حسنا فعلت يا « باشا » . . وفى اعتقادى انك الآن قد ارحت أعصابى واسترحت . .

ثم طلب إلى أمليه فى التليفون تصريحا لنشره فى جريدة المصرى تعليقا على استقالتى . .

وانتهزت الفرصة لأعبر عن حقيقة مشاعرى عندما كتبت الاستقالة . .

وكان أن أمليت عليه تصريحا نشرته جريدة المصرى فى صباح اليوم التالى . . وفيه قلت بالحرف الواحد :

ـ انى أتمنى لبلادى وللعروبة جمعاء نهضة مباركة وعهدا مجيدا ، ولقد كان نجاح حركة الجيش المباركة طفرة كبرى نحو المستقبل الباهر الذى يرجوه كل مصرى لبلاده . وسأكون دائما تحت تصرف بلادى أعاونها ما أستطيع وأجعل ملكا لها خبرتى الطويلة فى الشئون العربية والدولية . .

وإلى جانب استقالتى نشرت جريدة المصرى خبرا صغيرا يقول ان التفكير يدور حول ترشيح الدكتور محمد صلاح الدين أو السيد عبد الخالق حسونة لمنصب الأمين العام فى مكانى . .

وابتسمت عندما قرأت هذا الخبر ، والتفت ناحية عصام ابنى ، وكان يجلس إلى جوارى ، وقلت له :

ـ عبد الخالق حسونة يحتمل . . أما الدكتور محمد صلاح الدين فلا أظن أنهم يرشحونه !

وصدق حدسى بعد عدة أيام عندما نشرت جريدة المصرى خبرا آخر تقول فيه . . إنها عرفت من **مصادر وثيقة الصلة بمجلس قيادة الثورة** أن ترشيح الدكتور محمد صلاح الدين ليس واردا ، وأن أحدا من المسئولين فى مجلس قيادة الثورة لم يتطرق تفكيره إلى ترشيحه . .

وكما فهمت بعد ذلك.. أثار خبر ترشيح الدكتور محمد صلاح الدين أزمة عنيفة بين مجلس قيادة الثورة وجريدة المصرى..

واضطر الصديق أحمد أبو الفتح إلى أن ينتشر هذا التكذيب على غير رغبته..!

* * *

أثارت استقالتى عاصفة عنيفة عند عرضها على مجلس الجامعة العربية..

وقف المرحوم الشيخ يوسف ياسين رئيس وفد المملكة العربية السعودية فى الاجتماع موقفا صلبا معلنا معارضته حكومته فى قبول الاستقالة..

وكان مما قاله بالحرف الواحد:

- فى رأيى.. وفى رأى حكومتى أن قبول استقالة عبد الرحمن عزام من منصب الأمين العام للجامعة العربية يعتبر بمثابة لطمة قاسية لكيان الجامعة العربية كله..

وعرف المرحوم الملك فيصل وكان وزير الخارجية السعودية بما حدث فقام بنفسه باتصالات واسعة النطاق للحيلولة دون موافقة مجلس الجامعة على هذه الاستقالة.

وكان ان تقدم الشيخ يوسف ياسين بإقتراح باسم حكومته بطلب تأجيل البت فى هذه الاستقالة لمدة أسبوعين حتى يتسنى إقناعى بسحبها..

ولما عرفت بهذا الإقتراح إتصلت بنفسى بالشيخ ياسين وطلبت اليه سحب الإقتراح..

قلت له.. إننى قد اتخذت قرارى ولا يمكن أن أرجع فيه..

وعرف المرحوم الملك فيصل بذلك، فقام بنفسه بالاتصال بى بالتليفون من جدة..

قال لى.. ان انسحابى من الجامعة العربية يهددها بالخطر والإنهيار..

وشرحت موقفى للمرحوم الملك فيصل وجهة نظرى وأنا أوكد له إصرارى على موقفى..

* * *

لم يقتنع المرحوم الملك فيصل، وبادر بالحضور بنفسه إلى القاهرة على أول طائرة..

وفى القاهرة قام بزيارتى فى بيتى عدة مرات محاولا إقناعى بالعدول عن موقفى..

كما قام باتصالات مكثفة مع اللواء محمد نجيب وزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة . .

وكما فهمت وقعت أزمة أثناء هذه الاتصالات ، استقل المرحوم الملك فيصل على أثرها سيارته ، ثم سافر إلى الإسكندرية . .

وعرفت بما حدث ، فبادرت بالاتصال بالمرحوم الملك فيصل فى التليفون . .

كان متأثرا للغاية ، وقد طلب إليه أن بصرف النظر عن هذا الموضوع .

قلت له :

ـ لا أريد أن تكون استقالتى سببا فى تعكير صفو العلاقات الطيبة بين مصر والسعودية . .

وعرف اللواء محمد نجيب بما حدث . فاستقل طائرة خاصة حملته إلى الإسكندرية وقام بالاعتذار للمرحوم الملك فيصل . .

وهدأت الأزمة . .

ومع عرض إستقالتى على مجلس الجامعة العربية حاول نجيب الراوى سفير العراق فى القاهرة فى تلك الأيام ، وكان يرأس وفد بلاده فى اجتماعات مجلس الجامعة العربية ان يظهر بدور الحمل الوديع حتى يبرىء ذمة بلاده من دورها وراء هذه الاستقالة التى كتبتها تحت تهديد السلاح ، وكان أن تقدم باقتراح إلى مجلس الجامعة العربية يطلب فيه صرف مكافأة مالية لى تقديرا كما قال للخدمات التى أديتها للجامعة العربية والعروبة . .

ووافق مجلس الجامعة على قبول استقالتى مع صرف مرتب شهر واحد لى كمكافأة بناء على اقتراح مندوب العراق .

وكانت هذه المكافأة على ما أذكر عبارة عن ٢٥٠٠ جنيه . .

وقد بادرت بمجرد أن تلقيت من الامانة العامة للجامعة العربية شيكا قمت بتحويل هذا الشيك إلى اللجنة العليا لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين . . !

* * *

لم يتمالك المرحوم الشيخ يوسف ياسين نفسه عندما تمت موافقة مجلس الجامعة العربية

على قبول استقالتى، وكان أن قال أمام أعضاء المجلس:

انه ليوم حزين فى تاريخ أمة العرب الذى تمت فيه الموافقة على هذه الاستقالة..

وكرر الرجل الصديق رحمه الله نفس هذا الكلام فى تصريح أدلى به الى الصحفيين عند انصرافه من أجتماع مجلس الجامعة العربية..

أراد أن يوضح رأى حكومته فى هذه الاستقالة.. الا ان تصريح الرجل لم ينشر بتعليمات من الرقابة على الصحف!

والشيء الذى لايعرفه الكثيرون.. أن نجيب الراوى مندوب العراق الذى كان متحمسا لقرار مجلس الجامعة العربية بقبول استقالتى، لم يكن يحمل أية تعليمات من حكومته باقتراح صرف تلك المكافأة التى قرر مجلس الجامعة دفعها لى بمناسبة استقالتى..
وأنه اضطر للتقدم بهذا الاقتراح تحت ضغط أحد الصحفيين الشبان من تلاميذى..

وكان هذا الصحفى الشاب ـ كما عرفت فيما بعد ـ قد ذهب الى بيت السفير العراقى الملحق بمبنى السفارة العراقية بالزمالك، وهو يحمل معه نسخة من المحضر السرى لاجتماع مجلس الجامعة العربية الذى اتهمت فيه نورى السعيد بخيانة قضية فلسطين..

وقال الصحفى الشاب للسفير العراقى.. انه سيقوم بنشر محضر هذا الاجتماع فى احدى الصحف أو المجلات خارج مصر ازاء اصرار العراق على استقالة عبد الرحمن عزام..

ورد السفير العراقى بخبث:
ـ ولكنها مصر التى طلبت الى عزام الاستقالة!

وكانت مناقشة حادة.. انتهت بالاتفاق بين الصحفى الشاب والسفير العراقى على أن يتم خروجى من الجامعة العربية معززا مكرما..

وان تطلب العراق صرف مكافأة لى تقديرا لخدماتى للجامعة العربية والعروبة وكان ان تقدم نجيب الراوى باقتراحه دون أن يستأذن حكومته فى بغداد وأنا نفسى لم أعرف بهذه القصة، الا منذ سنوات قليلة وبعد استقالتى من الجامعة العربية..

وقد تصرف الصحفى الشاب بدافع من مشاعره نحوى، ولو كنت اعرف بما اتجهت اليه نيته لمنعته..!

ومرت عدة أشهر قبل أن تنكشف المناورة التى لعبها نورى السعيد لإبعادى عن الامانة العامة للجامعة العربية . .

وكنت قد اعتكفت بعد استقالتى فى الشقة التى اعيش فيها وتطل على النيل بالعجوزة . .

كنت أريد أن اقضى فترة بعيدا عن مشاكل السياسة العربية . .

وعرضت على اللمملكة العربية السعودية فى تلك الأيام أن اعمل وسيطا فى النزاع حول البريمى . .

ولكن فجأة . . ادركت مصر الخطأ الذى وقعت فيه عندما طلبت الى الاستقالة من منصب الامين العام للجامعة العربية . .

وكان أن قرر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر زيارتى فى بيتى . . ومهد محمد حسنين هيكل بنفسه لهذه الزيارة . .

اتصل بى بواسطة احد زملائى الصحفيين ليعرض على رغبته فى زيارتى . .

وفى بادىء الأمر لم أكن مرحبا بهذه الزيارة ، فقد كان هيكل يهاجمنى فى الكثير من مقالاته ، وكان هو الذى اطلق على اسم . . ابو الكلام عزام . .

ولكنى عدت فرحبت بزيارته لى . .

وكانت مفاجأة ، عندما لم يحضر هيكل وحده . .

لقد جاء بصحبة الرئيس السابق جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين . . وأذكر أن الساعة كانت العاشرة مساء فى أحد الأيام فى أواخر سنة ١٩٥٤ . .

ولا أخفى ان هذه الزيارة اثارت ارتباكى وخاصة عندما شاهدت الرئيس جمال عبد الناصر، وهو يدخل الى بيتى بقامته الفارعة الطول . .

ولكن سرعان ما تمالكت نفسى . . فاخذت أرحب بضيوفى . . وجلس جمال عبد الناصر على أحد مقاعد الصالون فى بيتى وهو يقول :

كنا مارين من هنا . . وقلنا نطلع نتعشى معاك . .

وأسرعت الى أهل بيتي أسالهم عما اذا كان عندهم عشاء للضيوف ، فلما لاحظت الارتباك فى عيونهم طلبت إلى أبنى عمر تدبير ما يحتاج اليه العشاء من عند الحاتى . .

وتناول الضيوف العشاء معى ، ثم استمرت السهرة حتى الساعة الرابعة صباحا . .

وكان الحديث طويلا ، كما كانت هناك مناقشات استطعت من خلالها أن ادرك ما كان يهدف اليه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . .

كانت زيارة للاستشارة . . وكانت كما قال لى بنفسه بالحرف الواحد :
ـ احنا ضباط . . ولما قمنا بالثورة كانت خبرتنا بالشئون العربية محدودة . .

وفى تلك الليلة ظللت أتكلم على مدى أكثر من ست ساعات . .
وكان الرئيس جمال عبد الناصر يسأل ، وانا أجيب . .
كان يريد ان يعرف كل شىء عن خفايا السياسة العربية . .
وكنت واضحا وصريحا فى آرائى . .
ولا أظننى قد بخلت على ضيوفى بأية نصيحة . .
وعندما تأهب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر للانصراف ، التفت هيكل ناحيتى ، وهو يقول . . :
ـ أرجو ياباشا أن تقبل إعتذارى إن كنت قد تحاملت عليك فيما كتبته عنك . .
وابتسمت ولم أقل شيئا . .
وتكررت بعد ذلك زيارات الرئيس جمال عبد الناصر لى فى بيتى . .
وفى كل مرة كان يقضى معى الساعات وهو يسأل . . وأنا أتكلم . .

وأذكر أنه قاطعنى مرة ليقول لى :

ـ أنا عاوزك تعود إلى مكانك فى الجامعة العربية . .

قلت له :

ـ آسف . . لا أستطيع الآن . .

قال عبد الناصر :

ـ بكرة تروح مكتبك فى الجامعة ، ومصر ستقوم بكل الاتصالات لإعادة إنتخابك أمينا للجامعة . .

قلت له :

ـ أفضل أن ابق بعيدا عن الجامعة . والبركة فيكم . . وسأبق دائما على استعداد لتقديم أية مشورة اليكم . .

وحاول هيكل اقناعى بالموافقة على عودتى الى الجامعة . .

ولكننى اعتذرت ، وفضلت أن ابق فى الظل بعيدا عن المتاعب !

* * *

لم ابخل على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بنصيحة واحدة . .

وكنت على إستعداد دائما أن أضع نفسى وخبرتى فى خدمة بلادى ، والوحدة العربية التى أومن بها . .

وفى تصورى . . أن الرئيس الراحل قد تأثر من آرائى . .

ولا أريد أن أقول إننى إستطعت بالتركيز فى أحاديثى معه عن دور مصر القيادى فى بلادنا العربية ، أن أغرس الإيمان بكل ما أطلقة من شعارات حول القومية العربية . . !

وكنت قد سافرت فى تلك الايام إلى المملكة العربية السعودية لمباشرة مهمتى كمستشار للملك سعود . ثم الملك فيصل فى النزاع حول واحة البريمى . .

واستدعت اتصالاتى أن أطير إلى نيويورك حيث أمضيت عدة أشهر فى إجتماعات متواصلة حول هذا النزاع . .

ولم تتوقف إتصالاتى مع الرئيس الراحل أثناء فترة إقامتى فى نيويورك ، فقد كلفنى بأكثر من مهمة عن طريق سفير مصر فى واشنطن . .

ولم أتردد فى كتابة التقارير إليه . .

وعندما تدهورت العلاقات بين مصر والولايات المتحدة كرد فصل لتصريحات فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية فى تلك الأيام ، لم أتردد فى القيام بإتصالات مكثفة مع الأمريكيين . .

وكتبت إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تقريرا على جانب كبير من الأهمية وقد

أرسلته إليه عن طريق سفارة مصر فى واشنطن . .

وفى التقرير قدمت إليه نصيحة مخلصة بألا يغلق كل الأبواب أمام التفاهم بينه وبين الولايات المتحدة . .

قلت له . . إننى عرفت من إتصالاتى مع كبار المسئولين الأمريكيين ، ومن رجال الكونجرس الأمريكى ، أن الحكومة الأمريكية على إستعداد لإعادة النظر فى موقفها . وأننى على إستعداد للمساهمة بإتصالاتى لتصفية الموقف بين مصر والولايات المتحدة . .

ولكن عبد الناصر كان قد أتخذ قراره ، وكان أن بادر بحملته المركزة على الولايات المتحدة . .

وبالتالى فشلت كل محاولات تصفية الموقف بين القاهرة وواشنطن !

* * *

بقيت العلاقات طيبة بينى وبين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، ولم تتوقف الاتصالات بينى وبينه . .

وعندما عدت إلى المملكة العربية السعودية بعد أن أتممت مهمتى فى الولايات المتحدة ، كانت من عادة السيد عبد الجواد طبارة ، وكان سفيرا لمصر فى جدة ، أن يتردد على البيت الذى كنت أعيش فيه بين الآونة والأخرى لينقل الى رسائل شفوية من عبد الناصر . .

والسفير عبد الجواد طبارة كان ضابطا فى الجيش المصرى ، وهو الذى اسندت إليه قيادة قوات المتطوعين بعد استشهاد المرحوم البطل أحمد عبد العزيز أثناء حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ . .

ولكن فجأة . . غضب عبد الناصر . .

وأنا أعرف السبب . . فقد جاءنى السفير المصرى فى أحد الأيام ينقل إلى رغبة عبد الناصر فى أن أرافقه فى رحلته إلى اندونيسيا للاشتراك فى مؤتمر باندونج . .

ولم أتمالك نفسى من الدهشة ، ولذلك بادرت أعتذر وأنا أقول له :

ـ أنا أعمل الآن مستشارا للملك سعود . . ولا أظن اننى أستطيع المشاركة فى مؤتمر باندونج . .

قال لى :

ـ إن الرئيس عبد الناصر يريدك أن تكون مستشارا إلى جانبه . . ولا يهم أن تكون فى الوفد الرسمى . .

قلت له :

ـ لا أظن أننى أستطيع ذلك . .

كان إعتذارى صريحا وواضحا . .

وقد حاول السفير المصرى إقناعى بالسفر إلى إندونيسيا مع الرئيس الراحل ، ولكننى لم أوافق . .

وكما فهمت كان إعتذارى هو السبب فى غضب عبد الناصر فقد تبادر الى خاطره أننى أرفض أن استمر فى التعاون معه . .

وكانت بداية المتاعب بينى وبينه . .

والحقيقة التى لا يعرفها كثيرون هى اننى كنت قد لعبت دورا هاما فى أثناء عملى أمينا عاما للجامعة العربية فى مساندة حركة شعب أندونيسيا فى معركته ضد الهولنديين لتحقيق إستقلال بلاده . .

وكنت أعرف أن لى منزلة خاصة فى نفوس شعب أندونيسيا . .

وفى نفس الوقت كان المرحوم الرئيس أحمد سوكارنو قد أرسل لى أكثر من دعوة لزيارة بلاده ومع واحدة من هذه الدعوات التى حملها إلى أحد السياسيين الاندونيسيين قال لى صراحة . . أن شعب أندونيسيا يسعده كثيرا أن أقوم بزيارة بلاده حتى يتسنى له الاحتفال بى أحد أبطال معركة كفاحه من أجل الاستقلال ، وليعبر لى عن إمتنانه للعرض الذى قمت به عندما كنت أمينا عاما للجامعة العربية فى مساندة حركته الوطنية ضد الاستعمار الهولندى . .

ولذلك خشيت فى حالة مرافقتى للرئيس الراحل عبد الناصر فى رحلته إلى باندونج أن تضيع فى زحمة إحتفالات الشعب الاندونيسى بى لتكريمى ، الحفاوة به . .

وبمعنى آخر.. أن أسرق منه الكاميرا..

ولم يكن فى وسعى الا أن أعتذر عن عدم السفر إلى أندونيسيا..!

* * *

غضب جمال عبد الناصر..

ولم أنتظر.. وقررت البقاء فى المملكة العربية السعودية حيث عملت مستشارا للملك سعود ثم للملك فيصل..

واضطررت أن أعيش بعيدا عن بلدى أكثر من ١٥ سنة..

وكانت أول مرة أعود فيها إلى مصر بعد ثورة ١٥ مايو.. ووفاة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر..

رحمه الله.. ورحمنا معه!

* * *

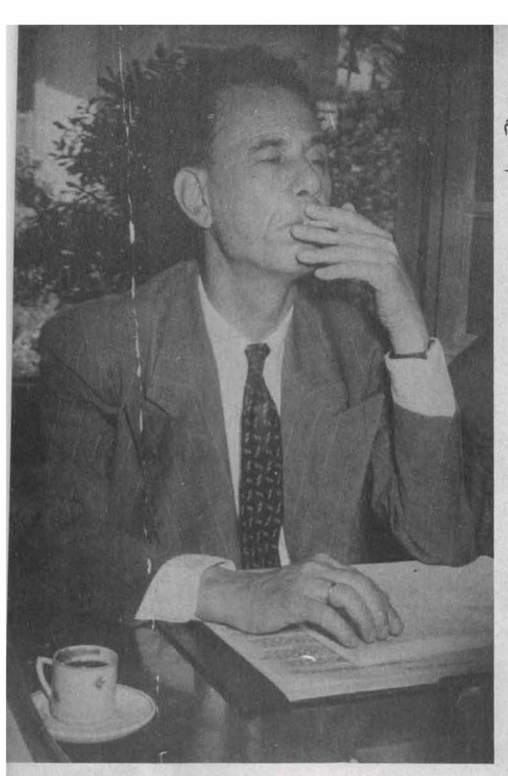
(انتهى الجزء الأول من المذكرات السياسية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام)

فهرس

رقم الإبداع ٣٢٩٢ / ١٩٧٧
الترقيم الدولى ٥ - ٢٨ - ٧٠٤٩ - ٩٧٧ ISBN



حياة عزام في صور



مجاهد في سبيل الله والعروبة:

■ عاش المرحوم عبد الرحمن عزام مجاهداً في سبيل الله والعروبة، وكان إيمانه قوياً بالقومية العربية، وكانت له فلسفته وطريقته في حل المشاكل العربية.. وكان من رأيه العمل على وحدة الشعب العربي أولاً.. وبعدها يمكن أن تتحقق وحدة الأرض والدول..

▲ فى سنة ١٩٤٦ بعد تعيينه أمينا عاما للجامعة العربية :

■ كان المرحوم مصطفى النحاس باشا يرشح الدكتور محمد صلاح الدين ليكون أول أمين عام للجامعة العربية بعد إنشائها ، ولكن وزارة النحاس استقالت ليتولى المرحوم أحمد ماهر « باشا » رئاسة الوزارة ، وكان هو الذى رشحه ليكون أول أمين عام للجامعة .. والصورة فى سنة ١٩٤٦ فى مكتبه بالأمانة العامة للجامعة فى قصر البستان الذى كان مقراً لها قبل انتقالها إلى مبناها الحالى ..



■ إنه فلاح ، وأبوه أيضا فلاح من قرية الشوبك فى غرب النيل بمحافظة الجيزة ، وكان يردد دائما : إنها الأرض الطيبة التى علمتنى الحياة ، ومنها تلقيت أول درس فى الوطنية !



كانت هوايتــه ركـوب الخيــل :

■ تعلم ركوب الخيل فى طفولته بقرية الشوبك الغربى ، وعندما ذهب إلى ليبيا فى شبابه ليقاتل ضد الاستعماريين الإنجليزى والإيطالى ، كان يركب الخيل ، وبعد أن عاد إلى مصر كان يقضى أوقات فراغه فى ممارسة هواية ركوب الخيل . .

■ رشحه سعد زغلول فى سنة ١٩٢٤ فى الانتخابات لعضوية مجلس النواب وفاز عبد الرحمن عزام ليصبح أصغر نائب فى البرلمان ، وعندما سافر سعد زغلول إلى لندن اصطحبه معه ليعمل سكرتيرا لوفد المفاوضات مع الإنجليز . .

الجيش المرابط لتدريب الشعب عسكريا :

◀

■ كان هو صاحب فكرة إنشاء الجيش المرابط عندما كان وزيرا فى حكومة على ماهر، وكان مشروعه يقوم على استغلال معسكرات هذا الجيش فى محو الأمية ، وأهم ما فى ذلك استغلال ظروف الحرب العالمية الثانية فى تسليح الشعب المصرى بأسلحة بريطانية . .

■ صورة تاريخية لأول لقاء بين المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود وفاروق ، وكان المرحوم عبد الرحمن عزام هو الذى عمل ترتيبات ذلك اللقاء لإزالة الجفوة التى كانت تسيطر على العلاقات بين القاهرة والرياض فى تلك الأيام . .



مع العاهل السعودى المرحوم الملك عبد العزيز أثناء زيارته لمصر..

■ لعب المرحوم عبد الرحمن عزام دورا كبيرا فى إزالة الجفوة التى كانت تسيطر على العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية ، وفى إقناع العاهل السعودى الكبير بالموافقة على انضمام بلاده إلى الجامعة العربية .. وهذه الصورة التاريخية للعاهل السعودى الكبير المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود أثناء زيارته لمصر. ويظهر وراءه المرحوم عبد الرحمن عزام..



■ عندما كان أميناً عاماً للجامعة العربية كان يكتب المذكرات السياسية ويراجعها بنفسه . .



■ فى مكتبه بمبنى الأمانة العامة القديم فى شارع البستان يراجع نصوص ميثاق الجامعة العربية الذى اشترك فى صياغة كلماته باعتباره خطوة على طريق الوحدة العربية !.



■ عندما ذهب متطوعا ليحارب فى الصحراء لم يكن يأكل إلا التمر، وأصبحت هذه عادته عندما كان يذهب للاستجمام فى مزرعته فى أبو قير أن يتسلق النخيل ليجمع البلح بنفسه !.

فى يوم توقيع
برتوكول الاسكندرية :

■ المرحوم الملك الراحل فيصل ، وكان وزيرا لخارجية المملكة العربية السعودية يتبادل التهنئة مع المرحوم مصطفى النحاس « باشا » وكان رئيسا لوزراء مصر والمرحوم عبد الرحمن عزام فى الحفل الذى أقامه النحاس « باشا » تكريما للوفود العربية فى تلك المناسبة ..



■ هدد المرحوم عبد الرحمن عزام بالاستقالة لأن اللورد كيلرن السفير البريطانى قال عنه إن له ميولا نازية .. وكانت أزمة انتهت باعتذار السفير البريطانى ..

تقرير الأمين العام
أمام مجلس الجامعة العربية :

■ شهدت سنة ١٩٤٨ اجتماعات تاريخية لمجلس الجامعة العربية ، والصورة للمرحوم عبد الرحمن عزام وهو يلقي بيان الأمين العام عن دخول قوات المتطوعين التابعة للجامعة العربية إلى فلسطين تحت قيادة الشهيد أحمد عبد العزيز..



معسكرات للكشافة في كل الدول العربية

■ كان إيمانه قويا بالشباب العربي ، ومن مشروعاته التي تبناها باسم الجامعة العربية إنشاء معسكرات للكشافة في كل الدول العربية مع تشجيع تبادل الزيارات بين فرق الكشافة العربية والصورة له وهو يتوسط إحدى فرق الكشافة العربية أثناء زيارتها للأمانة العامة ..

مشادات بين عزام ونوري السعيد داخل اللجنة السياسية :

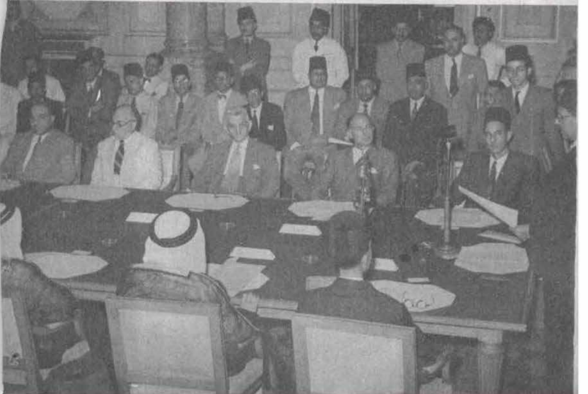
■ شهدت اجتماعات اللجنة السياسية مشادات عنيفة بين المرحوم عبد الرحمن عزام ونوري السعيد ، وفي إحدى الجلسات قال عزام لنوري : اسكت يا نوري وإلا خرجت من هنا لأصارح الجماهير بحقيقة خياناتك .. وسكت نوري ولم يتكلم !.



خطة لإنقاذ الأمير عبد الكريم الخطابي :

■ وكان هو الذى وضع بنفسه خطة إنزال الأمير عبد الكريم الخطابي فى ميناء بورسعيد عندما عرف أن الفرنسيين سينقلونه على باخرة من المنفى إلى فرنسا .. والصورة له مع الأمير الخطابي بعد أن تمت عملية إنقاذه ..

■ صورة تاريخية للمرحوم محمود فهمى النقراشي « باشا » وكان رئيسا للوزراء ، وهو يلقى بيان الحكومة المصرية فى أول اجتماع لمجلس الجامعة العربية بعد إعلان إنشائها ، ويظهر إلى جواره عبد الرحمن عزام بعد انتخابه أمينا عاما ..



القدس عربية والتدويل مرفوض!

■ شهدت دورة مجلس الجامعة العربية فى شهر مارس سنة ١٩٤٨ مناقشات هامة حول قضية فلسطين .. وفى هذه الدورة رفضت اللجنة السياسية المشروع الأمريكى لتدويل القدس وكان القرار: أن القدس عربية وستبقى عربية .. والصورة للمرحوم الملك فيصل، وكان وزيرا لخارجية السعودية وإلى جواره عبد الرحمن عزام فى جلسة افتتاح دورة مجلس الجامعة ..



أزمة لمنع محاكمة مفتى فلسطين كمجرم حرب:

■ أثار المرحوم عبد الرحمن عزام أزمة عندما طالبت دول الحلفاء بمحاكمة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين كمجرم حرب .. وفجأة وصل الحاج أمين الحسينى إلى القاهرة، والصورة له مع عبد الرحمن عزام فى أول لقاء لهما بعد وصول المفتى إلى القاهرة ..





مع صديق عمره الدكتور فوزى :

■ تربط المرحوم عبدالرحمن عزام بالدكتور محمود فوزى علاقة صداقة وطيدة منذ كان الدكتور فوزى مندوبا لمصر فى الأمم المتحدة، وكان يقول دائما إن الدكتور فوزى هو واحد من أصدقاء عمره .. والصورة لهما فى أحد صالونات الأمم المتحدة وهما يتبادلان الرأى حول تطورات قضية فلسطين فى مجلس الأمن ..

■ كانت أسعد لحظاته عندما كان يلتقى بالصحفيين، وكان مؤمنا بالصراحة المتناهية فى مناقشة القضايا العربية، والصورة له فى أحد مؤتمراته الصحفية سنة ١٩٤٨، ويجلس إلى يمينه مباشرة جميل عارف ..

مع شريكة
كفاحه



■ المرحوم عبد الرحمن عزام مع السيدة الفاضلة التي شاركته كفاحه أثناء إحدى رحلاته إلى الأمم المتحدة ..

أثارت استقالته أزمة :

■ أثارت استقالة المرحوم عبد الرحمن عزام من منصبه كأمين عام للجامعة العربية أزمة حادة .. والصورة للمرحوم الملك فيصل ، وكان وزيرا لخارجية السعودية وإلى جواره عبد الرحمن عزام فى حفل عشاء أقامه على ماهر أول رئيس وزراء لمصر بعد ثورة ٢٣ يوليو بالأسكندرية تكريما للمرحوم الملك فيصل ، ودعا إليه اللواء محمد نجيب ..



الصورة الأخيرة فى أرض المعارك :



■ كانت له أمنية ، وهى أن يزور منطقة المعارك التى خاضها فى شبابه ضد الاستعماريين الإنجليزى والإيطالى فى ليبيا ، وتحققت أمنيته قبل وفاته بعدة أشهر .. وفى مدينة طرابلس أهدوا إليه مفتاح المدينة .. والتقطت له هذه الصورة ، وهو يخطب فى جماهير الشعب الليبى التى خرجت للترحيب به ، ولم يكن يعرف أنها ستكون آخر صورة له قبل وفاته ..



■ ومرت عدة أسابيع ، ثم ذهب جمال عبد الناصر بنفسه إلى بيت عزام لاستشارته فى بعض القضايا العربية ، ولاقناعه بالعودة إلى الجامعة العربية ، ولكن عزام أصر على موقفه .. وتكررت بعد ذلك زيارات عبد الناصر لعزام فى بيته ..



▲ ■ المرحوم الشيخ يوسف شاهين مندوب السعودية فى اجتماعات مجلس الجامعة مع المرحوم عبد الرحمن عزام وهو يحاول إقناعه بالعدول عن استقالته .. ولكن عزام كان قد اتخذ قراره !



فى ذمة الله مع الخالدين :

■ ومات الرجل الذى عاش حياته مكافحا فى سبيل الله والعروبة لتبكيه أمته العربية.. وكانت وفاته فى أحد مستشفيات مدينة « كان » فى جنوب فرنسا فى يوم ٢ يونيو سنة ١٩٧٦ ، وقد نقل جثمانه إلى القاهرة على طائرة سعودية خاصة ليجرى تشييعه من مسجد مبنى الجامعة العربية بميدان التحرير.. ودفن الفقيد فى المسجد الذى بناه شقيقه المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام فى حلوان.. رحمه الله ، وأسكنه فسيح جناته مع الخالدين..